لمعان البروق في سيرة مولانا أحمد زروق

الدكتور الفاتح علي حسنين

راجعه
البروفيسور/ يوسف فضل حسن
جامعة الخرطوم


بسم الله الرحمن الرحيم

لمعان البروق في سيرة
مولانا أحمد زروق

هو العارف بالله محتسب العلماء والأولياء وصاحب الشريعة والحقيقة أبوالفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد ابن محمد بن عيسى الفاسي البرنسي

الدكتور الفاتح علي حسنين محمد شريف أبوالحارث

راجع هذه الطبعة وأعدّها للنشر
أ. عبدالله حميده الأمين
بكالوريوس آداب – جامعة الخرطوم 1970م

الإهداء

إلى روح والدي علي حسنين محمد شريف ابوالحارث
"العمرو باعوا، وطبل القيد في كراعو"
وإلى روح والدتي حفصة أحمد محمد صالح أبوزيد،
"إحساناً وخفض جناح" – "رب ارحمهما كما ربياني صغيراً"
وإلى روح مولانا العارف بالله محتسب العلماء والأولياء أبوالفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن الفاسي المعروف بزروق.
وإلى روحي إن صرت إلى ما صاروا إليه.
وإلى أبي الفاتح محمد الفاتح علي حسنين لكي يسير في هذا الدرب المستقيم.
وإلى كل أحفاد أحمد زروق بالسودان لعلهم يحيون ذكراه ويتبعون طريقه.

المؤلف

تقديم

د. الباقر عمر الحسن

لقد منَّ الله عليّ بأن أعرف – منذ حداثة سني – النذر اليسير عن العالم الفقيه الزاهد الورع الشيخ أحمد زروق المغربي. وهذا النذر اليسير عرفته من أحاديث جدي مسعود – رحمه الله تعالى وطيّب ثراه – والتي كانت غالباً ما تدور حول سيرة الشيخ زروق كلما تعرض لجذور عائلتنا التي يتصل بهذا الشيخ الذي سطع اسمه في عالمنا الإسلامي فأصبح علماً من أعلامه البارزين.

كان جدي مسعود – وهو أحد رجال الدين المعروفين بمدينة كسلا – يطيل الحديث عن كرامات الشيخ زروق وزهده وورعه مما جعلني أتوق لمعرفة المزيد عن هذا الشيخ ذائع الصيت، على الرغم من أنه لم تكن لي القدرة على استيعاب تلك الرقائق والمعاني الروحية التي يجود بها لسان جدي مسعود وذلك بالطبع يعود لصغر سني في ذلك الوقت ومحدودية علمي.

اختزنت هذه المعلومات في عقلي الصغير مع غيرها إلى أن شاء الله تعالى وقدر لي أن أقوم بدوري في تدريس التصوف الإسلامي بعدد من الجامعات السودانية، الأمر الذي دفعني لأن أبحث في هذا العلم بعمق لما وجدت فيه من دقائق وحقائق كانت موضع اختلاف الباحثين.

لقد استدعى بحثي في حقيقة التصوف الإسلامي منذ بداية التسعينات أن أعتمد على أمهات الكتب حتى أخرج بنتائج دقيقة، لها ما يسندها من الأصول والمراجع الصوفية المعتمدة فكان من قدر الله تعالى أن يكون كتاب "قواعد التصوف" للشيخ أحمد زروق المغربي أحد هذه المراجع. والكتاب على الرغم من صغر حجمه إلا أنه يمتاز بالإيجاز والدقة والتقيّد بالقرآن الكريم والسنة المطهرة مما زاد رغبتي في معرفة سيرة هذا العالم الذي جمع بين الشريعة والحقيقة في حياته ومؤلفاته.

ولقد كان من توفيق الله تعالى لي أن وجدت ضالتي التي أنشد في هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم "لمعان البروق في سيرة مولانا أحمد زروق" والذي أعده الدكتور الفاتح علي حسنين. وهو كتاب قيّم بذل فيه مؤلفه جهداً مقدراً، حيث تتبع سيرة الشيخ زروق من المولد وحتى الممات بمنهج علمي تتضح سماته في كل صفحات الكتاب.

والذي يلفت انتباه القارئ لهذا الكتاب أن المؤلف تحرى الدقة في سرده لسيرة الشيخ مما جعله يتجشم مشاق السفر إلى المغرب ليتعرف عن قرب على سيرة هذا العالم البارز، بالإضافة إلى اهتمامه بجمع مخطوطات الشيخ ومؤلفاته مما أثرى الكتاب وجعله كنزاً من المعلومات. كما تميز الكتاب بمطواعية الأسلوب وحسن السبك مما زاد الكتاب رونقاً وحسناً. غير أن المؤلف أورد نصوصاً تحت عنوان "مولانا أحمد زروق الولي"، وددت لو أنه قام بالتحقيق فيها وتحليلها تحليلاً يستند إلى نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة، لأن اهل العلم – فيما أعتقد – لديهم رأي قاطع في بعض هذه الأقوال التي وردت تحت هذا العنوان.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه في المجلد الحادي عشر من "مجموع الفتاوى: ليس لأحد أن يدعو شيخاً ميتاً أو غائباً، بل ولا يدعو ميتاً ولا غائباً: لامن الأنبياء ولا غيرهم. فلا يقول

لأحدهم: ياسيدي فلان ! أنا حسبك أو في جوارك ولا يقول: بك استعنت، وبك استجير، ولا يقول إذا عثر: يا فلان ... إلى أن يقول: ولا غير ذلك، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب، ومسألته، والاستغاثة به، والاستنصار به، بل ذلك من أفعال المشركين، وعبادات الضآلين".

حقيقة التصوف الإسلامي:

إن مضمون التصوف الحق هو مضمون إسلامي أصيل تعود أصوله إلى الكتاب والسنة وآثار الصحابة. فالتصوف الحق هو كشف طريق الرسول الكريم والإقتداء والاهتداء بسلف هذه الأمة والتأسي بطريقتهم. والدليل على ذلك هو أقوال أهل التصوف الحق التي تقيد معارفهم واحوالهم بالكتاب والسنة في المقام الأول والأخير. وإذا كان هذا هو مضمون التصوف الحق، فإنه يتوجب على كل مسلم أن يأخذ بحظه منه إذ لا تستقيم العبادة بقلوب مملوءة بالكبر والحسد والرياء والنفاق وغير ذلك من أمراض تخصص في تشخيصها أهل التصوف وتفرغوا لها.

فالمسلمون لم يخوضوا معركة وينجحوا فيها إلا بعد أن نصروا هذا الدين في أنفسهم، فنصرهم الله على عدوهم. فحماية الأوطان لا تبدأ في الجغرافيا وإنما تبدأ في النفس. وبناء الأمم لا يكون في افضاء وإنما يكون في القلوب. ولعل من كل ذلك يتضح أن نشأة علم التصوف كان تلبية لحاجة المسلم إلى هذا العلم الذي يبحث في السلوكيات والأخلاق كحاجته لعلم الفقه وعلم العقيدة وغيرهما من علوم إسلامية. ولعلنا نقدر أهمية هذا العلم إذا ما علمنا أنه بانقضاء جيل الصحابة فترت الهمم وظهرت الشُبه التي أثارها أعداء الإسلام من فلاسفة وغيرهم مما دفع بالمسلمين إلى محاولة إعادة الأمر إلى ماكان عليه الحال في عصر رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه عليهم الرضوان.

وأهل التصوف الحق كانوا يعلمون أن إرجاع الأمر إلى هيئته الأولى لا يكون بالجدل والمناظرات وإنما يكون بالإقبال على الله تعالى والتسليم المطلق له فتنفتح أعين البصائر ويزداد اليقين.

غير أن التصوف الإسلامي اعتباراً من القرن الثالث الهجري مازجته بعض العقائد والفلسفات الغربية عن الوسط الإسلامي والسبب في ذلك هو أن ذلك القرن كان قرن الترجمة لهذه الثقافات والمعارف الأجنبية. فظهرت من ثم هذه العقائد في كتب الصوفية وإن كان هنالك تيار صوفي، وهو التيار الذي يمثله أهل التصوف الحق رفض هذه الأفكار الوافدة واستمر في السير إلى الله تعالى كما كان عليه حال السلف الصالح. ولذلك يمكن لنا أن نميز هنا بين تيارين داخل الوسط الصوفي:

أولاً: تيار معتدل لم يتأثر بالعقائد الفاسدة كعقيدة وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من الأفكار الأجنبية التي وفدت إلى الوسط الصوفي وهذا التيار عادة يعرف في إصطلاح الباحثين "بالتصوف السني" أو "التصوف الحق".

ثانياً: تيار آخر يعرف في الاصطلاح بالتصوف الفلسفي وهو الذي تأثر أصحابه بهذه العقائد الفاسدة التي ظهرت في كتاباتهم المدونة في كتب التصوف. وهذا التيار وجد رفضاً وهجوماً من فقهاء الإسلام وعلمائه.

وعلى ذلك فإن أراد المسلمون إصلاحاً فإن ذلك يكون بتحرير التصوف الإسلامي كموروث روحي مما علق به من شوائب وليس بالتعصب الأعمى الذي يقضي على الأخضر واليابس. وقد كان هذا هو منهج شيخ الإسلام ابن تيميه وأتباعه الملتزمين بمنهجه حيث عرفوا "للتصوف الحق" قدره وعرفوا لأهله فضلهم.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

مقدمة الطبعة الأولى

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد السراج المنير والنور المبين والرحمة المهداة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

مازلت أذكر ما كان يرويه لنا الأجداد والآباء عن مولانا أحمد زروق المغربي وكيف أنه ولد في مدينة فاس التي تم تأسيسها عام مائتين من الهجرة، ثم هاجر إليها القرويون من تونس واستوطنوا غرب النهر فيما سمي بالعدوة القيروانية، ثم جاء أهل الأندلس وإستوطنوا شرق النهر فيما سمي بالعدوة الأندلسية، وقد كان جامع القرويين قبلة العلم في ذلك الوقت هناك، ولد العارف بالله أحمد زروق حيث حفظ القرآن وهو ابن تسع سنوات ثم ساح في الأرض وعندما بلغ عمره أربعة وعشرين عاماً تولى رئاسة كرسي المالكيين في رواق المغاربة بالأزهر الشريف حيث كان يحضر درسه حوالي الستة آلاف طالب للعلم، ومازال ذلك الكرسي موجوداً حتى اليوم. وقد اكتشف منذ بضع سنوات مصحف يخص مولانا أحمد زروق وهو أحد المصاحف التي بعث بها سيدنا عثمان بن عفان للأمصار وقد آل ذلك المصحف للشيخ السنوسي الذي كان أحد مريدي مولانا زروق. كما حدثونا عن ابنة مولانا زروق التي كانت إذا قرأت القرآن يستمع إليها حتى الطير في الشجر وفي السماء. وكانت جدتي لأمي أم الحسن بنت السيد حميده والتي كنت أنام عندها وأنا ابن أربعة أعوام، وقد كانت صلاتها ودعاؤها يوقظاني في منتصف الليل وكنت أود أن أسألها عن ألفاظ كانت تدعو بها لم أفهم معانيها، وغالباً ما يطول إنتظاري لأن حالها ذلك كان يستمر حتى طلوع الشمس، وقد سمعت فيما بعد أنها كانت ترى الرسول (ص) في منامها وحتى في يقظتها.

وكنا نسمع أن أحفاد أحمد زروق هم الذين أدخلوا المذهب المالكي في السودان، وهم أيضاً الذين أدخلوا ثوب المرأة السودانية ثم إن معظم رجال الدين والأولياء الصالحين في السودان لهم صلة بالمغاربة إن لم يكن من جهة الأب فمن جهة الأم، وفي هذا المقام نذكر أن احد أعمامي غاب فترة طويلة، وعند السؤال عنه قيل أنه ذهب إلى فاس (الماورها ناس).

ثم كانوا يحدثوننا عن جدنا حسنين محمد شريف الذي هاجر بأسرته من عصار بعد معارك دامية بينهم وبين فلول ما تبقى من جيش الجهادية بعد وفاة الخليفة عبدالله الذي قيل أن أصوله أيضاً من المغرب، وأنه المهندس الحقيقي للحركة المهدية، وقد اضطر حسنين محمد شريف لحمل السلاح وهو ابن عشر سنوات مما دعا الشاعرة المشهورة شريفة بنت بلال لنظم قصائد رائعة في شجاعة حسنين نورد مطالع بعضها:

حسـنين العمرو باعو ‌ ‌ ‌ طبل قيدو في كراعو

***

وشاحده الله عمرو يطول ‌ ‌ ‌ الطابل قيدو في أم دمور

***

وقيــرولــو يا ندادا ‌ ‌ ‌ حسـنين حبس المخاضة

وقد كان الجو المحيط بنا في كركوج جو علم وتصوف، فالشريف الخاتم في أم سنط ومعه أشراف أم سنط بالقرب من كركوج، والشريف محمد الأمين الخاتم وأنجاله الكرام منهم

عمتنا في كركوج، والشيخ محمد الصابونابي وأخوانه وأنجاله الأفاضل غرب كركوج في مدينة الصابونابي، وابنه وخليفته الشيخ الفلاح في مدينة سنجة، والفكي موسى ودالزاكي والفكي الفاسي في مدينة دونتاي، والفكي الطيب والفكي العشا في الدبيبة، وأقرباء الشيخ الصابونابي في أم عجوبة، والسادة الروجاب في العزازة شرق النيل وغربه، وكذلك الشيخ عايس أبو شله وآخرون.

زرت أخيراً مدينة فاس وبحثت عن حي الجبل الأخضر كما أوصاني الوالد عليه رحمة الله تعالى وبركاته وسألت عن أسرة مولانا أحمد زروق فوجدت أن ثلث أهل المغرب يحملون إسم ولقب زروق، ولم أتمكن من زيارة ضريح مولانا أحمد زروق في مصراته بليبيا.

وسط هذا الجو المفعم بالمشاعر بدأت أكتب عن الشيخ أحمد زروق ثم علمت أنه الشريف أحمد زروق ثم مولانا العارف بالله ثم محتسب العلماء والأولياء وهو لقب لم ينله أحد من قبله ولا من بعده. ثم وجدت أن العارف بالله أحمد زروق قد كتب في كل فروع العلوم والمعرفة، فقد كتب في تفسير القرآن الكريم، وعن صحيح البخاري والترمذي، ثم كتب في الفقه والسيرة، والطب، وقرض الشعر، وشرح كتب كبار المتصوفة، وكتب في الكيمياء، وفي اللغة العربية.

ثم وجدت أن عدداً كبيراً من العلماء قاموا بتخريج كتبه على رأسهم فضيلة الشيخ الإمام الأكبر عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الشريف، ومن الذين قاموا بطباعة كتبه الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان ولي عهد دولة الامارات العربية المتحدة، ومن الذين كتبوا عن مؤلفات مولانا أحمد زروق قيس بن محمد آل الشيخ مبارك والذي حقق كتاب (النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية).

كما وجدت أن عدد الذين كتبوا عن مولانا زروق يفوق الثمانية والعشرين كاتباً، كل هذا والشيخ زروق توفي قبل ما يزيد عن خمسمائة عام. ويرى مولانا زروق – على الدوام – أن الفقه والتصوف موضوعان مترابطان، وأن دراسة الفقه لا غنى عنها للمتصوف، ومن هنا أطلق عليه لقب (الجامع بين الشريعة والطريقة).

وقد بدأت في تسجيل ما جمعت عن مولانا زروق ولكن المرض قد اشتد عليّ وآثرت أن أطبع ما جمعت حتى الآن وألا أنتظر تسجيل المزيد حرصاً أن يرى النور هذا الجزء الذي جمعته وإن كان في العمر بقية أكملت المشوار وإن كان غير ذلك فالله أسأل أن يسخر من يكمل الأمر.

في سياق الكتابة عن مولانا الشيخ زروق تعرضت لمعلومات عن قبيلة المغاربة بالسودان، وكنت أظن أنهم في منطقة ود السيد ومدني وحلة المغاربة وعصار وكركوج فقط، ولكني فوجئت بأن العدد الأكبر موجود في شرق النيل من مدينة بحري إلى أبودليق ثم بالجزيرة عموديات بأكملها في منطقة المناقل ثم بالأبيض والقضارف وكسلا وبورتسودان ومروي والباوقة، وبإختصار فإن المغاربة موجودون في معظم مدن السودان وإن شاء الله سنعود لنكتب عن هذه السيرة مرة أخرى.

أتقدم بالشكر أجزله لكل من ساهم وساعد لكي يرى هذا العمل النور.

أخيراً أود أن أوضح أنني عندما بدأت الكتابة عن مولانا أحمد زروق ترددت كثيراً تهيباً للكتابة في مثل هذا الأمر أولاً لقلة بضاعتي وعلمي ولندرة المعلومات عن مولانا زروق

ولصعوبة الوصول لتلك المعلومات. فقد اتصلت ببعض دور النشر في القاهرة وتحصلت على بعض الكتب والمطبوعات والمخطوطات وكذلك بدور نشر في ليبيا ووجدت قليلاً من كتب مولانا ثم سافرت إلى الشام – دمشق – وهناك عثرت أيضاً على بعض الكتب وبالبحث وجدت أن عدداً كثيراً من مؤلفات مولانا ما زالت مخطوطات حتى اليوم لم تطبع بعد. وقد أخذت بمكانة مولانا السامقة حتى قرأت لأبي روى الفحل قولاً: (من ليس في قلبه محبة الشيخ زروق ليس بمؤمن). ثم قولاً آخر لعبد الله كنون عن مولانا زروق (ومن ثم أطلق علماؤنا رحمهم الله "محتسب العلماء والأولياء" وهي صفة جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء الإسلام ولا فيما قبله ولا فيما بعده).

هذا مع علمي أن أعداداً كبيرة من السودانيين شغوفون بمحبة مولانا زروق ولا يعرفون عنه الكثير، وأردت أن أشبع رغبة تلك الأعداد الكبيرة من المحبين ثم ليقيني التام بان خدمة هؤلاء العلماء والصالحين من أمثال مولانا زروق عمل وعلم صالح نلتمس به القربى إلى الله سبحانه وتعالى.

والخير أردت والله يهدي إلى سواء السبيل.

د. الفاتح علي حسنين محمد شريف

كركوج

غرة رجب 1423هـ

الموافق 2002/9/9م

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 2002 للميلاد عن مكتبة الجندي بالقاهرة. وقد حظيت تلك الطبعة باهتمام الباحثين ورجال الطرق الصوفية في السودان وفي غالب بلادنا العربية خاصة مصر وبلاد المغرب. بما أن الطبعة الأولى قد نفدت من الأسواق في مدة لم تتجاوز السنوات الثلاث، فقد آليت على نفسي أن أعيد نشر الكتاب في طبعة جديدة تعميماً للفائدة واستجابة لطلبات عديدة وصلتني من جهات تربطني بها أواصر الدم ووشائج المحبة والأخوة في الله.

لقد حاولت – ما وسعتني الحيلة – أن أصحح الهفوات التي صاحبت الطبعة الأولى من أخطاء في الطباعة والتصميم، فأجريت بعض التعديلات في التبويب وأضفت ما سقط من مادة الكتاب في تلك الطبعة وراجعت لغته بحيث تأتي صياغته أكثر إبانة وأحكم تركيباً.

ولا زالت – رغم الجهد الذي بذل – أتطلع إلى النصح وأرغب – صادقاً – في أن أتلقى من كل من يهمه نشر هذا الكتاب وتعميم فائدته: المشورة والرأي فلا خاب من استشار.

وإني لشاكر لكل أولئك الإخوة الأحباب الذين شجعوني على هذا العمل الذي أحسب أن فيه خيرٌ كثيرٌ وثواب نسأل الله أن يثبته ويبقيه ذخراً لنا جميعاً في يوم تشخص فيه الأبصار وتقوم فيه الموازين بالقسط عدلاً بين الخلائق.

وأخص هنا بالذكر الأستاذ عبدالله حميده الذي تابع خطوات إعداد هذه الطبعة وتنقيح مادتها وتجهيزها في صورتها النهائية، كما أشكر البرفيسور يوسف فضل حسن على توجيهاته السديدة وآرائه القيّمة التي استعنا بها عند إصدار هذه الطبعة. والشكر موصول للدكتور الباقر عمر الحسن على تقديمه لهذه الطبعة، وللشيخ عطية محمد سعيد على إفادته القيّمة عن مولانا زروق.

أسأل الله أن ينفعنا بعلم مولانا زروق وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم.. إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. الفاتح علي حسنين

تقديم

بقلم الشيخ/ عطية محمد سعيد

كلفني الأخ الفاضل الدكتور الفاتح علي حسنين بتقديم كتابه القيّم عن الشيخ أحمد زروق المغربي فرحبت بهذا التكليف، رجاء أن أوفق في إلقاء بعض الأضواء، وإضافة مزيد من التعريف بهذا الشيخ الجليل عليه رحمة الله ورضوانه.

لقد كان الشيخ أحمد زروق عالماً فاضلاً وصوفياً معتبراً ترك بصماته في الفقه والتصوف حيث وضع قواعد للتصوف راعى فيها جانب الحق والتزام الكتاب والسنة، كما بيّن في كلمات لا لبس فيها ولا غموض أهمية الفقه ومنزلة الفقيه الذي أعتبره الشيخ زروق – القيّم على الدين والحكم على المتعبدين والزهاد المقدم على الصوفية والعباد لما له من العلم الشرعي والمعرفة بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة وما حواه هذان المصدران من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب وشرائع وأحكام وحلال وحرام.

ومن هنا كان الفقيه في نظر الشيخ زروق هو صاحب الكلمة الحاسمة في مواقف النزاع والخلاف ولم يجعل هذه المكانة للصوفي المتعبد مهما علا مقامه وذاع صيته ما لم يكن عالماً فقيهاً متمكناً من علمه.

وقد ظل المسلمون يتجادلون ويتحاورون منذ ظهور التصوف في منتصف القرن الثالث الهجري، حول التصوف والفقه أيهما أولى بالتقديم؟ وأي السبيلين يوصل إلى مرضاة الله وأيهما أرشد سبيلاً وأقوم قيلا..؟

وذهب كل الفقهاء والمتصوفة إلى حجج يدعم كل فريق بها مذهبه ويعلى بها من شأن معتقده وأفكاره..

وجاء الشيخ زروق – رحمه الله – ليدلي بدلوه في هذه المسألة ويقرر قواعد يسير عليها الناس ويضع كل من الفقه والتصوف في مرتبته بحسب ما توصل إليه من علمه بالشرع وأحكامه والتصوف وأغراضه.

قال – رضوان الله عليه – في كتابه (قواعد التصوف القاعدة 26):

"حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في المخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك".

ثم أردف قائلاً:

(فمن ثم صح إنكار الفقه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه "الفقه" إليه "التصوف" إلا به "الفقه" وإن كان أعلى منه مرتبة فهو "الفقه" أسلم وأعم منه مصلحة).

في هذه الكلمات أوضح الشيخ زروق الفقه وسلامته من الزيغ والضلال لأنه دين مأخوذ بنصوص واضحة صريحة عن صاحب الشرع الذي لا ينطق عن الهوى، وعليه فهو أسلم وأحكم وأعم مصلحة. لذا وجب الرجوع من التصوف إلى الفقه لأن التصوف أحوال وخطرات وأذواق ولا تعتبر هذه من القواعد الشرعية ولذا وجب الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء بالفقه عن التصوف.

ويرى الشيخ زروق أنه لا بد من تحقيق أصول الدين كاملة علماً وتطبيقاً وذلك يعني إقامة الأصول والفروع.
قال في القاعدة التاسعة والأربعين:
(تحقيق الأصل لازم لكل من لزمه فرعه إن كان لا ينفك عنه، فلابد من تحقيق أصول الدين وإجرائه على قواعده عن الأئمة المهتدين).

كما يرى الشيخ زروق أنه لابد للصوفي أن يتبع علماء الدين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن نهج نهجهم من الأئمة الفضلاء.

قال رحمه الله: (ومذهب الصوفي من ذلك تابع لمذاهب السلف في الإثبات والنفي). ويشرح ذلك موضحاً جوانب الاعتقاد السليم، فيقول: (وفصل الاعتقاد ثلاثة: أولها: ما يعتقد في جانب الربوبية وليس عندهم). أي الصوفية (إذ ليس ألحن من صاحب الحجة بحجته). ومعنى قوله هذا أن صاحب الحجة عنده هو الذي يملك الدليل من الكتاب والسنة وهو العالم بالشريعة. الثاني: (ما يعتقد في جانب النبوة، وليس إلا إثباتها وتنزيلها عن كل علم وعمل وحال لا يليق بكمالها مع تفويض ما أشكل بعد نفي الوجه المنقص). والثالث: (ما يعتقد في جوانب الدار الآخرة وما يجري مجراها من الخبريات، وليس إلا اعتقاد صدق ما جاء من ذلك على الوجه الذي جاء عليه من غير خوض في تفاصيله والقول الفصل في كل مشكل ذلك ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال: (آمنا بما جاء عن الله على مراد الله وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم).

كان الشيخ زروق ينصح أخوانه ومريديه أن يكونوا فقهاء وعلماء قبل أن يتصوفوا وبعد التصوف، قال رحمه الله في قواعده: (كان فقيها صوفياً ولاتكن صوفياً فقيهاً). وقال: (صوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية واسلم). ويبرر ذلك فيقول: (لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً بخلاف فقيه الصوفية فإنه المتمكن من علمه وحاله ولا يتم ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح ولا يصح له أحدهما دون الآخر).

يحسن الشيخ زروق الظن في الرجال الذين ألفوا الكتب في نقد الصوفية ويحمل شدتهم في ذلك على غيرتهم على الإسلام، قال في القاعدة (210) من قواعد التصوف: (ما ألف من الكتب للرد على القوم الصوفية فهو نافع في التحذير من الغلط ولكن لا يستفيده إلا بثلاثة شروط: أولها: حسن النية في القائل باعتقاد اجتهاده وأنه قاصد حسم الذريعة – وإن خشن لفظه كابن الجوزي – فللمبالغة في النكير. الثاني: إقامة عذر القول فيه بتأويل أو غلبة أو غلط أو غير ذلك إذ ليس بمعصوم، وقد يكون للولي الزلة والزلات والهفوة والهفوات لعدم العصمة وغلبة الأقدار كما أشار إليه الجنيد رحمه الله. الثالث: أن يقتصر بنظره على نفسه فلا يحكم به على غيره ولا يبديه لمن لا قصد له في السلوك).

ومن مطالعة كتب ورسائل الشيخ زروق يتضح لنا أنه رجل عالم متمكن وعابد متبتل وصوفي متحقق متقيد بآداب السلوك وقواعد الشرع بعيد عن الغلو والزيغ، إذ جعل ميزانه هو القرآن وما ورد عن الرسول الكريم من صحة الاعتقاد وملازمة الأتباع للشرع من عبادة الله وحده لا شريك له عن علم بتوحيد الإلوهية وتحقيق العبودية التامة لله رب العالمين الذي بيده الأمر كله.

هكذا كان ولهذا دعا ولكن بعض مريديه وأحبابه غالوا فيه كثيراً ونسبوا إليه من الأعمال والأقوال والمعتقدات ما لا ينبغي أن يُعتقد إلا في الله من إجابة الدعوات وكشف الكربات والتصرف في ملكوت الأرضين والسماوات، ولم يكتفوا بذلك بل نسبوا إليه من الكتب ونظموا على لسانه من القصائد والأشعار ما لا يتفق مع عقيدة الإسلام، وقد أشار الأخ الدكتور الفاتح حسنين إلى بعض هذه الكتب أثناء استعراضه لمؤلفات الشيخ زروق.

ومن أقبح ما نسب إليه مما يتعارض مع العقيدة الإسلامية القصيدة المسماة بالتائية، وقد استبعد دكتور حسنين نسبتها إليه دون أن يتعرض لها بالتفصيل أو ينقل أبياتاً منها وهذه الأبيات منها:-

ملكت أرض الغرب طرا بأسرها وكل بلاد الشرق في طي قبضتي
فأرفع قدرا ثم اخفض منصبا بأرفع مقدار وأرفع همة
و أعزل قوماً ثم أولى سواهم و أعلى مقام البعض فوق المنصة
و ابسط أرواحا و أقبض أنفسا و أحيي قلوبا بعد موت القطيعة
و أجبر مكسورا و أشهر خاملا و أرفع موضوعا بأعلى همتي
و اقهر جبارا و ادحض ظالما وأنصر مظلوما بسلطان سطوتي
فإن كنت في كرب وضيق وشدة فناد أيا زروق آتي بسرعة
فكم كربة تُجْلى إذا ذكر اسمنا وكم كربة تجلى بإفراد صحبتي

هذه القصيدة التائية المنسوبة للشيخ، لا تشبهه ولا تتناسب مع علمه وورعه، ولو كان رضي الله عنه حياً وعرضت عليه هذه القصيدة لتبرأ منها ولربما شدد على قائلها وحكم عليه بالكفر أو الفسوق، لأن مضمونها يخالف الكتاب والسنة، ويخالف القواعد التي وضعها الشيخ زروق.

وهكذا فالشيخ أحمد زروق فقيه عالم وصوفي مستنير ومتسامح مع منتقدي الصوفية باعتبار غيرتهم على الدين وحرصهم على التحذير من الشوائب والغلط. وهو بريء مما ينسب إليه من أقوال وأشعار تتناقض مع ما عرف عنه من علم وورع.

نفعنا الله بعلم الشيخ أحمد زروق رحمه الله وغفر له،،،

تقريظ

بقلم الشيخ/الطيب الغزالي أحمد زروق صقر البرزن

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد...

إن الله سبحانه وتعالى اختار من عباده من يحملون الأمانة التي أشفقن منها الجبال، وحبب إليهم عمل الخير كله، فتحملوا مسئولية تبليغ الرسالة ومسئولية الدعوة الإسلامية ونشر القيم والفضيلة في المجتمع، فظلوا صابرين صامدين مجتهدين مجاهدين فانطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (الأحزاب آية 23) وقال فيهم شاعر القوم:

ساروا إلى الرحمـــن في خلواتهم سيراً حسيساً لم يشب بكلال
بذلوا النفوس مع النفيس لوجهه بالصدق والإخلاص في الأعمال

ومن هؤلاء القوم الشيخ أحمد زروق المغربي الشريف الحسيني الذي وهب حياته كلها لله رب العالمين وعاش عمره بين متعلم ومعلم حتى صار علماً بارزاً في عالمنا الإسلامي، وتحمل مسئولية هذه الدعوة من بعده أبناؤه وأحفاده على مر القرون الماضية، وانتشروا في بلاد الإسلام لمواصلة ما بدأه الشيخ أحمد زروق في زمن لم تكن فيه الأحوال مسيرة ولا الإمكانيات متاحة.

فتحملوا مسئولية هذه الدعوة إيماناً منهم بعظمتها، وهم يقطعون مئات الآلاف من الأميال على الدواب وعلى أرجلهم ويحملون وسائل الدعوة من كتب و(ليحان ودوايا) على أكتافهم، وهم على ثقة في أنفسهم وفي ربهم بأنهم سوف يبلغون القصد ويحققون الهدف وهو تعليم أبناء المسلمين كتاب الله وسنة رسوله، وقد تحقق ذلك بقدر كبير في كثير من بلدان العالم، وأسلم على أيديهم عدد كبير من الناس، فسار أبناء الشيخ أحمد زروق على نهج جدهم وهم لا يرجون الجزاء إلا من عند الله رب العالمين، وكان نصيب السودان الأوفر حيث أستقر فيه عدد مقدر من الأشراف أبناء الشيخ أحمد زروق، وانتشروا في بقاعه المختلفة وصاهروا القبائل المختلفة أيضاً، وصاروا أعلاماً يشار إليهم بالبنان ويقصدهم الناس من كل فج بغرض العلم والمعرفة وقضاء الحوائج، ومساجدهم وخلاويهم لا زالت تواصل العطاء من غير منّ أو أذى. ومن أحفاد الشيخ أحمد زروق على سبيل المثال لا الحصر الشيخ حسوبة ود عبدالله ومقامه معلوم بسوبا شرق، والفكي النعمة الطاهر بمنطقة الهميج بالجزيرة ريفي العزازى، والشيخ الأمين ودبله الشهير بصقر البرزن ومسجده بشرق النيل بالخرطوم، والشيخ محمد ود أبو صالح بمسجده بشرق النيل بالخرطوم، وهناك عدد كبير من الأشراف أبناء الشيخ أحمد زروق لهم مساجد وخلاوى ومقامات تؤدي رسالة نشر الإسلام وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم الدين، أما في مجال الإدارة الأهلية فهناك عدد كبير من النظار والعمد والمشايخ ومنهم على سبيل المثال العمدة عبدالسلام ود كبيدي بسوبا شرق، والعمدة أحمد ود الزين بمنطقة الجزيرة

المناقل، والعمدة ود فجونا عمودية المغاربة بشرق النيل، والعمدة فج النور بالبطانة. وعدد كبير من العموديات في مناطق السودان المختلفة في كركوج ومدني وود السيد والخرطوم وأم درمان والحلفايا. ومن العلماء على سبيل المثال الشيخ عوض الله صالح مفتي الديار السودانية والشيخ دفع الله ود زروق بالجزيرة. وقد تبوأ أبناء المغاربة بالسودان عدداً من المواقع الدستورية والتشريعية فمنهم القضاة والمحامون وأعضاء ورؤساء بعض المجالس التشريعية وأعضاء المجالس الوطنية والجمعيات التأسيسية ومجالس الشعب. وانخرط عدد كبير من أبناء المغاربة في القوات المسلحة وقوات الشرطة والأجهزة الأمنية المختلفة فمنهم من وصل إلى رتب متقدمة، وتبوأ عدد من أبناء المغاربة مواقع المحافظين والوزراء وفي مجال الخدمات.

كما قدم أبناء الشيخ أحمد زروق أعمالاً جليلة كحفر الآبار والحفائر وإنشاء المدارس والمعاهد والخلاوى والمستشفيات وهناك عدد كبير من الجمعيات الخيرية التي تعين الضعفاء بصفة عامة. وظل أبناء الشيخ أحمد زروق يواصلون المسيرة على نهج جدهم الشريف أحمد زروق دون كلل أو ملل. فأنت على موعد أخي القارئ مع علم من أعلام هذه القبيلة من أبناء المغاربة في السودان الذي بذل جهداً كبيراً في كتابة سيرة جده الشيخ أحمد زروق المغربي ألا وهو الأخ دكتور الفاتح علي حسنين الذي نعتقد ونظن فيه الصلاح، وهو يقدم لك أخي القارئ هذا الكتاب ويعتبر أنه نزر يسير وجهد المقل إلى الجناب العالي ونعتقده منهل من مناهل العلم والمعرفة، ولا نشك بأن الأخ دكتور الفاتح صاحبه التوفيق في الكتابة عن سيرة جده الشيخ أحمد زروق بهذا الأسلوب السهل والفهم المتقدم، الشيء الذي يمكن القارئ من الاستفادة من هذا الكتاب دون عناء.

نفعنا الله ببركات الشيخ أحمد زروق وبركات الصالحين أجمعين.

تعريف الإمام الكبير الشيخ أحمد زروق

بقلم الأستاذ/ كمال عمر الأمين

هو العارف بالله بحر العلوم الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوس الفاسي المعروف بزروق.

كان عالماً زاهداً ورعاً، له مؤلفات كثيرة منها:

1- تفسير القرآن وشروح رسالة أبي يزيد القيرواني.

2- شرح سنن القرطبية، وستة وثلاثون شرحاً على الحكم العطائية.

وله شرح لدلائل الخيرات وقواعد الصوفية.

عاش من العمر 63 عاماً، ولد في 10 محرم سنة ثمانمائة وأربعين هجرية، وتولت تربيته جدته وكانت من الصالحات، حفظ القرآن وعمره تسع سنوات، ونشأ مُحباً للعلم، ولما علم وسلك وجلس للوعظ اشتهر أمره فقصده العلماء، أحب التصوف فانتظم في طريق القوم وانتسب إلى الشيخ عبدالله المكي وأخذ عنه الطريقة الشاذلية.

الطريق بلا يقين لا يصح:

ذهب إلى مصر وهناك التقى بالشيخ أبي العباس الحضرمي وسمع بمقدمه العلماء والفضلاء، فوفدوا إليه وحضروا دروسه في الأزهر، وكان يحضر ما يزيد عن الألفين، وكرسيه موجود إلى الآن بالأزهر الشريف (رواق المغاربة) ولقي القبول من العوام والخواص، ثم توجه إلى طرابلس وأحيى بها معالم الطريق ونشر الطريقة الشاذلية وتبعه كثير من المريدين.

ومن كراماته رضي الله عنه أن قبيلة من قبائل عرب طرابلس كانوا قطاع طرق فمر عليهم فنبهه تلاميذه، ونظر بعض المريدين للشيخ فوجدوه لم يتغير، وتعجب الرجال الذين نبهوا الشيخ فازدادوا جرأة عليه وأراد أن يخلع ملابسه فقال له الإعرابي اخلع وإلا قتلتك، قال الشيخ كدت اخلعها لولا ستر الصورة، فقال له الإعرابي أخلع وإلا قتلتك، فنظر الشيخ إلى السماء وتجمد الإعرابي كأنه التصق بالأرض ولم يتحرك فترجّى الشيخ أن يعفو عنه وصاروا مع الشيخ إلى زاويته، ونسلهم إلى الآن يخدم الزاوية تحت اسم خدام الزاوية الزروقية توفي عام 899 هـ ودفن بمصراته في طرابلس وله مسجد كبير تقام فيه الشعائر وبه ضريح.

مولانا الشريف أحمد زروق المغربي

عند مطلع شمس يوم الخميس الثاني والعشرين من محرم سنة 846 هـ الموافق 7 يونيو 1442م، ولد أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي المعروف بزروق بمدينة فاس ويروي الشيخ عبدالله كنون أن زروق ولد في قرية تقع طرف فاس تسمى تليوان، وأن على قبر والده بناية أنيقة تشتمل على مسجد جامع ومكان لسكن الإمام وتعرف بزاوية سيدي أحمد زروق ولها أوقاف، وان ضريح والده يحظى بتعظيم وإحترام من أهل القبيلة مما يدل على أنه من أهل الولاية والصلاح.

والثابت حقاً من سيرته التي كتبها بنفسه أنه ووالده وجده كذلك ولدوا جميعاً وشبوا في فاس كما أن كل ما يرويه مولانا زروق عن طفولته وصباه حدث في فاس. وحين ولد زروق أسماه أبوه محمداً لكنه ما لبث أن عرف باسم أبيه أحمد وذلك عندما توفي أبوه واحتفظ هو باسمه.

كان أحمد هو الابن الوحيد لأبيه ولم يرد ذكر لأخ أو أخت له ولم يستمتع بصحبة والديه إذ توفي كلاهما في الأسبوع الذي تلا ميلاده مباشرة نتيجة للطاعون الذي ضر ب فاس في عام ولادته.

كانت وصية والده أن ترعاه أمه أي (جدة زروق لأبيه) لكن الطفل مولانا تربي في حجر جدته لأمه (أم البنين) وأسمها فاطمة وكانت سيدة فقهية صالحة وقد اشتهرت بذلك.

وقد كان لنساء فاس في تلك الأيام فرصة طلب العلم والمشاركة والنشاط الفكري في البلاد وبلغ بعضهن من العلم شأناً كبيراً كن به نديدات للمشاهير الشيوخ وكانت (أم البنين) إحدى الفقيهات المعروفات في فاس إلى جانب أم هاني العبدوسية وأختها فاطمة وهن من أقارب مولانا زروق.

كانت أم البنين امرأة ورعة وصابرة حريصة على أن يشب حفيدها على خير وجه وأن ينال أفضل تربية وتعليم. ويقول زروق وهو يتحدث عن جدته: "علمتني الصلاة وأمرتني بها وأنا ابن خمس سنين وكنت أصلي إذ ذاك، وأدخلتني الكُتاب في هذه السن. كانت تعلمني التوحيد والتوكل والإيمان والدين بطريق عجيب وذلك أنها كانت في بعض الأيام تهيئ لي طعاماً فإذا جئت من الكُتاب للفطور تقول: "ما عندي شيء ولكن الرزق في خزائن مولانا جل وعز.. أجلس" ثم تدعو الله سبحانه وتعالى فترفع يديها إلى السماء وكذلك أفعل أنا مدة من الزمن ثم تقول: "أبحث لعل الله جعل في أركان البيت شيئاً" فنقوم نبحث أنا وهي فإذا عثرت على ذلك الطعام فرحت به كثيراً فتقول لي تعال نشكر الله ونحمده قبل أن نأكل ذلك الطعام فنرفع أيدينا إلى السماء حامدين شاكرين ثم نتناوله، وكنا نفعل ذلك الأمر مرة بعد مرة.

كان تأثير (أم البنين) على حفيدها عظيماً فقد كتب قائلاً: "في ذات ليلة من الليالي نظرت في نجم السماء فسألت جدتي عن أمر الله فيه، فبينت لي واجب الاعتقاد في الله سبحانه وتعالى. وكانت تقول عني وهي متعجبة: "يستدل على التوحيد وهو ابن سنتين".

"كانت تحدثني عن الصالحين وأهل لعلم محببة إليّ الإيمان ولم تحدثني قط عن الخرافات ودائماً ما تقص عليّ غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وكانت تحببني في الفقه

وتغريني بالدراهم تارة وبالقول الطيب تارة أخرى". وكان أحمد زروق يعامل في البيت بالحزم الواجب الذي يعين على التربية وليس بالقسوة ولا الشدة على الإطلاق.

لم تكن جدته وحدها التي ترعاه فإن آخرين من أفراد الأسرة وأقاربها كانوا يعتنون به ويحرصون على تلقينه أصول السلوك وآداب حسن التصرف في الحياة والمجتمع بما يوافق مقاييس المجتمع في ذلك الوقت.

كان زروق تلميذاً مواظباً وشديد الهدوء حتى انه لم يلعب قط في ساحة المسجد أو يجر فيه كما يفعل باقي الأطفال، ولم يتخلف قط عن حفظ واجبه اليومي المرتب له من الآيات الكريمات حتى أتم حفظ القرآن الكريم وهو لم يكمل عامه العاشر.

عندما بلغ العاشرة من عمره توفيت جدته (أم البنين) وتولى تربيته بعد ذلك أحد أقاربه وصار يكسب قوته بيده بعد وفاة جدته. وعمل خرّازاً حتى بلغ السادسة عشرة من عمره، انتظم بعد ذلك في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة العنانية معاً، وصار يتردد عليهما لدراسة كتب التصوف في تلك الفترة المبكرة من عمره وهو أمر مألوف في ذلك الجو الفكري والديني بمدينة فاس، وتتلمذ على أشهر علمائها وفقهائها آنذاك وما حولها من البلاد والتقى بعلمائها الذين أعانوه في دراسته للدين والفقه.

كان زروق فخوراً بهؤلاء الأساتذة المشهورين وقد سجل بعض أسمائهم في كتابه (الكناش) ومنهم على سبيل المثال:

- عبدالله بن محمد بن قاسم القوري.
- محمد بن علي البسطي القلقصادي.
- محمد بن علي البسطي التازي.
- عبدالرحمن الثعالبي.
- محمد بن الحسين السراج الصغير.
- أم هانئ العبدوسية.
- أحمد بن سعيد الحباك.
- محمد بن القاسم الرصاع.
- أحمد بن عبدالله الزواوي.
- محمد الغماري التلمساني.
- محمد بن يوسف السنوسي.
- أحمد بن سعيد المكناسي.
- أحمد التونسي.
- أحمد بن علي الفيلالي.
- عبدالله العبدوسي.
- علي بن عبدالرحمن الأنفاسي.
- محمد الزيتوني.

كانت اهتمامات مولانا الشريف أحمد زروق في هذه المرحلة نحو الفقه والحديث مع ميل يسير إلى التصوف، ومن أهم الكتب التي درسها في هذه المرحلة:

1- القرآن الكريم بشرح نافع.

2- رسالة ابن أبي زيد القيرواني.
3- الرسالة القدسية للغزالي.
4- عقائد الطوسي.
5- صحيح البخاري.
6- الأحكام الصغرى لعبد الحق.
7- جامع الترمذي.
8- التنوير لابن عطاء الله السكندري.

لمع اسم أحمد زروق المغربي وهو في العشرين من عمره وتفقه وبرز اسمه بين العلماء وهو في الرابعة والعشرين من عمره فأصبح عالماً فقيهاً ومتصوفاً حتى أواخر أيام حياته حيث اتجه إلى طريق التصوف الخالص كما فعل الإمام أبو حامد الغزالي.

ونلاحظ أن أول اسم من أسماء شيوخ الشريف أحمد زروق هو: عبدالله ابن محمد القاسم الغوري، كان فقيهاً ذائع الصيت وأستاذاً في جامع القرويين كما تولى إفتاء مدينة فاس لفترة من الزمن ولم يتلق زروق العلم على يدي هذا الشيخ الجليل فحسب مثل الطلاب الآخرين بل كان تلميذاً قريباً منه، قرأ عليه الأصول وإستفاد من معرفته العميقة بالفقه الإسلامي. وكان من عاداته أن يزوره في بيته بين الحين والآخر، وأن يناقشه في أمور الدين والدنيا، وأما اسم آخر شيخ في القائمة: محمد الزيتوني،فقد كان متصوفاً من أتباع الطريقة الشاذلية وقيل قادرياً، وكان على رأس زاوية الشاذلية في فاس آنذاك. أن زروق قد تعرف عليه عندما كان عمره أربعة وعشرين عاماً وزار معه كثيراً من الصالحين والمتصوفة، ويقال أن مولانا أحمد زروق خرج لمدة 40 يوماً كاملة في أول سياحة له. وكان الشيخ زروق المغربي شخصية معروفة بمدينة فاس في شبابه وكان يشارك في النشاط السياسي الذي عم البلاد في ذلك الوقت، وكان له رأي واضح محدد في كثير من القضايا السياسية، وفي عام 873 هـ الموافق 1468م نوى الشيخ أداء فريضة الحج فغادر إلى القاهرة في نفس السنة وفي بداية السنة التالية كان في مدينة ينبع ميناء الحجاز القديم حيث غادرها إلى مكة والمدينة، وبعد أداء مناسك الحج لبث في المدينة مجاوراً لمدة تزيد عن العام وكان ذلك فرصة ممتازة لطلاب العلم وشيوخه ليلتقوا إما في الحجاز أو في المدن الإسلامية المشهورة الكبيرة كالقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها.. كانت القاهرة المدينة الهامة التي يمر بها حجاج شمال إفريقيا وهي استراحة طبيعية وضرورية لقوافل الحج بعد عبورها الطريق الصحراوي الطويل الذي يقطع الصحراء الليبية الشاسعة، كما أن القاهرة أيضاً كانت مركزاً مهماً للدراسات الإسلامية والعربية، هذا بالإضافة لجامعها الأزهر الشريف الذي أدى وما زال يؤدي دوراً كبيراً في نشر المعرفة الإسلامية بواسطة شيوخه ذائعي الصيت. وكانت زيارة زروق للقاهرة للمرة الأولى زيارة قصيرة وهو في طريقه إلى مكة المكرمة إلا أنه قابل في هذه الزيارة شيوخاً كثيرين واستفاد منهم. فلما عاد من الحج زارها للمرة الثانية واستقر فيها لمدة عام وكان عاماً خصباً بالنسبة إليه اتصل فيه بشيوخ اللغة والدراسات الإسلامية المرموقين، كما اتصل بشيوخ التصوف وطرقه، وقد شغل نفسه طيلة إقامته في القاهرة بالاطلاع وحضور الدروس التي كانت تلقي في الأزهر الشريف وتقوية علاقته بشيوخ الأزهر وأساتذته، ومن ضمن أساتذته في القاهرة:

1- محمد السخاوي.

2- شمس الدين الجوجري.
3- نورالدين التنسي.
4- احمد الشواطبي.
5- عبدالرحمن القباني.
6- عبدالرحمن بن حجر.
7- أحمد بن حجر.
8- محيي الدين الدمشقي.
9- محمد القرشي.
10- أبو اسحاق التنوخي.
11- نورالدين السنهوري.
12- شهاب الدين الأبشيهي.
13- إبراهيم الدميري.
14- أحمد بن عقبة الحضرمي.

وطبقاً لما ذكره زروق نفسه عن الكتب التي درسها في القاهرة يتضح أنه بالإضافة لحضوره دروس الفقه ومطالعة كتبه أنه كان يميل إلى التصوف والاطلاع على كتبه. ومن المصادفات الغريبة أن ما حدث لزروق في فاس جرى له وهو في القاهرة، وكما انقسم شيوخه في المغرب إلى فريقين: (فقهاء ومتصوفة) حدث ذلك أيضاً في المشرق وهو أمر أثر في مستقبل حياته كما أسلفنا وأصبح علامة واضحة في أفكاره وحياته. وقد رأى زروق على الدوام أن الفقه والتصوف موضوعان مترابطان لا غنى لأحدهما عن الآخر، ومن هنا أطلق عليه لقب: (الجامع بين الشريعة والطريقة).

ومن المصادفة أيضاً أن نجده في هذه الفترة تلميذاً قريباً إلى فقيه مشهور هو محمد السخاوي، وكان في الوقت نفسه مريداً لشيخ من شيوخ الصوفية هو أحمد بن عطية الحضرمي. درس أحمد زروق على يد الشيخ السخاوي علم اصطلاح الحديث والفقه عام 1471م، وأصبح مقرباً إليه حتى أنه تعود زيارته في بيته وأخذ رأيه في كثير من القضايا والمسائل، ويذكر الشيخ السخاوي في كتابه الضوء اللامع عن تلميذه زروق: (وارتحل زروق من الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة، وأقام بالقاهرة نحو سنة، مديماً للإشتغال عند الجوجري في العربية والأصول وغيرها، وقرأ علي بلوغ المرام) ويحث على الاصطلاح بقراءاته ولازمني في أشياء كثيرة.

ويذكر أن السخاوي قد توفي بعد زروق بمدة طويلة، أما الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي فقد طوف بأحمد المغربي في عالم التصوف، وقد كان الحضرمي رجلاً من جنوب الجزيرة العربية يمنياً، وكان من أتباع الطريقة القادرية هاجر من اليمن واستوطن مصر، وعندما أراد زروق يرجع إلى المغرب ذهب مودعاً شيخه الحضرمي فأنشده الحضرمي قائلاً:

سلم لسلمى وسر حيث سارت ** واتبع رياح القضاء ودر حيث دارت

وعندما سئل زروق عن سلمى قال: (الذي أفهمه أن سلمى هي الشريعة)، ويروى أنه عندما كان أحمد زروق في القاهرة مع الشيخ الحضرمي كان شيخه الزيتوني في المغرب يشن غارات متواصلة على زروق وعلى الحضرمي.

في الحقيقة لا تتوفر معلومات كثيرة عن تعاليم الشيخ الحضرمي وطريقته وقد انحصر همه في توجيه النصيحة إلى أتباعه للبعد عن الحياة والناس والمواظبة على الذكر والتسبيح كما يبدو أن طريقته لم تجد رواجاً بين المصريين، ونلاحظ أيضاً أن معظم مريديه من المغاربة وان على رأس هؤلاء رجلان هما مولانا أحمد زروق والشيخ محمد الخصاصي، وهما أيضاً صديقان حميمان غير أن زروقاً يبدو أقرب إلى نفس الشيخ الحضرمي من صديقه وأكثر مودة. وبعد مضي ثلاث سنوات على تنقل مولانا أحمد زروق بين مصر والحجاز بعد أن توثقت علاقته بالحضرمي عزم على العودة إلى وطنه فقفل راجعاً في أواخر عام 877هـ (1473م) وظل وصديقه الشيخ محمد الخصاصي يتبادلان الرسائل في الطريق وفي فاس مع الشيخ الحضرمي.

تبادل ثلاثتهم عدداً كبيراً من الرسائل في شتى المواضيع وتوضح تلك الرسائل مكانة ونفوذ الشيخ الحضرمي على الشيخين الكريمين وفي الحقيقة لا نريد أن نتعرض لمحتوى تلك الرسائل فقد تطرقت لمواضيع كثيرة عامة وخاصة وتتكلم عن الذكر والتقوى والمحبة والخوف والرجاء ومراقبة الخالق والسير إلى الله تعالى والشفقة على الخلق والحب في الله والنفحات الإلهية والتوحيد، وحقيقة الأمر لا يمكن حصر المواضيع التي تطرقت لها تلك الرسائل.

في الطريق إلى فاس حط مولانا رحاله في مدينة (بجاية) في السنة التالية من مغادرته للقاهرة ويعتقد أنه أستقر في هذه المدينة لمدة طويلة، وهناك مؤشرات توضح أن لمولانا الكثير من المريدين في هذه المدينة شجعوه للإقامة فيها وهي بلدة عظيمة الأهمية في حياة مولانا زروق نستنتج ذلك من تواريخ كتبه التي ألفها وذيَّلها في بعض المرات باسم مدينة بجاية، ومنها نستنتج أنه أقام بمدينة بجاية لثلاث فترات مختلفة غير محددة المدة مما يؤكد كثرة مريدي مولانا في بجاية، وتقع بجاية الآن فيما يعرف بدولة الجزائر.

بين عامي 879 و 880 هـ (1475 – 1484 م) عاد مولانا زروق إلى مسقط رأسه فاس بعد غيبة دامت سبع سنوات متوالية قضاها في الترحال والتفقه والدرس وتحصيل العلوم. وكانت سمعته العلمية قد سبقته إلى مدينة فاس فاستقبله علماء ومواطنو فاس على أطراف المدينة في اليوم الأول لوصوله لها.

كان مولانا زروق دائم الهجوم على الفقهاء الجاهلين والقراء المداهمين والصوفية المنافقين في كثير من مؤلفاته ورسائله ودروسه مما سبب له الكثير من المشاكل بينه وبينهم وقد تزايد عدد مريدي مولانا أحمد زروق في فاس وكان على رأسهم المريد ابن غازي صديقه الحميم والذي استطاع أن يجمع عدداً كبيراً من المريدين الذين أصبحوا فيما بعد نواة الطريقة الزروقية في المغرب.

بعد مرور أربع سنوات قضاها مولانا أحمد زروق بمدينة فاس في التدريس بمسجد القرويين بدأت الحياة رتيبة وبدأ الملل يتسرب إلى نفس مولانا وبدت نفسه تتوق إلى الترحال وتنازعته مشاعر عديدة تمنعه من الرحيل منها الميل لملاعب الصبا ومراتع الشباب وحب المدينة التي ولد وترعرع بها ونهل العلم في مساجدها وزواياها وأصبح له فيها كثير من المريدين. وانتشرت الطريقة الزروقيه ليس في فاس وحدها وإنما في كل المغرب، وبالرغم من كل ذلك كانت نفسه تبحث عن الطمأنينة وتتوق إلى الترحال وقد نوى مولانا الرحيل إلى

بجاية التي يتمتع فيها بمكانة كبيرة وبها عدد كبير من مريديه وفي هذه الأثناء وصله خطاب من شيخه الحضرمي بالقاهرة، فبعد أن استقر بعض الوقت في مدينة بجاية غادرها إلى القاهرة حيث قضى بها حوالي سنتين أحيى فيهن علاقته بالشيخ السخاوي وحصل منه على إجازة علمية كما حصل على إجازة علمية أخرى من الشيخ الديمي وقويت أواصر علاقته مع الشيخ الحضرمي وظل معه فترة من الزمن ويقال أنه أدى فريضة الحج وعاد إلى مدينة القاهرة حيث أصبح شيخاً عالماً له مكانته واحترامه يتحلق من حوله للجلوس في حلقته وتلقي العلم منه، وبعد فترة من الزمن حدثت مولانا نفسه إلى الرحيل ودفعته إلى مكان لعله لم يفكر فيه من قبل وكانت هذه المرة نقطة تحول كبيرة ومهمة في حياة مولانا فقد ضجرت نفسه بالقاهرة وكان يبحث عن مكان هادئ يجد فيه السكينة وهدوء البال، فشد الرحال إلى مدينة مصراته التي كانت المكان الأمثل الذي يحتاجه فوقع اختياره عليها.

تعتبر مصراته ثالث كبريات مدن ما يعرف الآن بليبيا بعد طرابلس غرب البلاد وبنغازي شرقها وهي تبعد ما يزيد بقليل عن 200 كيلومتر شرقاً من طرابلس على الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، وقد جاء اسم مصراته من قبيلة بربرية هي بطن من لواته كانت تسكن المنطقة، وكانت تدعى باسم مسراته وليس ثمة تاريخ معين لبناء المدينة وإن كانت بعض الاكتشافات الأثرية الحديثة تشير إلى أن نوعاً من الاستقرار العمراني عرف في موقعها الحالي منذ أيام الحكم الروماني لشمال أفريقيا، وكان السكان بربراً خلصاً وقد جاء العرب بالإسلام إلى المنطقة عند الفتح سنة 23 – 24 هـ (643 – 644 م) وكان عددهم من القلة بحيث لم يكن ليؤثر في تكوين السكان.

هذا التأثير البشري حدث بقدوم قبائل بني هلال وبني سليم الذين توجهوا من مصر إلى شمال إفريقيا في ما تلا من ذلك الزمان.

ولا ذكر لمصراته في الآثار العربية القديمة وواضح أنه لم يكن ثمة مدينة محصّنة أو قلعة تجبر العرب على فتحها بالقوة كما كان الحال بالنسبة لمواقع كثيرة، غير أن ميناءها (قصر أحمد) يذكر في جملة مصادر كمحطة مهمة للحجاج من شمال أفريقيا ويبدو أنها نشأت وبقيت فترة طويلة مركز تجمع مؤقت للبدو شبه الرحل يأتون إليها من مواطنهم بين فترة وأخرى، وهي واحة ومستقر لبعض المزارعين ليتسوقوا منها ما يحتاجون إليه من مواد لم يكونوا ينتجونها بأنفسهم، ثم نما هذا المركز شيئاً فشيئاً لموقعه المهم على طريق القوافل ولقربه من البحر ولصلته بالبادية في خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وهي الفترة التي تهمنا الآن. وازدهرت علاقتها التجارية مع (البندقية) و(جنوا) حيث عرفت باسمها القديم (ثوباكتيس) وقويت صلة ميناءها بموانئ أوروبا وشمال إفريقيا على العموم، وكانت مصراته تصدر الصوف وزيت الزيتون والملح وتستورد الحرير والبضائع المنوعة من أقطار بعيدة في داخل إفريقيا وغربها. وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي زار ليون الإفريقي مصراته بفترة قصيرة بعد وفاة زروق، ولعل لاءمن طريق القوافل على الساحل أثره في أن تكتسب مصراته موقعها التجاري ووزنها أيضاً، إذ لولا هذا الأمن لفضلت القوافل طرقاً أقصر وأكثر اختصاراً.

هذا كان موقع مصراته يومذاك ومركزها وهي كانت محطة في غاية الأهمية بالنسبة للقوافل وآخر منزل للحجاج قبل دخولهم صحراء برقة الموحشة في طريقهم إلى الأرض

المقدسة. ويكاد يكون من المؤكد الذي لا ريب فيه أن زروقاً عرف البلدة وبعضاً من أهلها أثناء سفره جيئة وذهاباً.

أما معرفته بطرابلس التي لا تبعد عن مصراته كثيراً والتي ترتبط معها بعلاقات تاريخية وثقافية، فهي ثابتة بما سطره هو نفسه عنها في (الكناش)، وعن مشاهير رجالها الذين عرفهم، وهو ربما استقر في طرابلس لفترة من الزمن إذ يوجد رجلان من علماء طرابلس من شيوخ زروق وهما أحمد بن عبدالرحمن بن موسى اليزليتني المعروف بحلولو وقد كان فقيهاً معروفاً، عمل قاضياً لمدينة طرابلس الغرب وعلى الخروبي الطرابلسي وهو والد الخروبي الصغير الفقيه المعروف وتلميذ مولانا أحمد زروق وقد زوّج مولانا زروق الخروبي الكبير سيدة مصراتية هي والدة الخروبي الصغير وكان يرعى الأسرة بعد وفاة صديقه، وكان الخروبي صديقاً حميماً وصار ابنه أحمد من الأتباع المخلصين له فيما بعد، وكان قريباً من آل الخروبي حيث انه كان يتدخل في شئونهم العائلية أما في طرابلس أو مصراته.

كانت مدينة مصراته نائية بقدر كاف عن أي مدينة كبيرة وهي في الوقت نفسه لم تكن تخلو من مظاهر الحياة الثقافية والنشاط العلمي والجو الإسلامي، وقد طاب لمولانا فيها المقام حيث قضى فيها بقية أيام حياته.

ويروي إبن نصار(في رحلته) أن مولانا زروقاً سئل مرة عن اختياره لمصراته مستقراً ومقاماً فقال: استوطنت هذه البلدة لأمر خارج عن قياس النظر غير مصحوب بالجزم ولا معقود لشيء نعلمه بل اتفاق ظاهر وجوده فلزم موجودة إلى ما يقتضيه الحق.

وما أنا بالباغي سليمي بديلة بليلى ولكن للضرورة أحكام

ولعل مصراته فتنته بالبساطة التي تتميز بها حيث الحياة شبه بدوية أو بذلك المجتمع غير المعقد، ولا يزال محتفظاً في ذلك العهد ببرائته وصفاته ولم تشوهه مفاسد المدينة وأخلاقها، وقد وصفها مؤرخ صوفي بعد مرور قرن من ذلك الزمان بقوله: "وحسب مصراته أن مولانا زروق اختارها مسكناً وان الله اختارها له مدفناً". وذلك لما طبع غالب أهلها من الحياء والتقشف ومحبة الصالحين والاعتناء بالمنتسب إليهم، ولما طبع عليهم من حسن الكلام ولما فيهم من السخاء ولين الجانب للغريب، وكان كثيرون منهم قادرين على تأدية فريضة الحج وزيارة مكة وكانوا يسافرون إلى مختلف الأماكن والأقطار وكان من الثابت أن بعضهم التقى بمولانا زروق إما في القاهرة أو في الحجاز ولعلهم دعوه للقدوم إلى بلدهم.

كانت مصراته في ذلك الأوان تتمتع بإحساس إسلامي عميق وتوقير للعلماء والمتدينين أهل التصوف يصل إلى حد الحب العميق. ولم تكن البلاد تخلو من العلماء والزهاد والمتصوفة الذين لا تزال أسماؤهم عالقة بالأذهان وأضرحتهم مزارات للمؤمنين.

يقول أبو سالم العياش الذي مر عبر البلاد عام 1076هـ (1665م) كما يقول ابن ناصر الذي زارها بعد خمسة وأربعين عاماً من هذا التاريخ انه اقتيد لزيارة مغارة على شاطئ البحر قرب ضريح الشيخ (بوشعيفة) على بعد ثلاثة أميال شرق ضريح مولانا زروق وربما كانت ذات صلة بسبب اختيار أحمد زروق لمصراته موطناً وهي مغارة صغيرة تواجه البحر يغمر كل من يجلس ولا يسمع غير هدير أمواجه تسبح الله رب العالمين، وبما أن كل شيء في الوجود يسبح باسم الله فيمكن أن نسمع هذا التسبيح في ذلك المكان.

كتب الطيب المصراتي في كتابه (فتح العلي الأكبر) صفحة 194: أن مولانا زروق والشيخ عبدالسلام الأسمر عبدالواحد الدكالي كانا صديقين حميمين وهو أصلاً من المغرب كما كان زروق، وحضرا سوياً إلى مصراته. ويحكي عبدالكريم البرموني أن أباه كان احد أتباع زروق وأنه هو الذي أتى به من مصر إلى مصراته. وعلى أي حال من الأحوال فالواضح أن مولانا أحمد زروق قد أصاب في مصراته المكانة الرفيعة والتوقير وقد أصبح واحداً منهم يتدخل في شئونهم ويشاركهم حياتهم .. تجمع طلبة العلم والمريدون حول مولانا الذي صار يلقي دروسه ومحاضراته ووعظه على طلبته ومريديه وينشر علمه بين الناس في المسجد الذي كان يؤدي فيه صلاته قرب منزله، وقد صار اختيار مولانا زروق لمصراته موطناً له محل فخر كبير لها وللمنطقة كلها.. يقول أحمد بن عبدالدائم الأنصاري في رسالته التي رد بها على العبدري والتي على أساسها ألف ابن غلبون كتابه (التذكار):

بها فضلاء وما الفضيل يفوقهم فوارس أمجاد وهم من حماتها
قد اختارها الزروق داراً وموطناً كذا ابن سعيد مقتد بهداتها

ويقول ابن طاهر الزياني في تائية له:

مصراته نالت على الأرض رفعة بزروقنا شمس البدور المنيرة
هنيئاً لمن زار الضريح بأرضهـــا وطوبى لقوم قد حباهم بجيرة

استقر مولانا زروق بمصراته أخيراً وصار من أهلها فكان عليه أن يوطد صلته بهم وان يتخذ منهم زوجاً له وقد وقع اختياره على امة الجليل بن أحمد بن زكريا الفلباني المصراتي وهي التي وضعت له ولدين وبنتاً بالإضافة إلى زوجته الفاسية فاطمة الزلاعية التي لحقت به من المغرب.

لم يغادر مولانا مصراته بعد استقراره بها سوى مرتين كانت الأولى إلى الجزائر في سنة 892 هـ (1487م) ليرعى بعض شئونه هناك، ثم قفل راجعاً إلى مصراته بأسرع ما أمكنه، وكانت الثانية في سنة 894 هـ (1489م) حين أدى الحج المرة الثالثة والأخيرة.

وفي الجزائر ألف كتابه (المقصد الأسمى فيما يتعلق بالأسماء)، وفي طريق عودته من الحج توقف في القاهرة وألقى دروساً في الجامع الأزهر ثم ذهب إلى صعيد مصر (المنيا) ثم عاد إلى مصراته حيث قضى السنوات الأربع من سنة 899 هـ (1496م) وهي آخر سنة من القرن التاسع الهجري توفي إلى رحمة مولاه أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى المعروف بزروق في خلوته وعمره أربعة وخمسون عاماً، وكان يدعو ربه أن يقبضه إليه قبل أن يشهد القرن العاشر وقد استجاب الله لدعوته تلك.

هذا ما ورد في كتاب (تفتيح روضة الأزهار صفحة 244).

كان كل ما تركه مولانا أحمد زروق من إرث بعد موته هو فرش يشاركه فيه الحاج عبدالله بن محمد الدكيراني المصراتي، وبرنوساً أبيض وجبة وثوباً من الصوف، ومسبحة أهداها له الحضرمي وأربعة عشر مجلداً من المؤلفات في مختلف الموضوعات. لقد ولد مولانا فقيراً وعاش فقيراً ومات فقيراً كما ولد عاش. ويعلق أبو سالم العياشي الذي نقل تركة مولانا بقوله: "ننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من فوائد استفاد منها كل أولاد الشيخ الذين استوطنوا بعده، ومنها التأسي به من قلة ما خلفه للدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء وكان لا يعوذه ما يخلفه لهم لو شاء، لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ومع ذلك لم يخلف إلا ما ذكرناه".

أما النسوة والأولاد فمنهم زوجة مولانا زروق فاطمة الفاسية التي أنجبت له ولديه أحمد أب الفتح واحمد أبي الفضل بالإضافة إلى ابنته عائشة. غادر أحمد الأكبر وأحمد الأصغر مصراته بعد ذلك إلى المغرب ثم إلى الجزائر (قسطنطينية)، وقد رجع أحمد الأصغر إلى مصراته ويدعي عادة بأحمد الطالب مرسلاً من قبل أخيه ليأخذ نصيب أمه وأخيه من إرث والده ويبدو أن أحمد الأكبر ويدعى أحمد الفقيه فاز من إرث والده بسمعته وصيته وخلفه في شيء من النفوذ على أتباعه بالمغرب (نيل الاجتهاد ص 130).

يقول زروق في كتابه (كناشه ص 58) انه تزوج خمس مرات وليس متوفراً من المصادر ما يلقى على زوجاته الثلاث الأخريات.

شخصية مولانا زروق:

وصفه عبدالسلام الأسمر في (وصيته الكبرى) وهو الذي رآه عن قرب وخالطه، أما مع شيخه عبدالواحد الدكالي في مسلاته أو حضر دروسه في مصراته. أما مولانا فهو يصف نفسه بأنه كان إنساناً خجولاً حيّياً له حساسية مفرطة ظلت تصاحبه طوال حياته هذا إلى جانب الصفات المعهودة كالفقه والعلم والتواضع والتقى وخوف الله، كما يروى عنه أنه كان مرحاً لطيف المعشر كما كان رجلاً اجتماعياً سهل المخالطة أيضاً وقد صارت هاتان الصفتان أكثر وضوحاً بعد استقراره في مصراته ووضحت علاقاته بأهلها، ربما كان ذلك لأنه وجد أخيراً راحة البال التي كان يبحث عنها وهدوء النفس وانتفاء التوتر الذي عاناه في أيامه السابقات. ويذكر العياشي أنه كان من عادة مولانا أن يخاطب أصحابه برقة ولطف وان يناديهم بكني مضحكة في بعض الأحيان كما كان يفعل مع تابعه ابوزعامة وكان أبوزعامة غريب العنق فلقبه الشيخ (بعنق الحمامة) وكان سعيداً بهذا اللقب كل السعادة ويروى أنه عندما التقى ذات مرة بتلميذه الشهير أبي عبدالله محمد الخروبي في مصراته بعد وفاة الخروبي الكبير وقد ترك زوجته وأطفالاً له قال له: "يا أولاد السريدكة قولوا لها: لا تقولي أن زروق غربني من بلادي وأهملني".

هذه (السريدكة) التي تحدث عنها زروق سيد مصراته كانت زوجة لصديقه الخروبي في طرابلس وكانت عادة مولانا أن يزور والدها محمد "بوديكي" وفي كل مرة يزوره مولانا يحتفي به ويذبح له ديكاً فلقبه بـ(بوديكي)، وكان ينادي ابنته "بالسريدكة" وتعني: الدجاجة بلهجة طرابلس حتى أصبح شرفاً لكل منهم أن يذكر أن أباه تزوج أمه والعكس بفضل مسعى من مساعي زروق اعتزازاً وتباهياً به.

مولانا أحمد زروق الولي:

هيمنت ظاهرة الولاية والأولياء على العالم الإسلامي زمناً طويلاً، وإذا كان الرجل الصالح يعرف عموماً في المشرق باسم "الولي" أو "ولي الله" فإنه في المغرب يعرف باسم "المرابط" والكلمة مشتقة من "ربط" بمعنى أن يوقف المرء نفسه للصلاة والذكر كما يحدث في كثير من الأحيان، أو من "رابط" بمعنى أن يعيش في ثغر إسلامي يرعى الرباط ويرد الأعداء والغزاة.

وحين يتوفى الله أحد هؤلاء (المرابطين) يحظى باحترام كبير تقديراً لخطوته عند الله وتدليلاً على مكانته لديه وتظهر له كرامات يمن بها الله على أوليائه ويعتقد أهل شمال إفريقيا – على وجه العموم – اعتقاداً راسخاً في قوة المرابطين الخفية الكامنة ويطلقون عليها اسم (البركة) وهي ميزة المرابط حياً أو ميتاً.

وحين يكون احدهم في ضيق فهو عادة ما يدعو (ينادي) مرابطه الأثير لغوثه ونجدته، وقد يحدث أن يأتي المرابط من تلقاء نفسه دون نداء، وما كان مولانا أحمد زروق استثناء أو خروجاً على القاعدة فحين توفاه الله ظهرت من حوله الروايات والأقاصيص تعدد كراماته وخوارقه، كما صار حامياً لبعض البلدان والأماكن وأطلقت عليه الألقاب، ففي (أوجله) تلك الواحة الليبية القديمة جعله سكانها (حامي أوجله) وهم يدعون أنه حين أحس بقرب أجله غادر مصراته وجاء واحتهم حيث مات فيها، وأنشئوا مسجداً سمي باسمه هناك فقد كانت واحة (أوجله) محطة هامة آنذاك لإحدى طرق القوافل للحجاج والتجار بين المشرق والمغرب ولعل زروقاً أقام فيها فترة من الزمن في خلال رحلاته المتعددة. وفي طرابلس سمي مولانا زروقاً باسم باب طرابلس الشرق وكان أهل طرابلس يعتقدون أن زروقاً سوف يحمي مدينتهم من أي غازٍ يأتيهم من ناحية الشرق.

ولما كان قبر مولانا زروق يقع على حافة الصحراء وقريب من ساحل البحر على الطريق إلى مكة، فلا غرو أن تأتي اغلب كراماته ذات صلة بهذه الثلاثة.. يقول العياشي انه كان من عادة الحجاج أن يودعوا أموالهم وأرواحهم لدى زروق حين وصلوهم إليه ولم يكن يصيب أحدهم أذى فيما يملك أو في شخصه حتى يعود سالماً. ويضيف ابن الناصر قوله إن هذا لا يقوم به المسافرون على البر فحسب بل حتى على الذين يركبون البحر إلى الحجاز كانوا يولون وجوههم شطر ضريح زروق ويودعون أنفسهم وأموالهم لديه.

وفيما يلي نعرض شيئاً مما يرويه مؤرخو حياة زروق عنه في هذا المجال:

1- قال سيدي أحمد بن محمد اليمني انه لما قدم من بلاده قاصداً المغرب اشتد به العطش يوماً في الصحراء حتى أيقن بالهلاك وبينما هو كذلك إذ خطر بباله الشيخ أحمد زروق قال: وتذكرت بيت الشعر:

إذاكنت في كرب وضيق ووحشة

فناد أيا زروق آت بسرعة

وقلت: أين الشيخ زروق وما قال فلم يستقم الخاطر إلا وصورة ظهرت لي على بعد، وجعل ذلك الشيء يقترب حتى وصل إليَّ وإذا برجل راكب على إيتان وسلم عليَّ وقال: الماء عند ذاك التل إلى جنبه عند عروق الرمل. وجعلت أنظر لأستبين ذلك المكان فالتفتُ إلى الرجل فلم أجده، وقلت: أين الشيخ زروق وما قال؟ فلم يستقم

الخاطر إلا وصورة ظهرت لي على بعد، وجعل ذلك الشيء يقترب حتى وصل إليَّ، فمضيت إلى المكان فوجدت الماء عنده.

2- قال محمد العياشي: (حدثنا العارف سيدي محمد اليمني قال: لما توجهنا من أرض المشرق إلى أرض المغرب ونزلنا "برقة" سألنا الله تعالى ببركة مولانا زروق أن يجعلنا في جواره لما تقدر عندنا أن لزروق اليد العليا في المغرب بعد موته، فلم ننزل في أمن وسعة إلى أن حللنا مدينة فاس ومنها توجهنا إلى أرض السودان فلما توغلنا فيه أصابنا حر شديد ولم يكن معنا من الماء شيء فسألنا الله ببركته فبينما نحن في كرب إذا بدابة عليها قرب ماء ومعها سائق حتى دنا منا وقال: "خذوا الماء فأنتم بعدتم من جواري".

3- قال عبدالله بن أبي بكر البلالي المصراتي: "خرجنا من أرض فزان ومعنا رفقة، وأدخلت نفسي في جوار الشيخ زروق فبينما نحن ذات ليلة حدثتني نفسي باعتزال الرفقة والمبيت عنها في جهة ففعلت فقد فاجأني آخر الليل قطاع الطريق يوقعون برفقتي شراً ففرت بلا زاد ولا ماء ولا خبرة لي بالطريق، وكانت تلك الأرض قفرة لا يهتدي بطرقها إلا خبير ماهر وبقيت ليلة وأنا أسمع قائلاً يقول: عن يمينك، فإذا أوغلت في اليمين قال: عن شمالك، حتى أصبحت، فرأيت رجلاً قصيراً يمضي أمامي فإذا هممت أن أدنو منه بعد عني، فإذا ابتعدت عن غير الطريق دلني إلى الجهة الصحيحة إلى أن أدخلني (ودان) ثالث يوم الوقفة ولم أحس بألم ولا تعب ولا عطش وكان الجو حاراً.

4- غضب سيدي فتح الله بن الطاهر(دفين مصراته) ذات يوم من ولده فضربه على رأسه فهشمها وخرج مخه منها، وجاء له بالطبيب فأعلن هذا يأسه من شفائه ونام سيدي قلقاً مضطرباً نادماً على ما فعله، فرأى في المنام سيدي أحمد زروق يقول له: (لا تنزعج يا ابن طاهر سيعيش فأدعو الطبيب غداً). ففعل في الغد ما أمر به وكانت دهشة الطبيب بالغة حين وجد رأس الفتى قد جبر من تلقاء ذاته، هكذا ورد في (فتح العلي الأكبر ص 218 – 219).

5- مرضت ابنة المرابط عبدالسميع الفيتوري، فعميت وكسحت ومكثت على ذلك سنين، ثم أتى بها إليه فباتت عنده فأول من أتاها من الصالحين – بعد أبيها – سيدي عبدالسلام الأسمر والشيخ سيدي أحمد زروق، فقال والدها لسيدي زروق ابدأ فقال: لا. يبدأ عبدالسلام لأنه أقرب لها مني في الدم، فقال سيدي عبدالسلام لأبيها، ابدأ أنت ونحن نتبعك، فوضع يده على رأسها وقال يا بركة الصلاح فانفتح شيء من بصرها ثم وضع سيدي عبدالسلام يده وقال مثل ذلك فانفتح بصرها كله، كأنه لم يكن به بأس، ثم أمسكها سيدي أحمد زروق من جناحيها (ذراعيها) فبرئت وقامت سليمة البصر والرجلين.

6- طلب الشيخ ابن غازي من مولانا زروق أن يجيئه إلى منزله في جملة من أصحابه واستأذن في أن يصنع لهم طعاماً كثيراً فأذن له وقال له: انتظر بعد صلاة العشاء، فلما جاء الوقت وقف الشيخ ابن غازي بباب داره ينتظر القوم إذ جاء الشيخ أبو العباس وحده فقال ابن غازي: يا سيدي أين أصحابك؟ فأنا قد صنعت طعاماً كثيراً

ونخاف من فساده فقال سيدي زروق: لا يفسد إن شاء الله ثم قال له: "هات ما عندك من طعام فأمر ابن غازي به فقربه إليه فقال أبو العباس زروق (اصرف عنا هؤلاء الخدام حتى لا يبقى إلا أنا وأنت) وخرج الخدام وشمر ذراعيه وصار يقذف بالطعام بيديه جميعاً وجعله خلفه، ومع كل حفنة من الطعام قطعة لحم فسمع الشيخ ابن غازي صوتاً من وراء أبي العباس زروق، فنظر فإذا بخلق كثير ما بين ضعفاء وصبيان ونساء وكل واحد يمد يديه وحمد الله تعالى فتعب ابن غازي وقال: يا سيدي أعطني وهم في مكان واحد حتى قسم عليهم ذلك الطعام كله، فقال لأبن غازي: هل بقي من طعامك شيء؟ قال: لا يا سيدي فغسل يديه وحمد الله تعالى فتعجب ابن غازي وقال: يا سيدي هذه كرامة من كرامات الأولياء، فقال له: أحمد الله الذي أراك إياها، فقال ابن غازي سألتك بالله يا سيدي من هؤلاء القوم وهذا المكان؟ فقال ضعفاء مدينة تونس قد مستهم الحاجة وذلك المكان هو صحن جامع الزيتونة.

7- كانت توجد قبيلة من قطاع الطرق في طرابلس الغرب لم تكن تنجو قافلة تمر بهم من سرقتهم. وحدث أن زروقاً وأتباعه مروا بهم فسلبوهم جميعاً ولم يبقوا سوى ما يستر عوراتهم، فقال أحد الأتباع لبعض القطاع مشيراً إلى زروق: لدى هذا الرجل ذهب في سرواله فجاء هذا اللص إلى الشيخ وقال: أخلع سروالك، فرد زروق: يا سبحان الله إن كشف العورة محرم في الإسلام فقال له: أخلعها أو أقتلك والشيخ يدفعه فلما اقترب منه قال الشيخ زروق يا أرض ابلعيهم فابتلعتهم جميعاً وصاروا يستغيثون ويقولون: تبنا إلى الله تبنا إلى الله فقال زروق: أطلقيهم فأطلقتهم، وخرج قطاع الطريق وتابوا، ثم ذهبوا مع الشيخ وصاروا خداماً له، وهم يعرفون حتى الآن باسم خدام زروق (طبقات الشاذلية الكبرى ص 125).

8- كان من عادة زروق (بعد استيطانه مصراته) أن يجلس في (جابيه) قريبة من بيته في الصباح الباكر وعند المساء، وكانت ملكاً لفتى من أهل مصراته يتيم، وحين جاء الصيف وكان وقت زراعة القصب، ذهب الشاب إلى البدو بعد بذر القصب ليرويه، فوجد الشيخ جالساً في الجابيه واستحى أن يجليه عنها فترك أدواته وانصرف ينظر إلى زراعته، وكانت دهشته لا توصف حين وجده أخضر ريان كأنما سقى البارحة فعرف أنها إحدى كرامات الشيخ واستمر الحال كذلك حتى استوى القصب للحصاد فحصده الفتى ففصل الحب فصلاً وهنا تكلم الشيخ وقال له: "هيئ للقصب أكياساً كثيرة". فأحضر الفتى ما يعادل أربعة أضعاف عادته من الأكياس وملأها جميعاً حتى حافتها ورغم ذلك لم يبد أنه قد نقص من القصب شيء، ثم حمل الأكياس المليئة إلى بيته وأفرغها وعاد ليملأها من جديد، فتبعته أمه لتنظر ما الأمر قال زروق: (ها قد جاءت الشيطانة التي تهرب منها البركة أملأ الأكياس قبل أن تصل)، فملأ الفتى الأكياس وأنهى كوم القصب مع وصول أمه.

9- وقد يرفع زروق في بعض الأحوال إلى أن يرى في صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم كما يزعم محمد الشطيبي الذي يقول: لما قدمت من المشرق وأقمت على ضريح الشيخ زروق، آليت على نفسي ألا أنصرف عنه إلا بإذن من الله عزوجل، فأقمت عنده مدة ثلاثة أعوام والشيخ يترآ لي في النوم ويأمرني بالانصراف إلى

المغرب فلم أعمل برؤيته المنامية حتى رأيته في اليقظة وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا محمد!! إن النبي صلى الله عليه وسلم يأمرك بالانصراف إلى المغرب وإلا ستسلب فقلت: نعم فلما أردت الانصراف قال لي: "تأخذنا وحشتك يا محمد".

10- يحكي أبو زكريا البجائي أنه وبعض الحجاج في المدينة المنورة كانوا مع مولانا زروق وقد بلغ بهم الضيق حده، إلا أن الطريق تعسر عليهم بالمدينة المنورة ولم يجدوا سبيلاً للسفر مع شدة الحاجة إليه قال: "فبينما نحن جلوس في وقت المقلية وإذا بالشيخ زروق يدخل علينا وقال: "تهيئوا للسفر الآن، كنت عند الرسول صلى الله عليه وسلم أودعه وأعزم السفر وما جئتكم حتى وادعته" فأخذنا نجهز أمتعتنا وعزمنا على السفر من غير أن تكون لنا دابة ولا وسيلة للسفر، وإنما هو امتثال للأمر، فدخل علينا رجل في الحين، ومعه جمال وقال: هل لكم من حاجة؟ فقلنا نعم. وخرجنا معه في الحين مسافرين، فبينما نحن مجتمعين لوداع أهل المدينة إذا برجل من أهلها باكياً متضرعاً قائلاً: يا سيدي شهاب الدين كن لي شفيعاً وأخذ يتضرع بين يدي الناقة التي كان الشيخ راكباً عليها، فقال: هنا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم الآن وهو راكباً راحلته فقلت له: يا حبيبي يا رسول الله هل أردت الرحيل عنا؟ قال: لا ولكن أودع الشيخ شهاب الدين المغربي، فبكى كل من كان حاضراً ذلك الموقف وكانت آخر زيارة له للمدينة ومات بعد وصوله مصراته وإقامته بها مدة قصيرة، نفعنا الله به (هكذا ورد في الأنوار السنية، ص 3).

مولانا زروق المؤلف:

يتضح جلياً من تلك المؤلفات العديدة التي خلفها مولانا زروق بتنوعها الظاهر، انه كان مؤلفاً نشيطاً في حياته القصيرة نسبياً، كما كان كاتباً متعدد الجوانب والاهتمامات ولم يغفل أحد ممن كتب عنه هذه الحقيقة.

إن تتبع أعمال زروق ليست بالعمل الهين إذ ينبغي تصيدها في المكتبات الكثيرة المتعددة في مختلف بقاع العالم فمثلاً مؤلفة: (العرف في تعريف الحرف) الذي توجد المخطوطة الوحيدة له في جاكرتا باندونيسيا، كما توجد مخطوطات أخرى في مكتبات أوروبية وأيضاً في شمال إفريقيا والشرق الأوسط. هذا يوضح صعوبة الوصول لتلك المكتبات أولاً، ثم ثانياً بعض تلك المكتبات لا يسمح بنسخ المخطوطات الموجودة فيها، وبعضها لا يوجد به إمكانية النسخ أصلاً.

كانت سن زروق أربعة وعشرين عاماً حين ألف كتابه الأول عام 1465م تعليقه على (حكم) ابن عطاء الله السكندري الذي كتب عام 1309م ثم مجموعة من الأقوال الصوفية عنوانها (تحفة المريد).

أما آخر ما كتب مولانا زروق فكان قبل 1490م وهو تعليقه الثاني على (رسالة ابن أبي زيد القيرواني)، ومن المعتقد أيضاً أنه كتب مؤلفه (كناشة) الذي يحتوي على قسم من ترجمة حياته ومؤلفه الثاني (مناقب الحضرمي) الذي يترجم فيه لشيخه.. قد ألفها في الخمسينات من عمره.

كان التصور في ذلك الوقت أن العالم محيط بكل أبواب العلم وان يطرق جميع أبواب المعرفة وان يتبحر فيها بقدر الإمكان. فليس غريباً إذن أن تجد مولانا يتبع نفس القاعدة ويقسم اهتماماته ونشاطه العلمي على فروع عديدة من المعرفة، فتجده إلى جانب التصوف يكتب في الفقه وعلم الكلام والعقيدة والطب والحساب والحديث النبوي ويقرض الشعر أيضاً، ولكنه قد تبحر أكثر في مجالي التصوف والفقه.

نجد مولانا زروق عندما يكتب عن التصوف يشعر انه موضعه الطبيعي وهذا ما جعل أغلب مصنفاته الصوفية تنال حقها من الاحترام والتقدير، ليس بين أتباعه فحسب بل في أعين جميع المسلمين الذين اطلعوا على آثاره بطريقة أو بأخرى، وقد أصبح بهذا مصدراً خصباً لمن جاء بعده من العلماء والكتاب، اعتمدوها واعتمدوا عليه.

وكما هو الحال بالنسبة لأي مؤلف فإن لمولانا مؤلفات رئيسية وأخرى ثانوية، كتب أساسية وأخرى تساندها وتدعمها، وإن أردنا أن نتعرف على أهم مؤلفات مولانا بعد شروحه الممتازة لحكم ابن عطاء الله السكندري نذكر:

1- **قواعد التصوف:** كتب بقدر كبير من العناية والحرص ويعتبر أفضل ما كُتب في التصوف وأصوله.
2- **عدة المريد الصادق:** هذا المؤلف تندر نظائره في مجال النقد الصوفي ويثبت ركائز التصوف السني وتخليصه من الشوائب والأكدار.
3- **النصيحة الكافية:** هذا المؤلف يؤخذ على انه المرجع الأساسي في الطريقة الزروقية ومبادئها.
4- **إعانة المتوجه المسكين:** ويعتبر خلاصة تعاليم زروق الصوفية.

اللغة الأساليب عند مولانا:

حين تقرأ لمولانا ترى للوهلة الأولى – أن مؤلفاته تتميز بالوضوح التام والفصاحة معاً وهو نادراً ما يأتي بالتعبيرات المبهمة أو الشاذة مما يأتي به المتحذلقون المغرمون بالتقعر وتصيد غريب اللفظ، ولعل هذا راجع إلى إيمانه بأن على الكاتب أن يتوخى البساطة في الأسلوب والسهولة في التعبير حتى يتمكن قارئه من الفهم والإدراك وهو كثيراً ما يذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم". ولم يكن من عاداته أن يشجع في كتابته، فيما عدا الفقرات الأولى من خطبة الكتاب، ثم ينطلق ببساطة ويسر دون تكلف ولا اعوجاج.

وتظهر في كتب مولانا أيضاً الدقة والتنظيم، بتقسيمه المصنف إلى أبواب وأجزاء وفصول بمقدمة وخاتمة، ثم ينطلق من أمهات الكتب والعلماء في الباب الذي يتحدث عنه.

وكان من عاداته(كما يقول مترجمو حياته وكما يتضح من قراءة مؤلفاته) الميل إلى التركيز والإيجاز ومراجعة ما كتب عدة مرات، مما أدى إلى تشابه بعض مؤلفاته مثل (عدة المريد الصادق) و(النصح الأنفع) و(تأسيس القواعد والأصول) و(قواعد التصوف)، وتقول بعض المصادر إنه كتب مختصراً ثم طوّله ووسّعه. ومما يثير الدهشة أن مولانا زروق شغل

نفسه بكتاب واحد مدة تصل إلى الثلاثين عاماً أو تزيد مثل (شروح الحكم) لأبن عطاء الله السكندري.

كان مولانا زروق شارحاً معروفاً ومعلقاً على نصوص من سبقه، لا يكل ولا يمل، وكانت تعليقاته وشروحه تعتبر في بعض الأحيان كالأصول في قيمتها وأهميتها. ويبدو أنه لم يكن يرى في التعليق على النصوص الصوفية سبيلاً إلى الفهم والشرح والإيضاح وطريقاً للتعبير عن أفكاره هو وتعاليمه الخاصة به مبدياً موقفاً من القضايا المطروحة في النص ومبيناً تصوره الذاتي لما يحتويه النص موضع التعليق، ولم يكن زروق مجرد شارح عادي بالمعنى التقليدي للشارح بل كان مناقشاً وناقداً ومضيفاً لشيء جديداً.

مولانا زروق والشعر:

كان الشعر من أكثر ما خلفه أهل التصوف طرافة ومتعة، وبطبيعته كان الشعر هو الصيغة المفضلة في أحيان كثيرة عند الصوفية للتعبير عن أحوالهم وتوصيل إحساسهم الروحي إلى سواهم، سواء كان هذا الإحساس متعة أو عذاباً، وغبطة أو شقاء، خلال شوقهم المتصل وتطلعهم الدائب للوصول إلى المحبوب، وليس هذا غريب حين نرى أن كلمة الشعر ذاتها متصلة بـ(الشعور) وهو الإحساس أو الحال عند أهل التصوف. وحين ميز العرب بين الشعر والنثر أوجدوا للشعر قواعد وأصولاً خاصة به من حيث القافية والوزن والبحور ونحوها، ولابد لمن يتصدى للشعر من معرفتها والتقيد بها. وطبقاً للمقاييس الشعرية العربية فإن الإحساس أولاً ثم القدرة على التعبير عن الفكرة بلغة فصيحة سليمة من اللحن والخطأ وهما أعمدة الشاعر. أما النظم فهو ما يشترط فيه القدرة والإحاطة ببحور الشعر وموازينه لكن دون الاهتمام بالعاطفة والإحساس والشعور أو البحث عن تلك الشرارة الروحية الخاصة بالشعر والتي تمثل شخصيته ووجوده والاعتراف به كشاعر.

وحين تقرأ ما ينسب لمولانا زروق من قصائد، نجدها قليلة ويتضح من ذلك أنه لم يكن يريد أن يكون من المكثرين في نظم الشعر. ويقول في نظريته الخاصة بندرة شعر كبار الصوفية كالجنيد والجيلاني والشاذلي. ويمكن أن ندرك عزوفه عن الشعر احتذاءً بهؤلاء الثلاثة وغيرهم ممن لم يؤثر عنهم سوى النذر اليسير من القصائد والأبيات، ويقول في ذلك (التغزل والندب والإشارة والتعريج دليل البعد عن وجود المشاهدة إذ الجلال مانع من قيام النفس والشعر من محامدها، ومن ظهر نور الحق في قلبه لم يبق فيه نصيب لغيره، فيكون ما جاء عنهم أشهى إليه من الماء البارد، ولهذا قل شعر المحققين من الأكابر كالجنيد والشيخ أبومحمد عبدالقادر الجيلاني ونحوهم ولهم أسوة في أكابر الصحابة إذ كانوا اعلم الناس به لكن لم يذكروه إلا في محل لا يشير بشيء من الحقائق) "من كتاب قواعد التصوف، ص 85 – 86).

تصنيف مؤلفات مولانا أحمد زروق

أولاً: القرآن الكريم:

1- تفسير القرآن الكريم.
2- شرح سورة الفاتحة.

ثانياً: الحديث:

1- تعليق على البخاري.
2- جزء في علم الحديث.
3- حاشية على مسلم.
4- رسالة في تحديد مصطلح الحديث.
5- شرح الأربعين حديثاً.
6- شرح حديث (المعدة بيت الداء).

ثالثاً: الفقه:

1- مناسك الحج.
2- شرح الإرشاد.
3- شرح الوغليسية.
4- شرح الحكيم الترمذي.
5- شرح مواضع من مختصر خليل.
6- شرح نظم الرقعي.
7- شرح قواعد عياض.
8- شرح القرطبية.
9- شرح رسالة القيرواني.
10- شرح الغافية.

رابعاً: الذكر:

1- الحفيظة.
2- دعاء.
3- شرح أسماء الله الحسنى.
4- شرح دلائل الخيرات.
5- الوظيفة.
6- شرح حزب البحر.
7- شرح حزب البر.
8- شرح مغمضات حزبي الشاذلي.
9- منهاج حزب البحر.
10- فتح المقام الأسمى.

خامساً: الرسائل:

1- الوجود.
2- وصية.
3- رسالة إلى عبدالله المغراوي.
4- رسالة إلى عبدالنبي الأصغر.
5- رسالة للسالكين.

سادساً: السيرة الذاتية والتراجم:

1- الكناشة.
2- مناقب الحضرمي.

سابعاً: الطب:

1- تلخيص الدرة المنتخبة.

ثامناً: علم الكلام:

1- شرح المرشدة.
2- شرح عقيدة الغزالي.

تاسعاً: علم الحروف والأرقام:

1- رسالة في العد على الأصابع.
2- شرح السينية.
3- العرف في تعريف الحرف.

عاشراً: الشعر:

1- قصائد مختلفة.

الحادي عشر: منوعات:

1- الرحلة.
2- الكشف.

الثاني عشر: التصوف:

1- أرجوزة في عيوب النفس.
2- الأصول البديعة والجوامع الرفيعة.
3- أصول الطريق.
4- أصول الطريقة وأسس الحقيقة.
5- الأنس.
6- إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين.
7- إعراب (إن لم أجد إلهي).
8- تأسيس القواعد والأصول.
9- تحفة المريد.
10- الجامع لجمل من الفوائد والمنافع.
11- رسالة في الرد على أهل البدع.
12- روضة الأزهار.
13- سلوك الطريق إذا فقد الصديق.

14- شرح أبيات تطهر بماء الغيب.
15- شرح الأجرومية.
16- شرح الحقائق والدقائق.
17- شرح الشريشية.
18- شرح صدور المراتب.
19- شرح المباحث الأصلية.
20- شرح المراصد.
21- شرح مقطعات الششتري.
22- شرح النصيحة الكافية.
23- شرح نونية الششتري.
24- شرح الوغليسية.
25- شروح الحكم.
26- كتاب السماع.
27- كتاب المحبة.
28- الكلام على أنواع أهل الخصوصية.
29- مزيل اللبس.
30- النصح الأنفع والجنة.
31- النصيحة.
32- النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية.
33- النصيحة وقت القريحة.
34- قواعد التصوف.
35- عدة المريد الصادق.
36- علاج أدواء القلب.

من أبرز كتب مولانا احمد زروق

1-الكناش:

ذكر في:

- نيل الابتهال.
- شجرة النور.
- الأنس.
- التذكار.
- شرح النصيحة.
- تاريخ الأدب العربي.
- مخطوطات: المتحف البريطاني: 31888 – الجزائر10/581 – تونس 1911 – الرباط 385 أق.

يبدأ الكتاب بقوله: (كان مولدي عند طلوع الشمس من اليوم الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، وينتهي بقوله: فإنّ نافع إن شاء الله تعالى). ويعرف أيضاً باسم: الكناش في علم آش.

والكناش أو (الكناشة) مصطلح يستعمل عادة في شمال أفريقيا للدلالة على مجموعة كتابات حول موضوعات مختلفة في فترات متباينة، ويمكن أن تعتبرها تسجيلاً يضمن فيه المؤلف أفكاره ممزوجة بخصلات ومقتطفات من قراءاته بالإضافة إلى تعليقاته وملاحظاته.

ويقال أن أصل كلمة كناش هو (من كل ناش) والمرجح أن (كناش) مولانا زروق كتبها في السنوات الخمس الأخيرة من حياته وهو في مصراته، حيث يقرر فيه أنه ناهز الخمسين من عمره، ويمكن ترتيب محتوياته الرئيسية على النحو التالي:

1-سيرته الذاتية في بداية حياته (وهو ما يكون الجزء المتصل الأكبر منه).

-كيفية التلقين.

-أنماط الشيوخ.

-دعوات واجبة ووصفات طبية.

-صلوات شاذلية.

-عن الحديث النبوي.

-الصلاة على النبي (عليه وآله الصلاة والسلام).

-عن أسماء الله الحسنى.

-عن معنى التصوف.

-عن الطهارة.

-عن فواتيح السور.

-أصول التصوف.

-العد بالأصابع.

-مقتطف في الطب من كتاب (التيسير) لعبد الملك بن أبي العلا.

2-النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة:

ذكر في:
-شجرة النور: 268/1.
-إيضاح المكنون: 137/1.
-النبوغ: 218.

يعتبر (النصح الأنفع) أحد مؤلفات مولانا زروق الرئيسية في دفع البدع التي دخلت على التصوف، والمخطوط المذكور هو الوحيد الذي أمكن العثور عليه حتى الآن، وهناك تشابه كبير بين (الجامع) و (عدة المريد الصادق) وهو ما لاحظه عبدالمجيد المنالي في (بلوغ المرام)، والشيخ عبدالله كنون في مقالته عن مولانا زروق، والمقارنة بين الكتابين تجعلنا نرجح أن زروقاً كتب في الموضوع نفسه مرتين، على فترات متقاربة، وكانت هذه من جملة عاداته.

3-قواعد التصوف:

ذكر في:
-شجرة النور: 268/1.
-إيضاح المكنون: 242/2.
-التعريف: 279.
-رحلة العياش: 99.
-التذكار: 223.
-شذرات الذهب: 562/7.
-كشف الظنون: 1358.
-قطف الثمر: 32.
-طبقات الشاذلية: 123.
-مخطوطات: تونس 824.
-ورقات: 1 – 65.
-حسن حسن عبدالوهاب 18/1.
الرباط 555ق.
-الأسكوريال 4/3741.
برلين 3031.

طبعات الكتاب:

-القاهرة (المطبعة العلمية)1900م.
-القاهرة (مطبعة المعاهد) بدون تاريخ.
-القاهرة (الكليات الأزهرية) 1968م.

يبدأ الكتاب بـ"الحمدلله كما يجب لعظيم مجده وجلاله.. وينتهي بـ ... فإنه لا غنى بنا عن عافيته وهو حسبنا ونعم الوكيل".

يعرف هذا الكتاب أيضاً بالأسماء الآتية:

-قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الفقه بالطريقة.
- قواعد التصوف في الجمع بين الشريعة والحقيقة.
- قواعد الصوفية.
-فصول جلية وأصول قواعد الطريقة الصوفية.
-تعليق على طريق التصوف.
-الفصول في الأصول.
-القواعد الزروقية.

هذا الكتاب أحد الآثار الرئيسية لزروق في مجال التصوف حيث يعرض أهم أسسه في 217 قاعدة. ويدل ترتيب الكتاب على أنه وضع أصلاً مرشداً للطلبة والمريدين، وهو يضم أغلب مبادئ مولانا زروق وأفكاره بأسلوب شديد التركيز.

4-شرح عقيدة الغزالي:

ذكر في:
-شجرة النور: 268/1.
-شرح النصيحة: ص1.
طبعات:
-القاهرة على هامش بداية النهاية لعبدالقادر الفاكهي.
-بولاق – 1877م.
يبدأ بـ "الحمد لله الذي بدأ منه الحمد وإليه يعود كل شيء".
وينتهي بـ"تفتح لك الأبواب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".
ويسمى أيضاً بالعقيدة والعقيدة القدسية وبداية الهداية وقواعد العقائد.
كلها أسماء مستخلصة من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي مع مقترح وتعليق مولانا زروق.

5-شرح أسماء الله الحسنى:

ذكر في:
-إيضاح المكنون: 246/2.
-الأنس: ص4.
-شذرات الذهب: 362/7.
-التعريف: 291.
-طبقات الشاذلية: 123.
-النبوغ: 218.
-مخطوطات: الرباط 1838د.952د.
طبعات:
-القاهرة – بولاق 1877م.
يبدأ الكتاب بـ:"الحمدلله الذي أودع أسراره في أسمائه وظهر بحكمته في أرضه وبقدرته في سمائه".

وينتهي بـ:"مخصوصاً بالرحمة والحرمة وتمام النعمة لا ربّ غيره ولا خير إلا خيره".
هذا الكتاب يتعرض لأسماء الله الحسنى وخواصها، وفيه يشرح مولانا زروق معنى الاسم من الناحية اللغوية ومؤداه*، ثم كيفية الذكر به ونفعه وأثره، مع مقدمة لكل اسم يبين فيه ما إذا كان اصطلاحياً أو توفيقياً،حيث يناقش كذلك هنا أنواع الأسماء الأربعة:
أسماء الذات.
وأسماء الصفات.
وأسماء الأفعال.
وأسماء التنزيه.
وثمة استشهادات عديدة من ابن عربي والسهروردي وغيرهما.
يعرف كذلك بأسماء:
-فتح المقام الأسمى فيما يتعلق بالأسماء.
-المقصد الأسمى في ذكر شيء مما يتعلق بالأسماء.
-خواص أسماء الله الحسنى.

6-شرح دلائل الخيرات:

دلائل الخيرات لأبي محمد سليمان الجزولي مؤسس الطريقة الجزولية وأحد شيوخ مولانا زروق، والكتاب مجموعة أدعية وصلوات كانت – ولا تزال – ذات شهرة فائقة، ويشاع أن ابنة مولانا زروق كانت السبب في تأليف هذا الكتاب والله أعلم.

7-شرح الحكيم الترمذي:

ذكر في شرح النصيحة: ص10.
وهو تعليق على أحد كتب أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي الذي يذكره مولانا زروق في شرحه للحكم العطائية (طبعة القاهرة عام 1969م ص221) عند حديثه عن رمزية شعائر الصلاة، والمعروف أن الترمذي ألف كتاباً أسمه (الصلاة ومقاصدها).

8-شرح حزب البحر:

ذكر في:
-كشف الظنون: 661/2.
-إيضاح المكنون: 521/2.
-شذرات الذهب: 362/7.
-شجرة النور: 268/1.
-التعريف: 29.
-الأنس: 4.
-النبوغ: 218.
-تاريخ الأدب العربي 329/2.
الكتاب يبدأ بـ:"الحمد لله الذي فتح لأوليائه طرق الوسائل، وأجرى على أيديهم الكريمة أنواع الفضائل".
وينتهي بـ:"وقلة الأدب بالتجاسر على كلام أولياء الله، والله ولي من أعتمد عليه، وحسب من استند عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل".

تعليق على حزب أبي الحسن على بن عبدالجبار الشاذلي المتوفى عام 656هـ - 1258م، وهو مؤسس الطريقة الشاذلية التي كان مولانا زروق أحد أتباعها مع مقدمة وخاتمة.

ففي المقدمة يتعرض مولانا زروق لما يلي:

تعريف الحزب، سبب تعريفه، سبب قبول الحزب أو رفضه، شروط تأليف الحزب، كيف يستعمل مقارنة بين الأحزاب، الشاذلي وبعض الأحزاب الأخرى لسواه، تبرير قراءة الحزب، أنواع الحزب، لماذا سمي بحزب البحر، كيف ومتى يقرأ. ثم كتب مولانا في الخاتمة ما يأتي:
معنى الاعتقاد والانتقاء والتقليد في أتباع شيوخ الصوفية والتشبه بهم في الأخلاق والبأس والسلوك، وأصول التصوف، الذكر وتوقيته، أصل الخير والشر، معاملة الناس، الزمان والخلوة.
يعرف الكتاب كذلك باسم: (شرح الحزب الصغير) و(مفاتيح العز والنصر في بعض ما يتعلق بحزب البحر).

9-شروح الحكم:

ذكر في:

-بلوغ المرام:29.
-شجرة النور: 268/1.
-شذرات الذهب: 362/7.
-نيل الابتهاج: 86.
-شرح النصيحة:1.
-المنهل العذب: 183.
-الضوء اللامع: 222.
-إيضاح المكنون: 526/2.
-الأنس:4.
-طبقات الشاذلية:123.
-النبوغ: 218.
-تاريخ الأدب العربي: 329/2،143.

الحكم: هو احد الآثار الصوفية الكبرى التي خلفها تاج الدين بن عطاء الله السكندري (توفي 709هـ /1309م) وقد رامه كثير من العلماء وأهل التصوف بالشرح والتعليق وكان موطن الاهتمام الكبير، أما فيما يتعلق بمولانا زروق فقد كان هذا الأثر رفيقه منذ بداية اتصاله بعالم الصوفية، ومما يثير الانتباه أن نراه يصطحب نسخة منه أنى إرتحل وأينما حلّ، وهو في كل موضع نزل به – تقريباً – بدأ كتابة شرح له ولما يحتويه، ويختلف عدد الشروح التي تنسب إليه من مصدر إلى آخر، وإن كانت جميع المصادر تتفق على أنه كتب سبعة عشر شرحاً، بينما يزعم بعضها أن العدد يزيد عن الثلاثين، ولا يدعى أي من مترجمي مولانا زروق أنه رأى بعينه ما بعد السابع عشر، وقد ترك لنا زروق نفسه قائمتين بعدد شروحه على (الحكم) توجد الأولى في الصفحة الأخيرة من شرحه الحادي عشر والذي ألفه سنة 881هـ/1476م (مخطوطة قومية القاهرة 2665/تصوف) حيث يقول:

(وجملة التعاليق التي وقعت لنا عليه سبعة عشر، الكامل منها أحد عشر،الأول كتبته في سبعين وثمانمائة ببلدنا (فاس) ثم سُرق قبل تحقيقه وتصحيحه، الثاني كَمَلتُه بتونس في سنة أربع وسبعين، وأسماه شيخنا الزواوي: (تنبيه ذوي الهمم على معاني ألفاظ الحكم)، الثالث وضعته بها وسميته (الطرر والحواشي)، الرابع كتبته بها سنة سبع وسبعين وحملت نسختي منه لا طرابلس (طرابلس)، الخامس كتبته بطيبة المشرفة وسميته بـ(اللامعة الرسمية على الكلمات الحكمية)، السادس وضعته بمصر تسمية وصناعة على سبك الكلام بعضه ببعض حتى كأنه تأليف واحد، التاسع كتبته سنة ثمانين وثمانمائة، العاشر أردفته به سنة إحدى وثمانين وكان كتبته في شهر رمضان فكمل بزيادة يومين، الحادي عشر هذا الذي طالعته، والتي لم تكتمل ستة منها، واحد بمصر، والثاني بمصراته والثالث بطرابلس، والرابع ببجاية، والخامس والسادس ببلدنا، وإنما أعتبر ما كتب ما ينفع به، وأما ذوات البدايات فلا تحصى).

والقائمة الثانية توجد في مقدمته للشرح السابع عشر حيث يقول:

(وقد كنا كتبنا عليه مراراً عديدة، كمل منها سبعة عشر، فكان الأول بمدينة فاس سنة سبعين، ثم سرق فكتبت الثاني بها وكملته بتونس، ثم الثالث بتونس، ثم الرابع بالقاهرة، ثم الخامس بالمدينة المنورة، ثم السادس بالقاهرة أيضا، ثم السابع بطرابلس، ثم الثامن بتونس أيضاً، ثم التاسع ببجاية، ثم العاشر والحادي عشر والثاني عشر بمدينة فاس، ثم الثالث عشر كذلك وكذلك الرابع عشر، ثم الخامس عشر ببجاية أيضاً، ثم السادس عشر بالقاهرة أيضاً، ثم هذا هو السابع عشر).

ونحن يمكننا من هاتين القائمتين القول بأن مولانا زروق لم يكتب أكثر من سبعة عشر شرحاً كاملاً على (الحكم) أما ما زاد عن هذا العدد فكان مجرد بدايات لم يتممها ولكي نملأ الفجوة بين القائمتين نستطيع الظن بأنه بحلول عام 881هـ/1476م، كان قد أكمل احد عشر شرحاً، ثم أتم الشروح الستة الباقية التي يذكرها في القائمة الأولى بعد ذلك.

وبإعادة مبسطة لترتيب القائمتين ومقارنتها ببعضها البعض يصبح من السهل اكتشاف تطابقهما في أسماء الأماكن وعدد مرات الشرح، مرجحين أنه كتب شرحه الأخير (السابع عشر) في مصراته حيث قضى سنواته الأخيرة.

فنرى من القائمتين كلتيهما أنه كتب ستة شروح في فاس، وواحداً في المدينة المنورة، وواحداً في طرابلس الغرب، وواحداً في مصراته.

والبيان التالي لما أمكن معرفته والاطلاع عليه من شروح للحكم في نسخها المختلفة:

1-تنبيه ذوي الهمم على معاني ألفاظ الحكم:

-مخطوطات: تونس:5644.

-ورقات: 1 – 95.

-الملكية: 2116.

-تصوف، قومية القاهرة 2665.

-تصوف، الاسكوريال 758.

يبدأ بـ:"الحمد لله الأحد في ذاته الواحد في صفاته العلي في سماته".

وينتهي بـ:"حارة جامع القرويين عمره الله بدوام ذكره آمين يا رب العالمين".

هذا هو الشرح الحادي عشر، كتب في فاس سنة 881هـ/1476م.

2-الشرح الخامس عشر:
ذكر في:
-ابن عباد الرندي (بالفرنسية) – لبول نويا. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1956م ص 23.
-مخطوطات: الاسكوريال 728.
-القرويين 461.
من الذين علقوا على هذا الشرح علي بن حسام الدين المتقي الهندي (توفي 975هـ/1557م)، أنظر مخطوطات برلين 769.we.1757.2.
3-الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ العطائي:
-مخطوطات: الاسكوريال DCCXXXIV
يبدأ: "أما قبل كل شيء..".
وينتهي: "...ظاهراً وباطناً".

4-مفتاح الفضائل والنعم على بعض ما يتعلق بالحكم:
ذكر في:
-إيضاح المكنون 526/2.
-مخطوطات الاسكوريال DCCLXXII .
-المتحف البريطاني DCCLV,VIII DCCLV,III.
يبدأ: (الحمد لله حمد معترف بالعجز عن إيفاء حمده ...).
جاء في (فهرس مكتبة الاسكوريال) أن الشرح ألف بطرابلس الغرب فهو قد يكون الشرح السابع بحسب قائمة زروق.
5-سراج الحكم:
ذكر في:
-تاريخ الأدب العربي: 329/2.
-مخطوطات: كمبردج P2.
هكذا يدونه (بروكلمان) ولعل كلمة (سراج) تصحيف لكلمة (شروح).
6-شرح الحكم:
ذكر في:
-إبن عباد الرندي 25.
-مخطوطات: الاسكوريال/776، 3:741 ميونخ: 139.
شرح لا يحمل تاريخ تأليفه ولا موقعه ولا رقمه.
7-الشرح السابع عشر:
-مخطوطات: الأزهر: 6150(106) أوقاف طرابلس 53/1/161.
-طبعات: بتحقيق د. عبدالحليم محمود، القاهرة سنة 1969م.
بتحقيق الشيخ أحمد زكي عطية، منشورات الجامعة الليبية/1971م.
8-تلخيص الدرة المنتخبة في الأدوية المجربة:

ذكر في:
-إيضاح المكنون: 461/2.
-تاريخ الأدب العربي: 329.
-مخطوطات: الأزهر 43/24(477).
-ورقات: 50إلى 87.
-الجزائر: 2/1322.
-الإسكندرية: 17/طب
يبدأ الكتاب: (هذه الفوائد نقيتها من الدرر المنتخبة في الأدوية المجربة).
والكتاب ألفه نصر بن نصر بن داؤود المالك المنصور في الطب مؤسساً على العلاج الروحي والطبيعي معاً.
وهو مقسم إلى أثنى عشر فصلاً يعنى بعلل الجسد من قمة الرأس إلى أخمص القدمين وهو يبدأ بـ:"الحمد لله الذي فضل نوع الإنسان بنطق اللسان..).
وقد نسب إيضاح المكنون (هذا الكتاب لمولانا زروق) وقد فعل الشيء نفسه فهرس جامعة برنستون.

9-مجموعة القصائد:

القصيدة الأولى:
قصيدة في النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه تبدأ:

ألا إن رب العرش لا رب غيره   وأن محمداً رسول مقرب وتنتهي
لتشفع لنا خير الورى وأنا الذي   له فيك أمداح تطيب وتعذب

القصيدة الثانية تبدأ:

الحمد لله القديم في الأزل   له البقاء في الوجود لم يزل

القصيدة الثالثة تبدأ:

يا نائماً غافلاً قد غره الأمل   إلى متى برقاد الليل تشتغل

وتنتهي:

ثم الصلاة على المختار سيدنا   مادامت الشمس في الأفلاك تنتقل

القصيدة الرابعة تبدأ بـ:

عليك بتقوى الله إن كنت غافلاً   ولازم سبيل الحق تحظى بطائل

وتنتهي:

عليه صلاة الله ما لاح بارق   مع الآل والأصحاب أهل الفضائل

القصيدة الخامسة تبدأ بـ:

بكيت على نفسي فلم ينفع البكا   ودافعت آمالي فلم يخشني الدفع

وتنتهي:

وها أنا ذا أرجو ولا أقطع الرجا   ولو جاءني منع فلم يخشى المنع

القصيدة السادسة تبدأ بـ:

شوقي إليكم عجب   والصبر مني أعجب

وتنتهي:

وسلامنا لمقامكم هو السلام الأطيب

القصيدة السابعة تبدأ بـ:

رجوت إله العرش ينفعني به وينفع من يغنى به ويؤمه

وتنتهي:

وحسبي إله العرش ربي خالقي فما خاب ذو وجه إذا هو أمه

القصيدة الثامنة تبدأ بـ:

إلهي بدت مني ذنوب فأفرغت وصار بها قلبي رهيناً فروعت

وتنتهي:

وعامل بإحسان كأني سائل ولا تردّن كفي متى ما تضرعت

القصيدة التاسعة تبدأ بـ:

أوواجلة قوم يسوقون غيرهم إلى مصر والسودان في طلب التبر

وتنتهي:

وهو للأولياء فمعدن يحبون أهل الخير في سائر القطر

ويتضح لنا من بيان مؤلفات مولانا زروق عددها الكبير الذي خلفه لنا، ومقدار ما كان يأخذ به نفسه من العناية الاهتمام وما يبذله لتسجيل أفكاره وآرائه، غير أن ثمة مؤلفات تنسب له لا يمكن لأي من أطلع على فكر وموطن مولانا زروق وعايش آثاره أن يقبلها ضمن كتبه ومصنفاته، أو يعتبرها – حقاً – من نتاجه. ولم يكن مولانا زروق الوحيد الذي تنسب إليه أعمال لم يأتها أو مصنفات لم يكتبها أو أقوال لم يتفوه بها، فقد حدث هذا كثيراً لسبب أو لآخر في مجال التصوف وفي سواه، وتبدو لنا إمكانية الحكم على ثلاثة من المؤلفات تنسب لمولانا زروق بأنها ليست له وإنما هي لغيره في الواقع أضيفت إليه لسبب ما، وهي:

1- الكشف، ويعرف أيضاً (الصناعة الكبرى). رغم أن ثمة نسخاً عديدة وكلها منسوبة له فإن من العسير قبول هذه النسبة إليه.
2- شرح الدمياطة ويعرف أيضاً باسم المواهب السنية.
3- القصيدة التائية.

تواريخ تأليف بعض كتب زروق

اسم الكتاب	تاريخ تأليفه
تحفة المريد	870هـ/1465م
شرح الحكم الثاني	870هـ/1465م
النصيحة الكافية	874هـ/1469 – 70م
الجامع	877هـ/1472 – 73م
شرح الحكم الثامن	877هـ/1472 – 73م
شرح الحكم التاسع	878هـ/1473 – 74م
شرح الحكم العاشر	878هـ/1473 – 74م
شرح الحكم الحادي عشر	880هـ/1475 – 76م
شرح المباحث الأصلية	881هـ/1476 – 77م
جزء في علم الحديث	881هـ/1476 – 77م
قواعد في علم الحديث	881هـ/1476 – 77م
قواعد التصوف	882هـ/1477 – 78م
تأسيس القواعد	883هـ/1478 م
عدة المريد الصادق	886هـ/1481 – 82م
شرح صدور المراتب	887هـ/1481 – 83م
شرح عقيدة الغزالي	887هـ/1482 – 83م
أرجوزة في عيوب النفس	888هـ/1483 – 84م
شرح الحكم (غير معيّن)	889هـ/1484م
شرح أسماء الله الحسنى	891أو92هـ/1486أو87م
شرح حزب البحر	895هـ/1491م
شرح رسالة القيرواني	896هـ/1490 – 91م
الكناش	بعد 1489/895 – 90م
مناقب الحضرمي	بعد 1489/895 – 90م

شروح لبعض كتب مولانا زروق وتعليقات عليها

1-اختصار شرح النصيحة الزروقية:

الشارح: أبو مدين أحمد بن محمد الفاسي.

ذكر في:

-النبوغ: 303.

2-الأنوار القدسية في شرح الوظيفة الزروقية:

الشارح: مصطفى بن كمال الدين البكري (توفي 1162هـ/1794م).

ذكر في:

-تاريخ الأدب العربي 329/2.

3-الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية:

الشارح: أبوزيد عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله العياشي.
مخطوطات: الرباط 952د، 0861، 3861 – د. قومية القاهرة 3361ج.
طبعات: القاهرة 1324هـ/القاهرة 1388هـ ملحق بـ(تنقيح روض الأزهار) لمحمد مخلوف.
4-الأنس في شرح عيوب النفس:
الشارح: أبو عبدالله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي (توفي 963هـ/1555م).
مخطوطات: تونس 7855، المتحف البريطاني VIXXCD.
5-الترياق الفاروق في شرح وظيفة الزروق:
الشارح: أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني التميمي السبتي.
مخطوطات: المتحف البريطاني IIVXLCCCD.
6-تعليق على شرح الحكم الخامس عشر:
الشارح: علي بن حسام الدين المتقي الهندي (توفي 977هـ/1569م).
مخطوطات: برلين (968, 6 EW ، 27571).

7-تنوير الأفئدة الزكية في أدلة أذكار الوظيفة الزروقية:
الشارح: أحمد بن عبدالرحمن الساعاتي.
طبعات: القاهرة، بولاق 1294هـ/1877م طرابلس، مكتبة النور،1968م.
8-الدرة الشريفة في الكلام على أصول الطريقة:
الشارح: أبوعبدالله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي.
مخطوطات: تونس/زيتونة/3،4881/172،الرباط 1022د.
ورقات: 33 – 59 قومية القاهرة 22724ب، المتحف البريطاني VIXCCC.
-عنوان آخر: النبذة الشريفة في شرح أصول الطريقة.
9-هداية ربي عند فقد المربي:
الشارح: علي بن حسام الدين المتقي الهندي.
مخطوطات: الأزهر 5446 (216).
تعليق على مؤلف لزروق لم يعثر عليه باسم (سلوك الطريق إذا فقد الرفيق).
10-شرح أصول الطريقة:
الشارح: أحمد بن عبدالصادق الطرابلسي (توفي 911هـ/1371م).
مخطوطات: الرباط 991، 992.
11-شرح النصيحة الكافية:
الشارح: محمد بن عبدالرحمن بن زكري (توفي 1144هـ/1731م).
مخطوطات: الرباط 991، 992.
12-شرح قواعد الطريقة:
الشارح: علي بن حسام الدين المتقي الهندي.
مخطوطات: الأسكوريال 24/2741 برلين (3031.PM. 547.1).
13-كاشف الدجى في شرح سفينة النجا:
الشارح: محمد نوري بن عمر النواوي.

ذكر في: إيضاح المكنون 18/1.

14-لوامع البروق على وظيفة الشيخ زروق:
الشارح: محمد الوطناسي.
مخطوطات: المتحف البريطاني ADD.9484.
15-اللواقح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية:
الشارح: أحمد بن عجيبة الحسني (توفي 1196هـ/1782م).
ذكر في: تاريخ الأدب العربي: 329/2، ACIBARA مجلد 15 ص252.
مخطوطات: الإسكندرية/فوزي 19، وبالمكتبة العامة بتطوان (المغرب) توجد نسخة تقع في 260صفحة عام 1195هـ/1781م بخط المؤلف قبل وفاته بعام واحد.
16-الموارد الصافية في شرح النصيحة الكافية:
الشارح: أبو مدين بن احمد بن محمد الفاسي.
مخطوطات: تونس/زيتونة 517/3، 158أ.
17-المنح الذوقية في حل ألفاظ الوظيفة الزروقية:
الشارح: بدرالدين الحمومي (توفي 1266هـ/1850م).
مخطوطات: الرباط 2865د.
18-نظم أصول التصوف:
الشارح: أبوسالم العياشي (توفي 1090هـ/1679م).
ذكر في: النبوغ 302.
19-نظم كيفية معرفة السنة المجدية:
الناظم أبو عبدالله محمد سعادة.
مخطوطات: تونس 507(أنظر الكناش) مخطوط تونس 1911 ورقة 98ب.
20- فتح ذي الصفات السنية بشرح الوظيفة الزروقية:
الشارح: علي بن سعد البيسوسي السطوحي الشافعي (توفي في القرن 12هـ).
ذكر في: تاريخ الأدب العربي 329/2.
مخطوطات: الأزهر 42057/ مجموع الجوهري 1038.
21-فتح ذي الصفات السنية بشرح الوظيفة الزروقية:
الشارح: ناصر الدين أحمد النشرتي المالكي البرهاني (توفي 1120هـ/1708م).
مخطوطات: MINGANA 723 (229A).
22-الفوائد اللطيفة في شرح ألفاظ الوظيفة:
الشارح أحمد بن احمد ين محمد السجاعي الشافعي الأزهري (توفي 1197هـ/1783م).
مخطوطات: الأزهر 140/8485، هيلبرغ ORIENT.333.
طبعات: مطبعة النجاح دمنهور (مصر) 1330هـ/1912م.
23-فصل في ذكر شيء قليل جداً من الوظيفة:
الشارح: أحمد بن أبي غالب القسنطيني.
مخطوطات: المتحف البريطاني ADD.8484.

الزروقية

حين ننظر في تاريخ التصوف الإسلامي نرى ظاهرة التجمع حول كبار رجاله واضحة منذ بداياته الأولى، وكان شيوخ الصوفية مركز تحلق قد يكبر أو يصغر، يلتف حولهم أتباعهم ومريدوهم، فيكونون جماعات متميزة داخل المجتمع الإسلامي، يحيون طبقاً لتعاليم هؤلاء الشيوخ وإرشاداتهم، ويعيشون في عالم روحي خاص بهم تبعاً لمنحى كل شيخ منهم.

وقد تطورت هذه الجماعات فيما بعد إلى نوع من الجماعات الاخوانية أُطلق عليها اسم "الطرق الصوفية" وكانت بأفكارها وأسلوبها ظاهرة مميزة في تاريخ الإسلام وركناً مهماً من أركان مجتمعه.

وبعد أن كانت "هذه الطرق" محدودة العدد في بداية نشأتها في القرن الثالث الهجري "التاسع الميلادي" إذا بها تتكاثر وتكتسب أهمية بالغة وتنتشر على مدى رقعة الإسلام العظيمة في القرون التالية وتجتذب من حولها عدداً لا يحصى من الأتباع في كل مكان. وقد يحق – من خلال التنوع الكبير أو الاختلاف بين هذه الطرق – أن نرجع السبب في هذا التنوع إلى ما كان في الأصل من اختلاف بين شيوخ الصوفية أنفسهم في تفسيرهم للتجربة الروحية التي مروا بها وفي منهج اقترابهم من الغاية القصوى التي كانوا جميعاً يتوقون إليها ويتفقون على أنها هدفهم ومقصدهم. ومن هنا جاء التعبير الصوفي الشهير أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق [1] اعتذاراً من الصوفية، كلما أحسوا بهذا الاختلاف فيما بينهم، فكل السبل تؤدي إلى الحقيقة، وليست الغاية هي موطن الاختلاف، بل السبيل التي يسلك إليها.

وحينما "يكتشف الصوفي هذه الحقيقة" ويبلغ المرتبة العليا في تطوره الروحي، سرعان في نفسه أن الطريق الذي سلكه هو الذي يضمن الوصول للآخرين كما ضمنه له، وهو يبدأ هنا في الدعوة إليه وقيادة أتباعه فيه، وهو في الوقت ذاته منشغل بالتعبير عن تجربته الروحية الخاصة به. وهنا

(1) السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص6.

أيضاً يبرز الخلاف: كيف ينقل للآخرين ما هو في ذاته غير قابل للنقل؟ كيف يفسر ذلك الشعور الفريد بالسمو الروحي الذي يعيشه؟ تلك هي المشكلة وهذه هي علة ما نراه في التصوف من انقسام الطرق وتفرعها، وتباينها أحياناً كثيرة طبقاً للتعبير الذي ارتضاه منشؤها عن تجاربهم، وليس في نيتنا أن نبحث هنا في أصل التصوف، إذ أن ثمة آراء عدة تقدم أسباباً كثيرة في نشأته وتطوره وتعدد العوامل الأجنبية التي أثرت فيه وجعلت المسلمين يأخذون بالطريق الصوفي في أثناء احتكاكهم بالحضارات الأخرى بعد انتشار الإسلام والسماح له بدخول حياتهم بل وتوجيهها. غير أنه لا بد من الملاحظة صعوبة نفي هذه المؤثرات الأجنبية،رغم الإقرار بأن الحياة الصوفية الروحية ليست غريبة عن روح القرآن وأن في الكتاب العزيز بذور التطلع الروحي والحث عليه [1]. هذه المؤثرات – في الواقع – هي التي شكلت بعض الأفكار الصوفية المعينة ووجهت بعض رجال التصوف وجهات خاصة ليس من السهل الدفاع عنها بغير محاولة بتبرير شطحاتهم والتعسف في تفسيرها أولى أسس العقائد الإسلامية ذاتها [2]. ورغم كل شيء فإنه لم يقدر لهذه الأفكار أن تعيش طويلاً – اللهم إلا في أضيق الحدود – بعد أن جاء المد السني، وخاصة بعد الإمام أبي حامد الغزالي الذي اتبع

طريق التصوف – وهو الشيخ الأشعري – واستطاع أن يجعل منه جانباً مهماً من جوانب الحياة الإسلامية الفكرية والروحية والاجتماعية، وهو طوق بهذا أغلب الطرق غير السنية واستمرت الطرق الصوفية السنية في الوجود والنمو الازدهار حتى عصرنا الحاضر.

---

(1) أنظر القرآن الكريم،16:50، 103:6، 24:80، 13:28، 45:29، 35:39، 35:33، 125:2، 54:5،وكانت هذه الآيات وغيرها مرجع الصوفية ومصدر مصطلحاتهم في كثير من الأحيان، أنظر البحوث في هذا الباب:
M. Lings, Sufism, Encyclopaedia Britannica, L. Massignon, Essay
Sur les oribies du Lexique Technique Musulmane, Paris 1954.
وثمة مقالتان جديدتان عن (القرآن والقاموس الصوفي) للشيخ عبدالعزيز بن عبدالله في مجلة (اللسان العربي) مجلد 4-الرباط 1966، ص 5 – 7 ، 209 – 214.

(2) كالحلاج والبسطامي – أنظر: السلسبيل المعين، ص 6 – 7.

وإلى جانب الأهمية الفكرية للطرق الصوفية والدور الاجتماعي الذي لعبته خلال العصور، فإن لها جانبها السياسي الذي أثر أكبر الأثر في الإسلام وفي انتشاره. وكانت بعض الطرق نواة لقيام دول عدة على أسس الصوفية [1]، ولعله من الغريب حقاً أن يحدث هذا رغم أن التصوف – في جوهره – دعوة للبعد عن الحياة ومشاكلها، وترقيب في حياة روحية متبتلة تحقق ما ينأى عنه الإنسان في هذه الدنيا، وأجمل ما يكون وأبهاه في الحياة الآخرة. غير أنه يبدو وكأن للظروف التاريخية دوراً في اهتمام بعض الطرق الصوفية بأمور السياسة وقضايا المجتمع المعقدة، ويجب أن لا يغرب عن بالنا أن مبدأ "إتباع الأحسن" [2] كان أحد العوامل التي أخرجت بعض الشيوخ الصوفية من عزلتهم وأجبرتهم على العمل من أجل المجتمع في مجموعة إذ لم يكن هذا المبدأ مسألة خاصة أو فردية مقصورة على أهل التصوف وحدهم بل أصلاً وهدفاً عاماً مشتركاً كانوا يتبعونه ويأملون تحقيقه من أجل خير المجتمع، إما بالدعوة والوعظ والإرشاد وإما لتسلم السلطة والحكم وتحقيقه على أيديهم هم إن أخفقت الدعوة إليه لدى الحكام [3] .

غير أنه يجب علينا أن نأخذ في الحسبان أمرين – ونحن نشير إلى نشأة الطرق الصوفية وتطورها: أولهما أن هذه الطرق لم تكن جميعها ذات طموح سياسي، وثانيهما أنه ليس كل ما كان منها يحدوه هذا الطموح نجح في تحقيقه.

---

(1) كالمرابطين في المغرب، والتجانية في غرب أفريقيا، والمهدية في السودان والسنوسية في ليبيا.

(2) أنظر: قواعد التصوف، ص 34 – 35: (اتباع الأحسن أبداً، محبوب طبعاً، مطلوب شرعاً   الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب   الزمر 18، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها، إن الله جميل يحب الجمال.

(3) يمكن ضرب مثل على هذا الأمر هنا بأحمد بن إدريس (توفي سنة 1253هـ/ 1837م) الزعيم الصوفي الشهير بالحجاز الذي يقول عنه الأستاذ/ ترمنغهام: (إن إهتمامه لم يكن مقصوراً على تلقين الأوراد والأذكار أوحض الناس على الخلوة والعزلة، وقد يكون لهذا كله نفع فردي للمريد، لكنه لم يكن ملائماً لغايته العليا، أعني وحدة جهاد المسلمين بوحدة رابطة الإسلام) The Sufi Order in Islam

وعلى هذا يمكننا أن نقسم الطرق الصوفية إلى قسمين: الطرق الروحية الخالصة، والطرق الروحية السياسية، وبينما نجد القسم الأول يوجه اهتمامه كله إلى الحياة الفردية وتطور الفرد الروحي في معارج التصوف وتقوده مبادئ وأصول خاصة، نرى القسم الثاني يخلط ما بين هذا الجانب الروحي والنظر في أمور الدنيا والأخذ بأسباب الحياة اليومية العادية في كل مجال.

هذا تقسيم لطرق التصوف، وتقسيم آخر نستخلصه من واقع العالم الإسلامي ذاته وخريطته، فقد قسم هذا العالم إلى قسمين: المغرب والمشرق، وكان أن صنفت الطرق الصوفية كذلك إلى مغربية ومشرقية طبقاً لهذا التقسيم الجغرافي [1]. وعلى الرغم من حقيقة

أنه كان لبعض الطرق – من إحدى الجهتين – أتباع ومريدو الجهة الأخرى وعلى سعة رقعة بلاد الإسلام إلا أن التركيز عادة ما يكون في إحداهما ومن مناطق بعينها. وهذا يعود – في الواقع – إلى طبيعة الطريقة نفسها ومدى تقبل تعاليمها في قطر من الأقطار دون غيره – لسبب من الأسباب – ذلك لأن بعض الأفكار قد تجد قبولاً حسناً في بعض الأقاليم وتربة صالحة لتنمو فيها وتزدهر، في حين لا تلقى رضا أو استجابة في إقليم آخر لعدم وجود الخلفية الذهنية والثقافية والفكرية اللازمة لحفظ وجودها واستمرار بقائها في هذا الوجود [2].

(1) المصدر السابق ص 4 – 16.

(2) نشير هنا إلى ملاحظة الأستاذ ترمنغهام أن (استجابة الجماعات في كل أقليم بالنسبة للتصوف في مظاهره المتباينة إختلفت بشكل كبير) وهو يضيف أنه من السهل وضع التصوف الفارسي في مقابل – التصوف العربي تبعاً لردة فعل كل من الشعبين. (غير أن ردة فعل شعوب القارة الهندية لا يمكن تحديدها بدقة فإن تنوع الأجناس هناك يصور كل تعبير صوفي بطريقة لا تتصور في أي مكان آخر.. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الاختلافات الثقافية في الاستجابة والأخذ توجد كذلك في العالم العربي.. وهذه الاختلافات نفسها هي التي تقيد إستجابة الشعوب والأمم والجماعات نحو التصوف) The Sufi Order in Islam. وقد لاحظ زروق الشيء نفسه منذ خمسة قرون مضت من الزمان في كتابه (عدة المريد الصادق) مخطوط الرباط 1157د. حين حدد ستة أنماط من التصوف في: المغرب والمشرق، والشمال، والجنوب، واليمن، والحجاز، والأندلس (ص 70 – 71) وقدم وصفاً لكل هذه الأقاليم وما تحتويه من بلدان و(نوع) تصوفه ومميزاته وظواهره، ثم حدد – على التعميم – ثلاث أنماط رئيسية من التصوف: المغربي، والعجمي (الفارسي) ثم اليمني – ص (60 – 62).

وفي نشأة الطرق الصوفية نرى التشابه الذي يكاد يكون تطابقاً بينهما في هذه النشأة: يبرز شيخ من الصوفية ويذيع صيته لتقواه أو لكراماته، تتحلق من حوله جماعة من المريدين والمحبين، تتلقى تعاليمه وتطيع أوامره وتستجيب لتوجيهاته وتتخذ منه قائداً وهادياً لها في طريق الخلاص الروحي، ثم تتحول هذه التعاليم والتوجيهات – بمرور الأيام – إلى مسلّمات مقدسة، تحوطها شعائر وطقوس، وتجتذب الأتباع يوماً بعد يوم، وبهذا تنشأ "طريقة" جديدة أخرى تضاف إلى ما قبلها من عشرات الطرق، طريقة تحمل – في العادة –أسم مؤسسها أو شيخها، ذات طابع خاص بها ومبادئ تعرف بها وتشتهر وإن اتفقت في بعض الأصول مع طريقة سابقة لها كان الشيخ الجديد أحد أتباعها، إما بتبديل يسير في هذه الأصول أو بإضافة أصول أخرى إليها، على انه لابد في كل الأحوال من الاحتفاظ بخيط يربط بين مؤسس الطريقة الجديدة وبين أحد مشاهير الصوفية السابقين، أو جماعة منهم، ممن كان قبلهم، يصلهم بمصدر الإشعاع الروحي الأول في الإسلام، أعني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق واحد أو أكثر من الصحابة الأكرمين. إذا الخيط الرابط هو ما يطلق عليه الصوفية اسم "السلسلة" وهي لا غنى عنها لأي منشئ طريقة جديدة كي يمكنه ممارسة سلطتها ونفوذه على أتباعه وتتوجب عليهم طاعتهم له واحترامهم لأوامره ونواهيه.

بهذه "السلسلة" وبتأكيد ذاته المتميزة وشخصيته الخاصة، وبانتشار قدرته وتمكنه في عالم الروح، يصبح الصوفي شيخاً معترفاً به يتجمع من حوله أتباع –حياً أو ميتاً – يصير علامة من علامات الطريق الطويل الذي مر به وتصير "طريقته" فرعاً من"الطريقة الأم" وتتفرع عن طريقته طرق أخرى، وهذا ما حدث بالنسبة للطريقة الزروقية.

وفي الصفحات الماضية تتبعنا حياة مولانا أحمد زروق وعرفناه مريداً وسالكاً في الطرق الصوفية، واهتممنا به عالماً ومؤلفاً وأطلعنا على آثاره، وحان الوقت الآن للتعرف عليه شيخاً وأستاذاً وزعيماً روحياً ومنشئاً لطريقة تحمل اسمه إلى اليوم.

السلسلة:

إلى جانب أن الزروقية طريقة صوفية سنية مغربية، يتفق مؤرخو الطرق الصوفية جميعاً وبلا استثناء على إلحاقها بالطريقة الشاذلية وعلى أنها فرع منها وعلى أن مولانا أحمد زروق كان شاذ لياً محضاً. وقد يكون في القول بشاذلية شيخنا، الكثير من الصواب لكن فيه قليل من الدقة، فقد عرف شيخنا بأنه كان مدافعاً عظيماً عن الشاذلية شارحاً ذائع الصيت لكثير من نصوصها وكتبها كما سبقت الإشارة إليه. وكان من عاداته أن يعلي من قدر الشاذلية ويعتبرها "أقرب الطرق إلى الله [1]" لكن – على كل حال – لم يكن شاذلياً محضاً كما يظن ويعتبر، لسبب بسيط يكمن فيه أن المرء – إذا كان يحسب على طريقة مادون غيرها – لابد أن يتبع هذه الطريقة حذو النعل بالنعل – كما يقال، آخذاً بكل صغيرة وكبيرة من أصولها ونظمها وجميع ما يتصل بها ولم يكن مولانا زروق من هذا على شيء.

المعروف أن الشاذلية – في أبسط الصيغ – تقوم على خمسة أصول أو مبادئ هي:

1. تقوى الله في السر والعلانية.
2. إتباع السنة في القول والعمل.
3. الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.
4. الرضا عن الله في القليل والكثير.
5. الرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء[2].

(1) شرح حزب البحر، مخطوط القاهرة 25866 ص 13.

(2) جامع أصول الأولياء، ص 14 (فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة، وتحقيق السنة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الأغراض بالصبر والتوكل، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر واللجوء إليه).

صحيح أن هذه الأصول متضمنة في تعاليم مولانا زروق، غير أن ثمة خمسة أصول أخرى تكّون مع الأصول الشاذلية، الطريقة الزروقية وهي أصول قادرية "نسبة إلى عبدالقادر الجيلاني":

1. علو الهمة.
2. حفظ الحرمة.
3. حسن الخدمة.
4. نفوذ العزمة.
5. تعظيم النعمة [1].

ويصبح هذا التأثير القادري واضحاً أشد الوضوح حين نرى الشيخ يضع صيغتين لأسس الزروقية تدعى كلتاهما (أصول الطريقة)، تتكون الأولى من خمسة أصول شاذلية، والثانية عبارة عن عشرة أصول شاذلية – قادرية – ثم يضاف إلى هذا ما نلاحظ من انه كان لزروق سلسلتان، تصله الأولى منهما بأبي الحسن الشاذلي، وتربطه الثانية بعبدالقادر الجيلاني. ومما يبعث على الدهشة فعلاً أن تجد شيخه أحمد بن عقبة الحضرمي على رأس السلسلتين كلتيهما، وقد نفسر هذا بأن السند يأتي عن طريقتين هما:

- طريق السلسلة.
- طريق الخرقة [2].

وينبغي أن لا يفوتنا أن الحضرمي لم يكن في الواقع شاذلياً، بل لعله كان مقدماً قادرياً [3]، أخذ تلقينه على يد أبي زكريا يحيى القادري، وصلته الوحيدة بالشاذلية كانت عن طريق علي بن محمد وفا القرشي (توفي 1310م) مؤسس الطريقة الوفائية [4].

(1) جامع أصول الأولياء، ص 14 (فمن علت همته إرتفعت مرتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن أنفذ عزيمته تمت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها ومن شكرها استوجب المزيد من النعم حسبما وعده).

(2) المنهل الروي في سند العلوم وأصول الطرائق ص 74 – 75.

(3) ~~Rinn: Marabuts~~ et Khouan, p. 268

(4) إحدى طرق الشاذلية الفرعية Rinn: Marabuts.. p 267

وحتى الصلة ذاتها كانت من خلال أبي زكريا القادري، وحين سأل زروق أستاذه الحضرمي عن أي طريقة يتبع لم يحظ منه بجواب قاطع [1]، وما نقرأه من إشارات وتلميحات دَوَّنَها شيخنا الحضرمي، فيما يتعلق بهذا الأمر يظهر لنا عدم رضاه بموقف أستاذه ومحاولته جاهداً إظهار النزعة الشاذلية فيه بقدر الإمكان [2].

إن نظرة إلى أسماء شيوخ مولانا زروق المباشرين من أهل التصوف ممن يذكرون عادة في سنده، ترينا اسمين آخرين لشيخين قادريين: أبومحمد عبدالله الزيتوني [3] راعى مولانا زروق في فاس، وأحمد بن زمام [4]. فكيف أمكن أن يعتبر مولانا زروق شاذلياً وأن تحتسب الزروقية في عداد فروع الطريقة الشاذلية إذن؟

للإجابة على هذا السؤال علينا ملاحظة أنه على الرغم من اعتبار القادرية والشاذلية طريقتين مستقلتين فإنهما لم تكونا منفصلتين تماماً عن بعضهما البعض في تعاليمهما وفي تطورهما التاريخي معاً [5]. ولو نظرنا إلى السلسلة الشاذلية مثلاً، لرأينا اتصالهما بالقادرية من خلال شعيب أبي مدين (توفي 495هـ/1165م) الذي تلقى العقد والتلقين على يدي عبدالقادر الجيلاني نفسه [6]. ويتصل أبو الحسن الشاذلي (توفي 656هـ/1285م) بشعيب أبي مدين عن طريق عبدالسلام بن مشيش (توفي 625هـ/1228م) وعبدالرحمن العطار الزيات من ناحية، وعن طريق محمد بن حرزهم (توفي 234هـ/1236م) وإلى محمد صالح بيصار (توفي 495هـ/1165م) من ناحية أخرى.

(1) مناقب الحضرمي،ص14 ويقول زروق أنه سأله مرة عن أي الطرق يتبع فأجابه بأنه لايعرف هذه المسائل وان أمه على كل حال تتصل بالشيخ أبي مدين شعيب، وأن النبي(ص) سماه(الرفاعي)حين رآه رجل في المنام يقول له:(قل لأحمد بن عقبة الرفاعي)ومن الدير بالذكر أن أبا مدين هو الصلة القادرية بالشاذلية في السلسلة(أنظراللوحة)ويعلق زروق على تسمية الحضرمي بـ(الرفاعي) بقوله: أن ذلك كان إما بسبب كونه (رفيع القدر في حاله) أوبسبب تطابق طريقته مع الطريقة الرفاعية، فزروق نفسه لم يكن يدري!.

(2) المصدر نفسه ص22، حيث يحاول زروق أرجاع أقوال الحضرمي إلى (حكم) ابن عطاء الله السكندري ويقارن بين أقوال الشيخين.

(3) التعرف ص 283، أنظر تحفة أهل الصديقية، ص 108.

(4) المصدر نفسه، وقارن: الكناش ص 664 – 665.

(5) المنهل الروي الرائق ص 77.

(6) المصدر نفسه.

لقد كان أهل الشاذلية – في الواقع – حريصين كل الحرص على ابقاء صلتهم بالقادرية في سلسلتهم التي تربطهم بالنبي صلى الله عليه وسلم عن طريق بن أبي طالب سندين لهذه السلسلة تنتهي كلتاهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق علي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين، تدعى إحداهما (طريقة الإرادة) تصل الشاذلي بابن مشيش حتى الحسن بن علي بن أبي طالب بدون عبدالقادر، وتسمى الأخرى (طريق التبرك) تصل الشاذلي بالحسين بن علي بن أبي طالب، مارة بابن مشيش – الزيات أبي مدين – فعبدالقادر الجيلاني [1]. وكما كان الشاذلي مسنداً عن طريقي (الإرادة) و (التبرك) فقد جاء سند مولانا زروق عن سبيلين: (طريق الأقطاب) وهو ما يساوي (طريق الإرادة) ثم (طريق الخرقة) وهو ما يعادل (طريق التبرك) [2]. ويأتي سند (طريق الأقطاب) الذي يربط مولانا زروقاً بالشاذلي كالآتي:

مولانا أحمد زروق، أحمد بن عقبة الحضرمي، أبو زكريا يحيى القادري، علي بن وفا القرشي، محمد بن وفا القرشي، دواد الباخلي، ابن عطاء الله السكندري، أبوالعباس المرسي، أبوالحسن الشاذلي، عبدالسلام بني مشيش، عبدالرحمن الزياتي المدني، تقي الدين الفقير، فخر الدين علي، أبوالحسن نورالدين، شمس الدين السواسي، أبوالحسن القرشي، زين الدين القزويني، إبراهيم البصري، أبومحمد المرواني، أحمد سعيد، أبومحمد سعد، فتح السعود، سعيد الغزواني، أبومحمد جابر، الحسن السبط، علي بن أبي طالب، النبي صلى الله عليه وسلم (3).

و(طريق الخرقة) الذي يربط مولانا زروقاً بعبدالقادر الجيلاني كالآتي: مولانا أحمد زروق، أحمد بن عقبة الحضرمي، أبو زكريا يحيى القادري، أبومسعود أحمد، أبوصالح نصر، عبدالرازق الجيلاني، عبدالقادرالجيلاني

(1) تحفة أهل الصديقية، ص 99.
(2) المصدر نفسه ص 98 – 99.
(3) المصدر نفسه ص 98 – 99: قارن السلسبيل المعين ص 108 – 109.

سعيد بن المبارك المخرمي، علي الهكاري، أبوفرج الطرسوسي، عبدالواحد التميمي، أبوبكر الشبلي، أبوالقاسم الجنيد، السري السقطي، معروف الكرخي، علي الرضا، موسى الكاظم، جعفر الصادق، محمد الباقر، علي زين العابدين، الحسين السبط، علي بن أبي طالب، النبي صلى الله عليه وسلم (1).

هل من الممكن الآن القول – طبقاً لما فات بأن شيخنا لم يكن لم يكن شاذلياً؟، والجواب نفي قاطع والسبب – ببساطة – يكمن في تراثه الصوفي ذاته، وفيه يتضح الأثر الضخم لأصول الشاذلية. وتعاليمها كما تعرضها مؤلفات ابن عطاء الله السكندري وأقوال أبي الحسن الشاذلي نفسه، غير أنه من الممكن الزعم بأن الشيخ تأثر أيضاً، ولو على سبيل جانبي، بآراء طرق صوفية أخرى – وفي مقدمتها القادرية، وكانت النتيجة مزيجاً من هذه الطرق في اطار الشاذلية، ابرزت ما عرف بعدئذ (بالطريقة الزروقية). وليس من العسير إدراك كيف استطاع مولانا زروق أن يتبنى مبادئ أخرى، بل شعائرها، وهو الشاذلي، حين نعرف أن الشاذلية لم تكن بحال منغلقة على نفسها كما لم يكن أتباعها أهل تعصب متزمت لأصولهم في مواجهة الطرق الأخرى، بل هم على العكس كانوا على تسامح كبير يفوق غيرهم ويسمح بهذا التداخل بين طريقتهم وما عداها من الطرق (2). وهذا ما جعل شيخنا على صلة بخمس من الطرق الصوفية غير الشاذلية والقادرية، اثنتان منها فرعان من الشاذلية وثلاث لا علاقة لها بها على الاطلاق، فالاوليان هما (الوفائية) من خلال الحضرمي ويحيى القادري، و(الجزولية) على يد مؤسسها أبي محمد سليمان الجزولي، والثلاث الباقيات هي: (السهروردية) عن طريق محمد الزواوي المدني، و(الجشتية) من خلال أحمد بن عروس،

(1) تحفة أهل الصديقية ص 104 – 105.
(2) أنظر الكناش ص 62 – 65 وقارن
G Colin Sayyidi Ahmad Zarruq. Revista di Tripolitania, p 32

وأخيراً: (العروسية) من خلال مؤسسها ابن عروس وتلميذه أبي إسحاق إبراهيم الزواوي (1).

وكما رأينا من قبل رفض أستاذ مولانا زروق أحمد بن عقبة الحضرمي التصريح له أي الطرق يتبع؟، فإن مما له دلالته الخاصة أن نجد شيخنا يرفض هو الآخر هذا التصريح، وإن

كان المفهوم ضمناً أنه شاذلي الطريقة، ومما له مغزاه أيضاً ألا يدون في (كناشة) من سنده سوى ما يربطه بالطريقة (السهروردية) متناسياً ما عداها، ومن المدهش حقاً أن يتخير من بين الطرق جميعاً هذه الطريقة بعينها ليتخذها نهجاً في التلقين وفي الذكر عند تنسيب أحد من المريدين وانخراطه في سلك (الزروقية) ويمكننا أن نستخلص من هذا أن الشيخ ربما تعمد ما فعل إشارة إلى (استقلاله) عن أي طريقة سابقة بذاتها وعدم تحديد تابعيته لها – بالطبع – يحرره من الارتباط ويتيح له المجال كي ينشيء طريقته الخاصة وينشر تعاليمه، مستعيناً بمصادر مختلفة ومؤيداً بعلاقات عدة بمن سبقه من شيوخ الطرق والتصوف. ويصبح هذا الرأي أكثر قبولاً حين تقرأ في إحدى وصايا مولانا زروق دفاعه الحار عن تنوع الطرق إلى الله ودفعه السالك المتعثر في طريق ما، لصعوبته مثلاً وعدم تحمله متطلباته، أن يسلك طريقاً آخر يجده أسهل وأيسر بحسب ما لديه من استعداد طبيعي وقابلية فطرية [2] ... ولا يستغرب هذا الموقف من شيخ يرمي إلى إنشاء طريقة تحمل اسمه كما تحمل تعاليمه وأفكاره ومذهبه، وثمة في تاريخ التصوف أمثلة عديدة له [3]. ومهما كان الأمر، وعلى الرغم مما سبق الحديث عنه فإن مولانا زروقاً عد على الدوام حلقة من السلسلة الشاذلية، وعلى هذا الأساس نشأت طريقته وانتشرت في الآفاق.

(1) تحفة أهل الصديقية ص 98 – 99 ، 104 – 105، المنهل الروي ص 79، الكناش ص 74 – 76.
(2) وصية – مخطوط القومية بالقاهرة – 550/ تصوف ص 3.
(3) يرجع محمد بن علي السنوسي مثلاً سنده إلى جميع الطرق المعروفة في تاريخ التصوف تقريباً، أنظر (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين) و (المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق).

إنشاء وتطور الطريقة الزروقية:

يبدو لنا هنا سؤال مهم لابد من الإجابة عليه: هل كان مولانا زروق ينوي فعلاً إنشاء طريقة صوفية؟ فإن كان الأمر كذلك، ما هي الخطوات التي أتخذها في هذا السبيل؟

إن رفضه القاطع أن يبني زاوية له حين رجاه خادمه أن يفعل [1]، قد يشير إلى عزوفه عن إتباع مثل شيوخ سبقوه، ويدل بالتالي على أنه لم يكن يرغب في أن تكون له طريقة خاصة به، غير أن جوابه عن سؤال خادمه يحمل في طياته شعوراً بشخصيته وذاته وإحساساً مراً بأنه جحد مكانته الحقة اللائقة به، ورغبة في أن يدع للأجيال القادمة مهمة تقديره وتكريمه. وتقرأ في السؤال – قبل الجواب – أن الشيخ كان ذا حظوة واحترام بين من عرفوه واتصلوا به أو سمعوا عنه، وان صيته كان قد انتشر وذاع، إذ لو لم يكن هذا ما حدث فإنه لا مبرر لأن يطلب إليه بناء زاوية يحج إليها القاصدون.

ونستطيع أن نستخلص من بقايا رسائله ونتف وصاياه التي كان يبعث بها إلى تلاميذه وأصدقائه ومريديه، أن الشيخ لم يستبعد عن ذهنه فكرة تأسيس طريقة مستقلة، رغم ما يبدو من حذره وتردده في هذا السبيل. ومما يؤسف له أن نقص المعلومات وضياع أغلب رسائله إلى أتباعه وما عمل الزمان في تراثه، تدفعنا إلى الظن والتخمين أكثر من الحكم الجازم فيما يتعلق بإنشاء الطريقة الزروقية وتطورها، كما تجدر الإشارة إلى أن عبء إنشاء هذه الطريقة وقع على كاهل إتباع مولانا زروق دونه هو ذاته، ربما لوفاته المبكرة أو لما لاقاه من مصاعب في أثناء حياته صرفته عن الاهتمام بالعمل الجدي لهذه الغاية، وقبل أن نمضي في تتبع تاريخ الطريقة الزروقية يبدو من الضروري لنا أن نستعيد بدايتها الأولى ونشاط مؤسسها وما قام به مما سبق عرضه بتركيز وإيجاز.

(1) رحلة العياش ص 97.

بدأت صلة مولانا زروق – كما علمنا – بالتصوف والطرق الصوفية عندما كان في العشرينات من عمره حين لم يغادر المغرب بعد، حيث خدم الفقراء في زاوية (بوقطوط) تحت رعاية أستاذه الزيتوني وأساتذة آخرين غيره، وحين بلغ الثامنة والعشرين خرج للحج وأقام بالقاهرة فترة من الزمان، وفي مكة كما في القاهرة خالط شيوخ الصوفية من الطرق المختلفة التي كانت تعج بها هذه البلاد، فعل الشيء نفسه في بجاية وتونس وطرابلس الغرب حين كان في طريقه من وإلى الأرض المقدسة. وكان الرجل صاحب الأثر الأكبر عليه هو احمد بن عقبة الحضرمي الذي اتخذه تلميذاً ومبعوثاً له في شمال إفريقيا حتى توفي الحضرمي عام 598هـ/1498م، يوم أن كان مولانا زروق يعيش في مصراته مستقره الأخير.

من هذا العرض الموجز نستطيع أن نتجاوز قسماً كبيراً من حياة الشيخ كان في أثنائه تابعاً للحضرمي وتحت تأثيره، ثم نشغل أنفسنا بالسنوات العشر الأخيرة من حياته التي استقل خلالها عن أستاذه وزعيمه [1]، وصار هو نفسه شخصية معروفة وزعيماً صوفياً مشهوراً ولعل هذه الفترة الخصبة من نشاطه هي التي شهدت انتساب العدد الوفير من الأتباع والمريدين إلى (الزروقية) في المنطقة الواسعة الممتدة من مكة شرقاً إلى بجاية في الغرب كما قيل، وكان ينشر فيها طريقته بالاتصال الشخصي المباشر أو بالمراسلة والمكاتبة على حد سواء. فلنبدأ الآن في ملاحقة حركة شيخنا ولنحاول التعرف على أثره فيما زار من مواطن ومن لقي من الناس.

---

(1) لم نعثر من جملة رسائل مولانا زروق إلى الحضرمي إلا على رسالة واحدة (التعريف ص 280 – 281) مؤرخة في سنة 886هـ/ 1481م بعد استقراره بمصراته، ويتضح من هذه الرسالة أنه كان لا يزال يعتبر نفسه تلميذا له ومريداً، ويبدو أن الصلة انقطعت بين الرجلين بعد ذلك، فلا ذكر لاجتماعهما بعد هذا التاريخ أو تراسلهما، ومن المدهش حقاً أن مولانا زروق مر بالقاهرة عام 894هـ / 1489م ولم يشر إلى لقائه بأستاذه الذي كان لا يزال حياً يومئذ.

في القاهرة:

كانت القاهرة محط رحال المغادرين إلى الحج والقادمين منه، وكان جامعها الأزهر مقصد العلماء والتلاميذ، فيه يعلّمون مختلف فروع المعرفة الإسلامية والإنسانية على حد سواء، وكان من نظام الأزهر ولا يزال أن يخصص قسماً من بنائه ملحقاً به يعيش فيه القادمون إليه من جميع أنحاء العالم يسمى (الرواق) يضم – في العادة – أهل ناحية ما أو مذهب معين ينسب الرواق إليها. وكان (رواق المغاربة) أحد الأروقة المهمة المزدحمة الكثيرة الحركة والنشاط، ومن المرجح أن شيخنا عاش في هذا الرواق منذ وصوله القاهرة لأول مرة وفي أثناء زياراته لها، إذ ليس ثمة ذكر لموقع سكنه وعيشه في القاهرة غير الأزهر [1].

كان مولانا زروق في خلال زياراته الأولى والثانية للقاهرة منهمكاً في تلقي العلم ومتابعة الدرس على أيدي شيوخه والاستفادة من أهل الفقه والتصوف معاً، ولم يكن قد عُرف بعد وذاع صيته، لكن الأمر اختلف فيما يلوح عند زيارته الثالثة عام 884هـ/(1479م)، ثم الرابعة بعد ذلك بعشر سنوات، يوم قام بحجته الأخيرة. ويصف لنا مؤلف (طبقات الشاذلية الكبرى) كيف استقبل يومذاك فيقول: (لما قدم مصر وسمعت بقدومه العلماء والفضلاء من أهلها، وفدوا عليه ومثلوا بين يديه، وكان يحضر دروسه في الأزهر الشريف زهاء ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة وأحوازها. وتولى إمامة المالكية وصار أستاذ رواقهم ونصبوا له كرسياً عالي

الأركان بديع الإتقان صار يجلس عليه للإفادة ، وهذا الكرسي موجود إلى وقتنا هذا برواق السادة المغاربة بالأزهر الشريف.

(1) أنظر الصفحة الأخيرة من كتابه (النصيحة الكافية) مخطوط الرباط 2/507د حيث يذكر أنه ألفه في رواق الريافة (نسبة إلى الريف بالمغرب فيما نرجح) بالأزهر عام 877هـ/1472م، ويبدو أن الأزهر كان في تلك الأيام مركزاً صوفياً نشطاً حسبما يرويه المقريزي في (خططه) من أن الأزهر كان مفتوحاً لأهل التصوف وأن الأذكار كانت تقام به، وهو يستعمل كلمة (الرواق) كمرادف لكلمة (الرباط) الصوفية.

وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين والقبول التام الخاص منهم والعام [1]).

هذه الرواية عن حسن استقبال مولانا زروق وتقدير مكانته يؤيدها ما يحكيه أستاذه الفقيه أبوعبدالله السخاوي عنه من أنه (صار له أتباع ومحبُّون [2])، ويزكيها ما يدونه الشيخ نفسه عن شرحه (حكم ابن عطاء الله السكندري) في القاهرة، وكيف أن هذا الشرح كان يدرس تحت إشرافه [3]. وعلى كل حال فإنه من الجائز الافتراض بأن شيخنا كان في أثناء تدريسه الفقه بالأزهر على صلة بأتباع الصوفية، عاملاً على تنسيب عدد من المريدين إلى طريقته ومن جملة هؤلاء المريدين رجال معروفون مشهورون مثل: عبدالوهاب الشعراني، وشهاب الدين أبوالعباس القسطلاني وشمس الدين اللقاني وأخوه ناصر الدين [4] وغيرهم، وقد بلغ تأثير مولانا زروق على الأخيرين أنهما تركا بلدهما وهاجرا منها ليتبعا الشيخ ويعيشا معه في مصراته حتى يوم وفاته.

في مكة:

لا يعرف شيء عن نشاط مولانا زروق في مكة خلا ما يذكر من انه قابل تلميذه أبا الحسن البكري هناك حيث لقّنه ونسّبه في طريقته، وربما في أثناء حجته الأخيرة عام 894هـ/ 1489م، وكان البكري من أهل مصر وهو مؤسس الطريقة البكرية الزروقية [5].

(1) طبقات الشاذلية ص 123، وفي عام 1965م عثر على بعض مخلفات مولانا زروق في (رواق المغاربة) ونشرت الصحف الخبر (أنظر مجلة الرسالة القاهرة/25يوليو 1965 ص 35 – 36) وكانت عبارة عن سبحة ذات حبات كبيرة الحجم ونسخة من القرآن الكريم مكتوبة بخط كوفي قديم قيل أنها إحدى النسخ التي بعث بها عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الأقطار المفتوحة لإعتمادها، وقد أراني شيخ رواق المغاربة يومها (الشيخ أحمد محمد الكميشي) كلا من السبحة والنسخة وحاولت تتبع مصير الاثنتين فلم أفلح وقد شاع أن النسخة اهديت لملك ليبيا السابق – إدريس السنوسي – ولا يعرف ما حل بها.

(2) الضوء اللامع ص 222.

(3) شرح الحكم الحادي عشر/ مخطوط القاهرة 665/ تصوف ص 200.

(4) شرح النور الزكية، ص 267.

(5) تحفة الصديقية ص 46 ، التصوف في مصر ص 90 – 97.

في الجزائر:

كانت بجاية –كما سبقت الإشارة من قبل – في الجزائر هي مركز نشاط زروق يوم كان تابعاً لأحمد الحضرمي وهو في الثلاثينات والأربعينات من عمره، وكانت بجاية هي أيضاً مقصده يوم صار يدعو لطريقته. وفي هذه البلدة أو أحوازها، خلال عام 892هـ/1478م على وجه التقريب جمع من حوله الأصحاب والمريدين ولقنهم ونسبهم إليه [1]، ومن المؤكد أنه زار الجزائر (العاصمة) وموقعاً يدعى (تموقر) [2] كذلك، وهناك نسب الكثيرين من بينهم: عبدالعزيز القسنطيني، طاهر بن زيان القسنطيني، وشيخ الطريقة المشهور أبوالعباس أحمد بن يوسف الراشدي [3] وكان الأخير تلميذاً قريباً من مولانا زروق، وعن طريقه وجدت (الزروقية) سبيلها إلى طرق أخرى ومارست تأثيرها في غيره من أهل التصوف.

أما في المغرب: بمعناه الجغرافي الحالي – فإن ما قوبل به شيخنا من صعاب حتى أضطر إلى الهجرة من مسقط رأسه (فاس) والعيش في مكان آخر، لم يمنعه من اجتذاب عدد من الأتباع الذين نشروا طريقته فيما بعد وحفظوا أصولها ضمن طرقهم الخاصة، ويذكر المهدي الفاسي في كتابه (تحفة أهل الصديقية) من بين هؤلاء الأتباع: أبوالقاسم الزرهوني، عبدالملك بن سعيد، عبدالله المغراوي، محمد موسى بن أيوب، محمد السرسوري، محمد السلاوي، أبو محمد عبدالعزيز، عبدالله المدغري، إبراهيم الفحام (أو الحجام [4]).

---

(1) المقصد الأسمى، مخطوط الرباط 952/د ص 122، ق/ ص 510.
(2) موقع عند (بني عبدل) في أنحاء بجاية ألف مولانا زروق فيه كتابه (الجامع لجمل من الفوائد والمنافع) بجامع سيدي يحيى بن محمد العبدلي، أنظر نهاية (الجامع) مخطوط حسن حسني عبدالوهاب/ تونس 18036.
(3) تحفة أهل الصديقية ص 45 – 46، نيل الابتهاج ص 130.
(4) تحفة أهل الصديقية ص 45 وما بعدها.

في طرابلس:

يبدو جلياً أن الشيخ كان قبل مجيئه إلى مصراته واستقراره بها، على صلة ومحبة ببعض أهل طرابلس من العلماء والفقهاء مثل: أبي محمد محمد علي الخروبي الطرابلسي الذي صار ابنه أبوعبد محمد الخروبي، احد تلاميذ مولانا زروق المقربين وثمة أيضاً محمد بن عبدالرحمن الخطاب الرعيني وابنه بركات، من أسرة الحطاب المعروفة بالعلم، وكلاهما تلقى العقد منه ويعتبر من أتباعه المباشرين [1].

في مصراته:

حطت الرحال بمولانا زروق في هذه البلدة بعد طول تطواف، وسكن إليها وعاش بها منذ عام 886هـ/1481م، حسب المصادر التي بين أيدينا، وكان اختياره للموقع موفقاً لا بسبب تقبل المنطقة ذاتها لطريقته ونشرها بين أهلها فحسب، بل لأن الموقع ذاته مكّنه من أن يصبح على طريق قوافل الحجاج المهم في آخر توقف لهذه القوافل قبل دخولها الصحراء الشاسعة الخطيرة في طريق الحج الفاصلة بين مصراته والجبل الأخضر [2]، وكان الحجاج الأتقياء يأتون إليه قاصدين بركته راجين دعواته وهم في طريقهم إلى مكة، وكان طبيعياً أن يتلقوا منه العهد والتلقين وان ينتسبوا إلى طريقته[3]. وهكذا انتشرت (الزروقية) وازدهرت في أثناء حياة شيخها وصار عدد أتباعها يزداد يوماً بعد يوم في ذلك المناخ الطيب المشبع بإحترام الشيخ وحبه والتحلق من حوله وتقبل تعاليمه وقبول نصائحه وإرشاداته، غير أننا هنا أيضاً – للأسف – نفتقر إلى المصادر والمعلومات، إذ لا يقدم لنا مؤرخو مولانا زروق عن هذه الفترة المهمة في حياته شيئاً سوى بعض أسماء من أهل مصراته وما حولها مثل صديقه الحميم أبي زعامة، وخادمه المقرب أحمد بن عبدالرحيم، وتلميذه محمد البرموني وأبي العباس أحمد بن غلبون [4].

(1) المصدر نفسه.
(2) Coln; Sayyidi Ahmad Zarruq. P30 P30
(3) المصدر نفسه، أنظر: رحلة العياش ص 98.
(4) رحلة العياش ص 97/ تحفة أهل الصديقية ص 45 وما بعدها.

ويظهر أن شيخنا لم يكتف بالدائرة الضيقة نسبياً مع من حوله من الأتباع في مصراته، بل حرص على أبقاء صلته بمريديه البعيدين عنه بعد استقراره فيها، وكان يقوم بزيارتهم كلما مر

بها، كما كان يكاتبهم ويبعث إليهم برسائله متضمنة توجيهه ونصحه. وهذا ما يتضح لنا من رسالة بعث بها إلى خليفتين له في المغرب طلباً السماح لبعض المريدين بالانخراط في سلك الطريقة فنقرأ: "من العبد الفقير إلى رحمة ربه أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي، الشهير بزروق أصلح الله حاله، إلى سادات الفقراء الأحباب في الله تعالى، عبدالله المغراوي – كان الله له في الدنيا والآخرة – وحبيبه في الله تعالى الفقير عبدالملك بن سعيد – أسعده الله تعالى بمرضاته ونور قلبه وكفاه شر نفسه، ثم سائر الأخوان لمن أراد الدخول في دائرة الأصحاب والأحباب، فقد بلغنا منكم كتاب يتضمن كمال الوداد وحسن الظن وجميل الاعتقاد، فيه أشواقكم إلينا وانعطافكم بكافة الهمة علينا... ويا أخي طلبتم مني إدخال فلان وفلان في الدائرة، وليس ذلك لي ولا باختيار نفسي العاصية ... ولكن قل لهم: عليكم باللجوء إلى الله في مقصدكم.

وما ذكرت لكم هو طريقتي والسنة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمل بها حتى لقي الله تعالى... والزيادة لا أحبها والنقص لا أريده.

"هذا خاص بك يا عبدالملك، وأنا أكتب لك الوظيفة التي استعملت فإن تيسر لكم فقوموا بها في زواياكم، فإنها مأخوذة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[(1)].

ونقرأ في رسالة أخرى كتبها رداً على أبي الخير عبد النبي الأصفر: "من عبيد الله الفقير تولاه الله بإحسانه في الدنيا والآخرة، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد:

"فقد بلغنا كتابكم وتعرفنا ما به، جزاكم الله عنا وعن أنفسكم

(1) مخطوطات تونس 2327 – ورقات 4 – 6، حسني 18/1 ونسخة خاصة بآل المغراوي في مصراته تحفظها الأسرة باعتبارها الأصل بخط الشيخ زروق نفسه.

خيراً، وأعلم – يا أخي – أن الدنيا دار الله، والخلق فيها مسلطون ومسخرون حسبما اقتضاه التصريف الإلهي والحكم الرباني، فكن بالله واثقاً وبغيره بكنه الله مفارقاً... وقد أقام الله – والحمد لله – في قلوب الخلق هيبتك وألزمهم وجود حرمتك فاشكر الله على أن السمين من قوي قلبه بالله والهزيل من خلت أوقاته من العز بالله.. والسلام عليكم التام وعلى أهلكم ومن يعلق بكم والسلام [(1)].

ويبدو أن نتيجة مواصلة مولانا زروق لأتباعه القاصين هي التي جعلت بعضهم يفضل ترك بلده والقدوم إلى مصراته، حيث يعيش الشيخ، ليكون على قرب منه أكثر. فقد جاء من (بجاية) أبو علي منصور بن أحمد البجائي الذي صاحب الشيخ حتى وفاته ثم بنى بإحدى زوجتيه من بعد [(2)] فلما توفي منصور دفن بجانب شيخه وقبره هو الوحيد في الروضة، ومن المغرب الأقصى لحق به أبوعبدالله محمد المغراوي المذكور آنفاً والذي لا تزال أسرته تعيش في مصراته حتى اليوم، ومن مصر قدم شمس الدين اللقاني وأخوه ناصر الدين، وكان شمس الدين هو خليفة مولانا زروق بعد موته والقائم على شئون طريقته[(3)] وبعد مدة من الزمان غادر شمس الدين اللقاني مصراته وعاد إلى قريته (لقانه) من قرى مصر، حيث لم تنقطع به صلة أتباعه من أهل مصراته الذين كانوا يزورونه بين الحين والآخر[(4)] ولا شيء بعد هذا نعرفه عن (الزروقية) كطريقة ذات تنظيم خاص في مصراته فيما عدا ما يذكر من قراءة (الوظيفة) في زاويته التي بنيت بعد وفاته بعشرين عاماً حين انتشر ذكره وذاع صيته.

---

(1) نسخة خاصة ملك الأستاذ علي مصطفى المصراتي وعلى هامش الرسالة: (قال مقيدها رحمه الله: نقلت هذا من نسخة فيها بعض تحريف لأن الناقل ليس من أهل هذا الشأن، فنقلناه على مافيه ببركته). والفقرات المحذوفة نصائح وتوجيهات صوفية عامة.

(2) رحلة العياش ص 98.

(3) تنقيح روض الأزهار ص 244.
(4) نيل الابتهاج ص 226.

ولعل عبدالرحيم خادم مولانا زروق وباني الزاوية هو الذي تسلم قيادة الطريقة بعد رحيل اللقاني، وهذا مجرد افتراض لا يؤيده دليل ملموس أو نص مكتوب.

وكيفما كان الأمر فإن جماعة من الفقراء تكونت حول ضريح مولانا زروق ثم زاويته بعد ذلك لرعايتهما وتستقبل حجاج البيت الحرام وتودعهم كما تستقبل زوار مدفن الشيخ وتخدمهم، ولذا سمّوا (خدام الزروق) [1] وقد شكلت ذريتهم إحدى قبائل منطقة مصراته الشرقية، وهاجر بعضهم إلى بنغازي حيث استقروا كطائفة معروفة[2] .

ويخطر لنا سؤال الآن – ونحن نبحث تاريخ (الزروقية) ونرى قلة انتشارها – هو: لماذا أخفقت هذه الطريقة في اجتذاب العدد الوفير من الناس كما هو الحال بالنسبة لطرق أخرى حين نقارنها بغيرها؟ ولم كانت مقصورة؟ (الزروقية) كطريقة مستقلة على بعض المناطق وعلى قلة من الأتباع؟ فالواقع أن الزروقية كطريقة ذات تنظيم خاص لم تعرف على نطاق واسع من التجمعات الأخوانية. وهي تعتبر في الأغلب حلقة من سلسلة في طرق أخرى، مجرد رابطة وصلة أو مصدر لمجموعة من الطرق التي تفرعت منها وفاقتها شهرة وانتشاراً، وهذه علة الصعوبة في تتبع (الزروقية) وتطورها والنظر في تأثيرها على المجتمع الإسلامي في مختلف أقطار الإسلام.

إننا نفقد الخيط تماماً في بحثنا عن تاريخ (الزروقية) بعد ما ذكر فيما سبق، حتى نصل إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ونجد ذكرها طريقة مستقلة لدى محمد بن علي السنوسي [3] لكننا لا نستفيد منه أية تفصيلات جديدة تهمنا سوى بعض سند لمولانا زروق وتحديدها بأنها طريقة مغربية[4] .

(1) طبقات الشاذلية ص 124.
(2) محمد بازمة، بنغازي عبر التاريخ ص 255 – 299.
(3) المنهل الروي ص 78.
(4) المصدر نفسه ص 104.

وفي نهاية القرن نفسه نعثر على بقايا الطريقة في الجزائر (العاصمة) وقسنطية ومواقع (برواقية) و(تابلات) و(أومال) و(مسكيانة) في بلاد الجزائر[1].

كما نعرف أن قبائل زكاوة وهوارة كانتا تحسبان من جملة (خدام مولانا زروق) في المغرب الأقصى [2] ولكي نجيب عن سؤالنا الذي أثرناه نجد من المناسب تسجيل ملاحظة الباحثين الفرنسيين (يبو وكابولاني) عن شيخنا زروق، إذ يقولان:

(على الرغم من ذيوع صيت مولانا زروق ولياً وعالماً، فإن أتباعه الذين انضموا تحت لوائه لم يكونوا سوى بدايات لطرق صوفية أخرى، وقد ظلت تعاليمه في بطون الكتب والأسفار، ولم تجد سبيلاً للتأثير على عامة الناس الذين اكتفوا بفكرة قائمة عن مؤلف هذه الكتب والأسفار [3]).

هذه الملاحظة ذاتها هي التي يراها أيضاً الباحث الفرنسي (ج كولان) في مقالته عن زروق حيث يقول:

(لقد كانت تعاليم مولانا زروق الصوفية أرقى مستوى ولعلها أنقى وأصفى من أن تصادف نجاحاً بين عامة الجمهور، وهذا ما جعل هذه التعاليم غير قادرة على تجاوز الدائرة الضيقة لأتباعه وتلاميذه المباشرين في أثناء حياته [4]).

وكل هذا – في الحق – صحيح إذ لم يكن شيخنا بحال من جملة أولئك (المرابطين) الذين يعتمدون في اجتذاب الجمهور على الخوارق والكرامات، بل كان على العكس من ذلك تماماً ضد مدعي الصوفية وسيفاً مصلتاً عليهم وكثيراً ما سلكهم في عداد المفسدين في الأرض المسيئين للتصوف

(1) Les Confereries… p. 213, 549 ويقول المؤلفان أن عدد الأخوان التابعين للزروقية عام 1897م كانت جملتهم بالجزائر 2734 رجلاً.
(2) المصدر نفسه ص459.
(3) المصدر نفسه ص 458 – 459.
(4) Sayyidi Ahmad Zarruq, p. 33

ومعناه والسبب المباشر في تدهوره وانحداره، وكان علمه الغزير وفهمه الواعي لروح الصوفية ورسالتها الحقيقية يجعلان من مؤلفاته شيئاً بعيداً لا يمكن للعامة أن تدركه رغم محاولته تبسيط تعاليم تلك المؤلفات وتيسير مفهومات التصوف على وجه التعميم. ولم يكن لطريقة متنورة كالزروقية، في تلك الأيام المعتمة من تاريخ الحضارة الإسلامية – أن تستمر بنقائها وصفاء جوهره، وهي ربما كانت طريقة الخاصة من الناس، أما عامتهم فلهم طرق أخرى تتفق مع ميولهم وأهوائهم ومستوى إدراكهم العقلي والروحي على حد سواء، ولنا هنا أن نقدم مثلين واضحين لما نذهب إليه لشخصين قريبين من الشيخ كل القرب، الأول هو عبدالسلام الأسمر الفيتوري والثاني هو احمد بن يوسف الراشدي.

كان عبدالسلام الأسمر[1] أصلاً من قبيلة (الفواتير) بزليتن، وهي بلدة من أعمال طرابلس ذات تاريخ طويل في عالم التصوف والصوفية، ولد عام 880هـ/1475م وقد تتلمذ على يد مولانا زروق فترة من الزمن ثم تحول عنه إلى بعض شيوخ الصوفية الآخرين وأصبح من أتباع الطريقة (العروسية)، ثم أسس طريقته الخاصة (السلامية) التي ازدهرت في أثناء حياته ازدهاراً كبيراً وتمتعت بسلطة مطلقة وكانت لها اليد العليا على الطرق الأخرى في المنطقة وقوة عظمى في مناطق أخرى، وأصبح الأسمر بهذا (سيد ليبيا) كما يقول (ديبو وكاولاني) وكان تأثيره الكبير جداً على أتباعه فوق ما يمكن تصوره [2]. وقد حدث هذا كله لأن الأسمر أخذ من التصوف ما كانت العامة تفهمه منه وتتطلع إليه، فتحول تساميه الروحي إلى ضرب من البهلوانية والشعوذة واختلاق الكرامات والخوارق والمعجزات ونسبتها إليه، ودغدغة مشاعر جماعته بالدفوف والمزامير. كان الأسمر – باختصار –

(1) لمزيد من المعلومات عن عبدالسلام الأسمر أنظر: محمد بن مخلوف، تنقيح روضة الأزهار، الطيب المصراتي، فتح العلي الأكبر، عبدالسلام بن عثمان، فتح العليم …Depont Cappolani; Les Confreies(ارجع لثبت المراجع لمعلومات أوفى عن هذه المصادر).
(2) Les Confreies.. p 34

ظاهرة (خارقة للعادة) في حد ذاته أكثر منه صوفياً ورغم هذا فقد أستطاع أن يحجب غيره من المتصوفة والصوفيين في أثناء حياته وبعد مماته – بمن فيهم مولانا زروق نفسه – . ولعل في ظهور الأسمر على المسرح في بداية تأسيس (الزروقية) ما أثر على تطورها ونموها وكان عاملاً معرقلاً لهذا النمو.

وكما كان الأسمر كذلك كان أبوالعباس أحمد بن يوسف الراشدي أحد أتباع مولانا زروق فبعد مقابلتهما الأولى في (بجاية [1]) من بلاد الجزائر عاد مولانا زروق إلى (مصراته) في حين تحرك الراشدي إلى غرب الجزائر حيث طفق ينشر تعاليمه بين العامة مستعيناً بقدراته على مخاطبة أحاسيسهم بمشعوذات الجذب والشطح مما كان بسطاء الناس يلقونه بالترحيب

والإكبار[2]. وكان النجاح الذي لقيه الراشدي بين الجمهور في الجزائر والمغرب الأقصى لا يوازيه سوى النجاح الذي حققه الأسمر في ليبيا وتونس، ومما له مغزاه الكبير أن تلمس هنا تحول الراشدي (أو لنقل انحرافه) عن تعاليم أستاذه مولانا زروق الذي لقنه وأخذ منه العهد وكان طبيعياً ممن يبحث عن الظهور بين الناس وجذب أكبر عدد من الأتباع والمريدين، ومن هنا نرى أن الراشدي كان يعمل في اتجاهين أحدهما للخاصة وأهل العلم ويتبع فيه منهج زروق وطريقته، والآخر للعامة ينشر فيه مبادئه وأفكاره ويزاول وسيلة اتصاله السهلة بالجمهور، وهذا ما يفسر لنا كون الراشدي يحسب دائماً على رأس طريقتين اثنين لا طريقة واحدة تنسب إليه – كما هي العادة: الطريقة (الزروقية – الراشدية) والطريقة (الراشدية) أو (اليوسفية) [3].

(1) ويذكر كولان في مقالته عن مولانا أحمد زروق وصلته بالراشدي الحكاية التالية: (بينما كان الراشدي مع شيخه في بجاية أحضر رجل إلى مولانا زروق من زوجته التي كانت مقيمة بفاس يومها أربعة أرغفة ساخنة خرجت من الفرن لتوها فأعطى الشيخ ثلاثة أرغفة وأعطى الرغيف الرابع لتلميذه المقرب لينقل إليه البركة).

(2) G. Colin; Sayyidi Ahmad Zarruq, p. 33

(3) السنوسي، المنهل الروي الرائق ص 77 – 78.

فروع الزروقية:

على الرغم مما سبق ذكره عن (الزروقية) كطريقة مستقلة وانحصارها في بعض المناطق بحكم الظروف التاريخية والاجتماعية، فقد استطاعت مبادئها أن تصارع عوامل الفناء وتنتشر، وكما الإشارة أيضاً فقد وقع عبء هذه الأصول وإذاعتها على كاهل تلامذة مولانا زروق المباشرين ممن كان له بهم اتصال، وكان أن نشأت طرق صوفية أخرى تعتبر فروعاً للزروقية وامتداداً لها، ولا نعني بهذه الفروع تلك الشعب التي انبثقت عن الطريقة الأم مباشرة فحسب، بل كذلك تلك التي ترتبط معها عن طريق السند والسلسلة مما يفيد الصلة بها والانتساب إليها، لكنه – في الوقت نفسه – لا يعني هيمنة أصول (الزروقية) هيمنة كاملة على هذه الطرق الفرعية وإلا لاعتبرناها مجرد امتداد لها غير منفصلة عنها – وهذا ما لم يكن بحال، بل هو الانتساب إلى الطريقة.

الذي يتضح في إتباع بعض أصولها التلقين أو الذكر، أو حتى اعتبار (وظيفة) مولانا زروق جزءً من أورادها اليومية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن جميع هذه الطرق المتفرعة عن (الزروقية) تنتظم في سلك الطريقة الشاذلية وتنسب إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي من خلال مولانا أحمد زروق[1]. وفيما يلي قائمة بفروع الزروقية مع بعض التفصيلات عن مؤسسيها وصلتهم بزروق وموقع هذه الفروع:

1-البكرية الزروقية:

أنشأها أبو الحسن البكري (توفي 909هـ/1503م) في مصر بعد أن اخذ العهد عن مولانا زروق في مكة، واستمرت في النمو ولعبت دوراً مهماً في تاريخ مصر وبخاصة عند الغزو الفرنسي لها. وحين أدخل (نابليون بونابرت) تغيراته الاجتماعية المعروفة في مصر جعل البكرية على رأس الطوائف

(1) في تجميع هذه المادة كانت المراجع: تحفة أهل الصديقية، المنهل الروي، السلسبيل المعين، رحلة إلى الحق.
Les Conreries Religiuses 'The Sufi Orders in Islam' A Moslem saint of the Twentieth Century 'Marabouts et Khouan.

الصوفية هناك.

السلسلة: أبو الحسن البكري ، مولانا احمد زروق.
الموقع: مصر.

2-العيساوية:

أنشأها محمد بن عيسى المكناسي (توفي 930هـ/ 1525م).
السلسلة: محمد بن عيسى: محمد الحارثي، مولانا أحمد زروق.
الموقع: المغرب الأقصى، الجزائر، تونس، ليبيا.

3-الراشدية – الزروقية:

أنشأها أحمد بن يوسف الملياني الراشدي (توفي 931هـ/1524م) الذي لقنه مولانا زروق في (بجاية) وهي توأم الطريقة الراشدية اليوسفية التي أنشأها أحمد بن يوسف.
السلسلة: أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.
الموقع: المغرب الأقصى، الجزائر.

4-الغازية:

أنشأها أبو الحسن قاسم (أو أبوالقاسم) الغازي (توفي 932هـ/1526م).
السلسلة: قاسم الغازي، أبوسالم التازي وعلي الفيلالي، أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.
الموقع: المغرب الأقصى، الجزائر.

5-السهلية:

أنشأها محمد بن محمد الرحمن السهيلي (توفي 639هـ/0351م) الذي كان أصله – طبقاً لبعض الروايات – من ينبع على البحر الأحمر، وجاء إلى المغرب حيث قابل الراشدي ثم ذهب للخلوة في جبل (سهيل) فنسب إليه.
السلسلة: محمد السهيلي، أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.
الموقع: المغرب، الجزائر.

6-الكرزازية:

أنشأها أحمد بن موسى (توفي 1018هـ/ 1610م) ولد بكرزاز في المغرب وسمي بمكان مولده، وتسمى هذه الطريقة (الأحمدية) أحياناً.
السلسلة: أحمد بن موسى، محمد السهيلي، أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.

7-الشيخية:

أنشأها الشيخ عبدالقادر بن محمد (توفي 1022هـ/1615م).
السلسلة: الشيخ عبدالقادر بن محمد، محمد السهيلي، أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.
الموقع: المغرب، الجزائر.

8-الناصرية:

أنشأها محمد بن ناصر الدرعي (توفي 1079هـ/1669م) ومركزها تمغوت في وادي درعة.
السلسلة: محمد بن ناصر، عبدالله بن حسن، علي بن عبدالله، أحمد الدردعي، قاسم الغازي، أبوسالم التازي، أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.

الموقع: المغرب، الجزائر.

9-الزياتية:

أنشأها محمد بن عبدالرحمن بن أبي الزيات (توفي 1145هـ/1733م).

السلسلة: محمد بن أبي الزيات، محمد بن مبارك، عبدالعزيز السجلماسي، محمد بن ناصر الدرعي، عبدالله بن حسن، علي بن عبدالله، أحمد الدردعي، قاسم الغازي، أبوسالم التازي، أحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.

10-الدرقاوية:

أنشأها العربي أحمد الدرقاوي (توفي 1239هـ/1823م).

السلسلة: العربي الدرقاوي، علي الجمل العربي بن عبدالله، أحمد بن عبدالله، قاسم الخصاصي، عبدالرحمن الفاسي، أبو المحاسن الفاسي، عبدالرحمن المجذوب، علي الصنهاجي الدوار، إبراهيم الفحام (أو الحجام)، طاهر القسنطيني، مولانا أحمد زروق.

كان مركز هذه الطريقة الرئيسي في (بوبريح) شمال مدينة فاس، وكان لها نفوذ كبير في شمال إفريقيا، وكان العربي الدرقاوي معاصراً لمؤسس الطريقة التجانية المشهور لكنه اختلف عنه من نواحٍ عديدة، وقد انبثقت عن هذه الطريقة فروع كثيرة.

الموقع: المغرب، الجزائر.

11-المدنية:

أنشأها محمد حسن ظافر المدني (توفي 1263هـ/1846م).

السلسلة: ظافر المدني، العربي الدرقاوي ... إلى مولانا زروق.

ولد محمد حسن الظافر في المدينة المنورة ونسب إليها وجاء إلى المغرب حيث قابل الشيخ العربي الدرقاوي في (بوبريح) وصار أحد مريديه ثم عاد إلى المدينة خليفة عن الدرقاوي حيث نسب الكثيرين، وبعد وفاة الدرقاوي عاش المدني في مصراته ومات بها. وأصبحت الطريقة المدنية متميزة على يد أبنه وخليفته محمد ظافر الذي كان وافر النشاط فأرسل مبعوثيه ومقدميه إلى شمال إفريقيا والحجاز وتركيا، ولعب دوراً سياسياً بارزاً في حركة الجامعة الإسلامية أيام حكم السلطان عبدالحميد.

الموقع: المغرب، الجزائر، وتونس، ليبيا، مصر، الحجاز.

12-اليشرطية:

أنشأها علي نورالدين اليشرطي (توفي 1309هـ/1891م).

السلسلة: نورالدين اليشرطي، ظافر المدني، العربي الدرقاوي... إلى مولانا زروق.

ولد اليشرطي في بنزرت بتونس والتحق بالمدني في زاويته بمصراته، ثم غادرها واستقر بعكا من أرض فلسطين ومنها نشر تعاليمه في لبنان والبلاد المجاورة.

الموقع: فلسطين، لبنان، جزيرة رودس.

13-السنوسية:

أنشأها محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني (توفي 1276هـ/1859م).

السلسلة: محمد بن علي السنوسي، محمد بن محمد الناصري، محمد الناصري، جسوس، يوسف الناصري، محمد البناني، أبو البركات الفاسي، أحمد بن عبدالصادق، أبو

الحسن الكومي، عبدالعزيز بن عبدالحليم، أبو الطيب اليحياوي، الخياط الزرهوني، إبراهيم الفحام واحمد الراشدي، مولانا أحمد زروق.

كان السنوسي احد أتباع أحمد بن إدريس الذي ولد في (مستغانم) بالجزائر سنة 1203هـ/1787م. وذهب إلى الحجاز حيث انهمك في مجادلات دينية وسياسية، وبعد عدة رحلات ذهاباً وجيئةً بين الحجاز وشمال إفريقيا استقر في شرق ليبيا، وابتنى زاوية فيما يسمى (البيضاء) الآن ثم تحول إلى واحة الجغبوب في الصحراء الليبية وبدأ نشاطه الديني والسياسي هناك. وقد ظلت زعامة السنوسية في عقبة بعد موته حتى آخر شيوخها محمد المهدي السنوسي، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على ليبيا إلى أن خلعته ثورة الفاتح من سبتمبر 1969م.

الموقع: ليبيا، شمال إفريقيا، تشاد، النيجر، مصر، الحجاز.

الـزاويـــــة

أما وقد بلغنا هذه المرحلة من بحثنا التاريخي عن (الزروقية) فلابد من التعرض لزاويتها أعني مركز قيادتها وتوجيهها.

تعني كلمة (الزاوية) في العربية أصلاً (الركن)، وحين اتخذ أهل التصوف هذه الكلمة وضموها إلى مفرداتهم ومصطلحاتهم عنوا بها في البداية "الخلوة" أو مكان الاختلاء بأنفسهم ويلجئون إليه ويعتزلون فيه للصلاة والتأمل، وبمرور الأيام تطور المصطلح ليعني مؤسسة أو معهداً بعينه يحفظ فيه القرآن وتلقى فيه الدروس الدينية واللغوية، كما أصبحت (الزاوية) منزلاً مؤقتاً لفقراء الصوفية يجدون فيه المأوى والطعام ويلتقي بعضهم بعضاً. وكانت الزاوية تبنى في العادة على يد أحد شيوخ الصوفية في حياته أو يبنيها أتباعه بعد موته، لتكون مركز الطريقة التي أنشأها هذا الشيخ، وقد يحدث أن تبنى أكثر من زاوية في أكثر من مكان واحد تبعاً لعدد الأتباع وحظ الطريقة من الانتشار.

أما بالنسبة لمولانا زروق فنحن نجد أنه لم يحاول بناء زاوية هو نفسه، بل ترك الأمر لأتباعه، أو خدامه ليبنوها من بعده، وعلى هذا أنشئت زاويته الشهيرة في (مصراته) وزاويتاه الأخريان في المغرب والجزائر.

زاوية مصراته:

يقول مرغوليوث:

(إن بناء الزوايا وغيرها من المنشآت يبدو وكأنه لم يخطر على بال أبو الحسن الشاذلي أو خليفته أبي العباس المرسي، الذي كان يمدحه مترجمو حياته بأنه لم يضع حجراً فوق حجر قط) [1].

Margolioth (Sadgiliyah) Encyclopaedia of Islam (1)

ولعل هذا ما كان يدور في خلد مولانا زروق حين سأله خادمه أحمد عبدالرحيم يوماً بعد استقراره في مصراته:

(أ تبني هنا زاوية ونتخذ لها أوقافاً؟).

وكان جواب الشيخ بالنفي القاطع وهو يقول:

(يا أحمد نحن لا تفوح رائحة مسكنا إلا بعد ما نتسّوس تحت التراب) [1]. ولقد لزم الخادم الطيب الصمت أمام شيخه، ولم يقدّر للزاوية أن ترتفع في إبان حياة مولانا زروق.

فلنعد قليلاً إلى الوراء (إلى يوم وصول زروق إلى مصراته) حيث كان أول ما قام به – الصوفي الفار من متاعب المدينة ومشكلاتها – أن اتخذ له خلوة ابتناها غير بعيد من الجامع الذي يؤدي فيه الناس الصلاة. وفي هذه الخلوة الخاصة به وضع مكتبته وما يهمه من أدوات القراءة والكتابة، وهيأ لنفسه جواً ييسر له التأليف والتفرغ للتفكير والتأمل، واختار لأهله بيتاً بناه لهم فوق تل صغير بالقرب من قرية (الحويرة) على بعد حوالي ألف ذراع جنوب شرق الجامع، وقد أهداه أحد شباب المنطقة – اعترافاً بإحدى كرامات الشيخ كما تقول الرواية – قطعة أرض بها جابية وبئر، وحين توفي الشيخ نشب خلاف حاد بين أهل البلد حول مدفنه، فقال سكان (الحويرة) انه يجب أن يدفن في بيته بين ظهرانيهم وفي قريتهم، وأصر خدامه على دفنه في الجابية المهداة إليه والتي طالما جلس فيها، وكانت مكانه المفضل للقراءة والدرس، وقد تغلب رأي الخدام في النهاية. دفن الشيخ في الجابية حيث شيد ضريحه من بعد [2] ثم أنشئ مسجد في موقع مسكنه، بعد رحيل أسرته إلى قسنطينة في أغلب الظن، تعويضاً لأهل (الحويرة) فيما يبدو. وصار هذا المسجد قبلة الزوار والمتبركين وكاناً لابد لكل من زار قبره أن يمر ويصلي فيه، وقد ظلت آثار خلوته حتى عهد قريب تقاوم عوامل الفناء والاندثار [3]،

(1) رحلة العياشي ص97.

(2) محمد فريو، تراجم أعيان العلماء من أبناء مصراته القدماء ص81.

(3) المصدر نفسه.

حتى قضت عليها الأيام، وأنشأت الحكومة الليبية على أنقاضها مسجداً صغيراً في عام 1970م.

توفي مولانا زروق إلى رحمة الله ومرت عشرون عاماً كاملة ولم تبنى الزاوية بعد، حتى إذا ما كثر عدد الزائرين لضريحه حين ذاع صيته وانتشر في الآفاق كما يقول أبو سالم العياشي بن أحمد عبدالرحيم، بني جامع بجانب الضريح وعاش فيه[1]. وهذا الجامع هو الذي صار بمرور الزمن ~~ما يعرف بـ(زاوية سيدي أحمد زروق)~~ وقد كانت هذه الزاوية – ولا تزال إحدى المعالم الرئيسية في المنطقة – معهداً دينياً معروفاً في البلاد الليبية، وكان تقليداً متبعاً، حتى عهد قريب جداً أن يصدوه كل من أتم حفظ القرآن الكريم في أحد (الكتاتيب) الكثيرة المحيطة بها ويقضي فيها فترة من الزمان يدرس في أثنائها مبادئ العربية وما يتصل بأصول الفقه والشريعة والمعرفة الدينية الضرورية. وكان يقدر لبعض طلبتها أن يواصلوا دراستهم العليا فيها أو في معاهد دينية أخرى في طرابلس ومصر وتونس ليعودوا إليها أساتذة وشيوخاً. ولم يكن طلب العلم في زاوية مولانا زروق قاصراً على أهل المنطقة وحدهم بل كان يقصدها الكثيرون من أقاليم ليبيا وخاصة من نواحي طرابلس وما حولها.

مضى الآن على إنشاء زاوية مولانا زروق أكثر من أربعة قرون ونصف قرن، وهي تعتبر بهذا أقدم معهد علمي في جميع أنحاء ليبيا دون استثناء. وكان لابد لها أن تصارع صروف الدهر وتأتي عليها تقلبات الأيام، وكان أحمد عبدالرحيم أصلاً من نواحي (سرت)، لحق بالشيخ في (مصراته) وأصبح تابعاً له [2]، فلما توفي تولت أسرته رعاية الزاوية مدة 150 عاماً متواصلة، وقد ازدهرت الزاوية في هذه الفترة واكتسبت سمعة مدوية كمعهد علمي ومأوى للفقراء والمساكين، وبلغ احترام الدولة للزاوية حداً

---

(1) المصدر نفسه.
(2) ابن غلبون: التذكار ص 225.

جعلها تعفي السكان القاطنين بجوارها من الضرائب والجبايات التي كانت تفرضها على غيرهم من الناس [1].

غير أن الحال لم يستمر ونشب من بعد هذا خلاف بين آل عبدالرحيم وصراع على أوقاف الزاوية وممتلكاتها[2]. فتداعت وفقدت مركزها العلمي شيئاً فشيئاً نتيجة إهمال شئونها والانشغال عنها، وحين زارها أبو سالم العياشي سنة 1035هـ/1626م صُدم بواقعها وروّع بحالتها فكتب يقول:

(... وخطب إمام المسجد من ورقة وليته أحسن القراءة منها فإنه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم، وأسفت لذلك المكان – مع شرفه – بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يسند الأمر فيه إلى غير أهله ويوضع في غير محله ولله الأمر من قبل ومن بعد [3] .

في سنة 1121هـ/1709م مر أحمد بن ناصر بالمنطقة وهو طريقه إلى مكة للحج وزار الزاوية، وليس ثمة ذكر ما لأسرة عبدالرحيم في (رحلته) ونجده بدلاً من هذا يتحدث عن خدام آخرين لمولانا زروق استقبلوه هناك، وهو يثني كل الثناء على أولاد ابن غلبون الذين كانوا يرعون فقراء الزاوية ويطعمون الحجاج [4]. وقد طردت أسرة عبدالرحيم رسمياً من رعاية الزاوية بأمر من حاكم طرابلس في ذلك الوقت أحمد باشا بن يوسف القرمانلي (توفي 1158هـ/1745م) الذي تدخل بشخصه في النزاع وفض الأمر بأن عين إبني ابن غلبون: (أحمد) و (دخيل) للإشراف على الزاوية وإدارة شئونها وأوقافها[5].

---

(1) رحلة العياشي ص97.
(2) التذكار ص225.
(3) رحلة العياشي ص96.
(4) رحلة الناصري ص13.
(5) التذكار ص225.

وبهذا عادت إلى سيرتها الأولى وانتعشت من جديد، فقصدها العلماء والفقهاء والصوفية من جميع أنحاء العالم الإسلامي ليلقوا فيها دروسهم أو يستفيدوا من أساتذتها، حيث تحسن وفادتهم وتكرم [1]. وقد ظل الإشراف على الزاوية في يد آل غلبون، حتى عام 1923م يوم احتل الجند الطليان (مصراته)، وشكّلت الإدارة الإيطالية هيئة إدارة جماعية من أعيان البلد تتولى الإشراف على أوقافها ورعاية شئونها [2]وظل هذا النظام سارياً حتى وقتنا الحاضر.

تقع زاوية (مصراته) في مكان أهل يسمى: (دكيران[3])، يتوسط الطريق بين مركز المدينة وميناءها (قصر أحمد) محاط بعدد وفير من القرى والقبائل، وهي تتكون من مسجد

وجامع وضريح الشيخ، ومكتبة ومعهد لتحفيظ القرآن وهي غنية نسبياً بفضل الأوقاف التابعة لها، غير أن إهمال المشرفين عليها وضح كل الوضوح، فواقعها الآن لا يدل بحال من الأحوال على ماضيها المشرق، وقد ألحقت الحكومة الليبية معهدها بالجامعة الإسلامية في السنوات الأخيرة كمحاولة منها لإصلاحها وتحديثها وإرضاء أهل البلد ولحل مشكلاتها المتراكمة [4]، لكن هذا لم يفد شيئاً ولم ينلها حظ من التحسن.

(1) رحلة العياشي ص96 / رحلة الناصري ص13. Marabouts et Khouan . p. 486

(2) Colin Sayyidi Ahmad Zarruq. P.31

هذا مايقوله (كولان) والمعروف أن وكالة أوقاف الزاوية كانت في يد آل بوزقية حتى عام 1939م حين عيّنت الحكومة الايطالية هيئة أوقاف على مستوى المحافظة للاشراف على زاوية مولانا زروق وغيرها، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فأعادت كل شيء إلى ما كان عليه، وهي اليوم تتبع الهيئة العامة للاوقاف.

(3) كما تنطق اليوم وهي تكتب في بعض المراجع (نكيران) و(نكرين) و(نكران).

(4) كان هذا قبل ثورة الفاتح من سبتمبر سنة 1969م، وقد ألغيت الجامعة الإسلامية في يناير 1971م كجامعة مستقلة بذاتها وألحقت بالجامعة الليبية يومها (صارت بعدئذ: جامعة بنغازي وجامعة طرابلس) باسم (كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية).

زاوية تليوان:

يقول ج. كولان عن هذه الزاوية الثانية المنسوبة لمولانا زروق:

(تقع زاوية مولانا أحمد زروق في قبيلة البرانس شرقي تازا، وفي الطائف بالتحديد عند أهل تليوان، على بعد ثلاثة أميال جنوب غرب باب المروج. ويعتقد أهل البلاد اعتقاداً راسخاً أن هذه الزاوية شيدت فوق قبر الشيخ وليس لديهم أقل معرفة عن زاويته بمصراته التي انقطع اتصالهم معها منذ صار الحج إلى مكة بحراً أكثر منه طريق البر، ويظل السؤال على كل حال: من أنشأ هذه الزاوية؟ ولماذا؟ هل بناها مولانا زروق نفسه أم بناها أحد أتباعه حتى يخلد ذكر مسقط رأس الشيخ أو مكان تدريسه؟ إذ يبدو من المؤكد أن مولانا زروق قضى بعضاً من الوقت بين أهل قبيلته. ولا يزال التراث المحلي يشير إلى آثار الجامع الذي علم فيه الشيخ وألقى دروسه، غير بعيد من سوق السبت في "وربه").

هذا ما يرويه كولان وهو – للأسف – لا يصدر حكمه من أن شيخنا (قضى بعضاً من الوقت بين أهل قبيلته) ومابين أيدينا من مصادر لا يساعدنا على هذه النقطة المهمة، حتى لو فرضنا جدلاً بأن الشيخ أمضى فترة من حياته في تليوان أو في غيرها، أو أن قبيلته ذاتها – فخورة به، مستفيدة من صيته وسمعته – هي التي بنت الزاوية ونسبتها إليه [1] . ويمضي كولان في حديثه:

(وقد فقدت زاوية مولانا زروق في تليوان أهميتها السياسية والاقتصادية التي تمتعت بها كمحطة للقوافل عند أحد ملتقيات الطرق التجارية والواصلة بين مليلة وفاس، في عام 1914م حين دخل الفرنسيون المنطقة، غير

(1) قد يكون مفيداً هنا أن نذكر ما يرويه عبدالمجيد المنالي الذي زار ضريح الشيخ سنة 1158هـ / 1745م في رحلته المسماة (بلوغ المرام) مخطوط الرباط 1808/د، ص 29 من أنه دخل الخلوة التي توفي فيها الشيخ ووجد رجلاً أشيب من أهل المغرب، من البرانس، وكان يعيش في فاس ثم هجر الدنيا وجاء إلى الخلوة حديثاً وقال: (وكان اسمه أحمد زروق على اسم الشيخ) ومن يدري ؟ لعل سمي شيخنا هذا هو الذي بنى زاوية تليوان في قبيلة البرانس وكلا الرجلين منها.

أن أهميتها كمركز ديني وعلمي ظلت لم تمس، ويعتبر شيخها – حتى الآن – حامي البلد ورئيس صلاّحها السبعة، وعلى قبره تقسم الإيمان ويأخذ مقدم الطريقة العهود والمواثيق شفوية ومكتوبة، وإليه يأتي الزراع والرعاة ويدعون الله أن يمن عليهم بحصاد وفير وحمل للأغنام كثير، وإلى شفاعته يتجه الآباء في دعواتهم بأن يرزقوا ولداناً ذكوراً. ويوجد بالزاوية بضعة مدرسين (فقهاء) يعلمون حوالي عشرين طالباً ملحقين بها وهم جميعاً يعيشون على ما تأتي به صدقات الزائرين للضريح، إلى جانب ما أوقف على الزاوية من أرض وأشجار الزيتون [1].

وكما هو الحال بالنسبة لزاوية مصراته، فإن أمور زاوية تليوان ليست في يد عقب الشيخ، وإنما يسيرها ويستفيد من خيراتها أبناء سيدي أحمد الحاج دفين أولاد بويعلا، والذي ربما كان رفيقاً لمولانا زروق[2].

زاوية أولاد طريف:

وتبقى الزاوية الثالثة والأخيرة التي تنسب لمولانا زروق وهي: (زاوية أولاد طريف) في منطقة (بروقية) حول الجزائر العاصمة، حيث يبدو أن طائفة من الشاذلية حافظت على ذكرى شيخنا وآثاره هناك[3]. ولا يعرف شيء – في الواقع – عن إنشاء هذه الزاوية، ومن الجائز أن تكون ذات صلة ما بتلميذي مولانا زروق، طاهر بن زيان القسنطيني وأبي فارس عبدالعزيز القسنطيني. وليس لأي منهما سند بعدهما يمكن العثور عليه أو لعل لها صلة بابن مولانا زروق نفسه، أحمد الأكبر، الذي غادر مصراته بعد وفاة والده وعاش في الجزائر حيث يقال أنه ورث شيئاً من علم أبيه وفقهه وشهرته الصوفية الكبيرة[4].

(1) كان هذا عام 1925م حين كتب كولان مقالته.
(2) المصدر نفسه.
(3) Depont and Capplani; Les Conreies p956 ويقول المؤلفان أن عدد اخوان هذه الزاوية في نهاية القرن التاسع عشر كان 112 في مجموعه.
(4) أحمد بابا، نيل الابتهاج ص 130.

أصول الزروقية في النظرية والتطبيق

حين نستكمل صورة الطريقة الزروقية ونحدد الإطار الذي وجدت فيه، علينا أن نلقي نظرة على مبادئها كما بشر بها مؤسسها، والأسس النظرية التي قامت عليها، ثم نستعرض من بعد ذلك جانبها العلمي، أعني الخطوات التي كان على كل مريد أن يقوم بها، وكيفية تلقينه وتنسيبه وواجباته نحو الطريقة وإخوانه فيها حتى يصبح واحداً من أفراد مجتمعها.

في النظرية:

في حذر شديد – كما ينبغي أن نتوقع – يحرص الشيخ السنوسي في كتابه (المنهل الروي الرائق) على ألا يفرق بين الطرق الصوفية التي يرى أنها – رغم تنوعها – واحدة[1]في الحقيقة لأن غايتها واحدة لكنه في الوقت نفسه يميز طرق عن أخرى على أساس أن هذه الطريقة أو تلك تتبع من الأصول غير ما تتخذه سواها، فبينما نجد (الشاذلية) وهي الطريقة الأم، مؤسسة – كما يقول – على ضرورة إلغاء العبد إرادته ومشيئته والتسليم المطلق لما قدره الله والانعتاق التام من الرغبات الدنيوية، نرى (البكرية) مبنية على الصدق والتقوى والاتصال القلبي، وتبحث (الوفائية) عن الفناء الكامل في إرادة الله حين تأخذ (الجزولية) بكل ما من شأنه أن يجعل العبد أكثر قرباً من الله وتشوقاً إلى مطالعة جمال الذات الإلهية وجلاله،

أما (الزروقية) فقوامها: التقوى وإتباع السنة والإعراض عن الخلق والتبرؤ من الدعاوي والحظوظ، والرضا بالله والرجوع إليه[2].

ويمكن القول بالطبع أن هذه الأسس في حقيقتها قواعد عامة للمتصوفين جميعاً بصرف النظر عن أي الطرق يتبعون، وهذا حق. غير أن تمييز السنوسي بين الطرق المشار إليها وغيرها، وتعيينه لأصول كل طريقة على حده، يشير إلى التنوع بينها واختلاف في النظرة والاهتمام بجانب دون

(1) المنهل الروي الرائق ص4.
(2) المصدر نفسه.

الآخر من جوانب الحياة الروحية رغم اتفاقها جميعاً في المجرى الرئيسي العام، وهذا هو المقصود عند الحديث عن أصول طريقة ما.

ولقد لخص السنوسي في جملة قصيرة مركّزة كل ما نادى به زروق في أثناء حياته وثنايا كتبه ومؤلفاته، إذا أن هذه الأصول الخمسة في الواقع هي جوهر طريقته أو لنقل النواة التي دارت حولها تعاليمه وآراؤه. وليس من العسير تتبع إشارته الدائمة المستمرة إلى هذه الأصول فيما كتب وألف مثلما تسهل معرفة أنها أساساً شاذلية، وقد كان فضل مولانا زروق يظهر في قدرته، وربما أكثر ممن عداه، على تبسيطها وتوضيحها[1]وتقديمها للفرد العادي في صيغة موحدة منهجية منّمطة لتكون مبادئ طريقته أصولاً يضيفها إلى أصوله هو فاحتوى بهذا كل العناصر الضرورية لربطه بشيوخ الصوفية السابقين وترك يده مطلقة – في الوقت ذاته – ليضع أسس طريقته الخاصة كما يراها دون الحاجة إلى الانفصال عن مصدر وحيه الصوفي والخروج عن التيار العام.

وفيما يلي نورد – تجنباً للتكرار والإعادة – أصول الطريقة الزروقية كما وضعها شيخها وأصبحت – فيما بعد – عماد أصحابه ومرجع أتباعه[2].

يقول الشيخ زروق:

أصول طريقتنا خمسة أشياء:

1. تقوى الله في السر والعلانية، وإتباع السنة في الأقوال والأفعال.
2. الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله في القليل والكثير.
3. الرجوع إليه في السراء والضراء، وتحقيق السنة بالتحفظ.

(1) أنظر: Margoliouth.
(2) محمد بن علي الخروبي: الدرة الشريفة في الكلام على أصول الطريقة، مخطوط/ قومية القاهرة – 22724ب.

4. حسن الخلق، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل.
5. تحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر واللجوء إليه في السراء والضراء[1].

ووسائل ذلك خمسة:

1. علو الهمة.
2. حظ الحرمة.
3. حسن الخدمة.

4. نفوذ العزمة.
5. تعظيم النعمة.

فمن علت همته، ارتفعت مرتبته.
ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته.
ومن حسنت خدمته وجبت كرامته.
ومن نفذت عزمته دامت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها.
ومن شكرها استوجب المزيد من النعم[2] .

وأصول المعاملة خمسة:

1. طلب العلم للقيام بالأمر.
2. صحبة الرخص والتأويلات للتحفظ.
3. ضبط أوقات الأوراد للحضور.
4. اتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى.
5. السلامة من العطب والغلط.

(1) أصول الشاذلية. قارن جامع أصول الأولياء للكمشخانوي ص14.
(2) أصول قادرية. قارن: المصدر السابق.

فطلب العلم آفته صحبة الأحداث سناً أو عقلاً أو ديناً مما لا يرجع لأصل ولا قاعدة، ومن آفات المحبة والاغترار والفضول.
وآفة ترك الرخص والتأويلات الشفقة على النفس.
وآفة اتساع النظر في العمل بالفضائل.
وآفة اتهام النفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها.

وأصول ما تداوى به النفس خمسة أشياء:

1. تخفيف المعدة بقلة الطعام.
2. اللجوء إلى الله مما يخشى وقوع الأمر المتوقع منه.
3. دوام الاستغفار مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بخلوة.
4. الاجتماع.
5. صحبة من يدل على الله أو على أمر الله ... وهو معدوم.

وقد رأيت فقراء هذا الوقت قد ابتلوا بخمسة أشياء:

1. إيثار الجهل على العلم.
2. الاغترار بكل ناعق.
3. التهاون في الأمور.
4. التعزز بالطريق.
5. استعجال الفتح دون شرط.

فابتلوا بخمسة أشياء:

1. إيثار البدع على السنة.
2. إتباع أهل الباطل دون أهل الخير.

3. العمل بالهوى في كل أمر أو جل الأمور.
4. طلب الترهات دون الحقائق.
5. ظهور الدعوى دون الصدق.

فظفروا لذلك بخمسة أشياء:

1. الوسوسة في العبادات.
2. الاسترسال مع العادات.
3. الاجتماع في عموم الأوقات.
4. استمالة الوجود بحسب الإمكان.
5. الاغترار في ذلك بواقع القوم وذكر أحوالهم.

ولو تحققوا لعرفوا أن الأسباب رخصة الضعفاء فلا يسترسل معها، وأن السماع رخصة العلوي أو الكامل، وأن الوسوسة بدعة أصلها جهل بالسنة وخبال في العقل، وأن التوبة إدبار من الخلق إقبال على الحق، وأن صحبة الأحداث ظلمة وعار في الدنيا والدين، وقبول أرفاقهم أعظم وأعظم، وقد قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: (الحدث من لم يوافق على طريقك وإن كان إبن سبعين سنة، وهو الذي لا يثبت على حال ويقبل كل ما يلقى إليه فيولغ فيه – وأكثر ما تجد هذا في أبناء الطريق، وهم الطوائف وطلبة المجالس، فاحذرهم بغاية جهدك).

وكل من أدعى حال مع الله ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كذاب أو مسلوب: إرسال الجوارح في معصية الله – والتصنع بطاعة الله – والطمع في خلق الله – والوقيعة في أهل الله – وعدم احترام مسلم.

وشروط الشيخ الذي يلقى إليه المريد بنفسه: علم صحيح – وذوق صريح – وهمة عالية – وحالة مرضية – وبصيرة نافذة.

ومن كانت به خمس لا تصح مشيخته: الجهل بالدين – وإسقاط حرمة المسلمين – والتدخل فيما لا يعنيه – وإتباع الهوى في كل شيء – وسوء الخلق من غير مبالاة.

وأدب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة:

1. إتباع الأمر، وإن ظهر خلافه.
2. اجتناب النهي.
3. حفظ حرمته حاضراً وغائباً وحياً وميتاً.
4. القيام بحقوقه بحسب المكان بلا تقصي.
5. عزل عقله وعلمه ورئاسته.

إذ قلما ينجح فاعل ذلك، ويستعين على ذلك بالانصاف والنصيحة – وهي معاملة الإخوان – وإن لم يجد شيخاً مرشداً، وإن وجده ناقصاً عن شروطه الخمسة اعتمد فيها على ما حمل فيه وعومل بالأخوة في الباقي.

في التطبيق:

حين يتخذ المريد هذه الأصول السابقة أسساً لحياته الروحية وقواعد يلتزمها في سلوكه الطريق الصوفي، يمكن له عندئذ أن يلتحق بإخوانه في الطريق أو ينتسب إليه، وحتى يصبح هذا الانتساب معلناً ومعروفاً لا بد للمريد من أن يمر ببعض الخطوات الأولية اللازمة كإجراء لإشهاره وعده ضمن جملة الإخوان، وتسمى عادة: (التلقين) وهو يشمل ثلاثة مراحل:

1. العهد.
2. الذكر.
3. الخلوة.

وبهذا تتم عضوية المريد في الطريق ويمضي بواجباته كسالك في الطريق الصوفي.

العهد:

ويتم على النحو التالي:

يوضح الشيخ معنى التوبة وكيفيتها، ثم يضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى ويذكره بأن كليهما شريك في العهد، وبعدها يغمض الشيخ عينيه ويصمت تماماً متفكراً في أن الله – سبحانه – هو سبب التوبة وهو التواب، وانه مجرد وسيلة لهداية التائبين، ثم يرفع صوته قائلاً: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وأستغفر الله العظيم (ثلاث مرات) وأتوب إليه وأسأله أن يهديني إلى ما يحبه ويرضاه) ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: (الحمدلله)، وعلى المريد أن يتبع الشيخ في كل ما يقول ويردده وبعد ذلك يسمي الشيخ السابقين، إن رغب ويذكر سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم [1] .

ويتبع الشيء نفسه في إعطاء الخرقة وتلقين الذكر كذلك[2].

الذكر:

وفي تلقين المريد الذكر ينبغي على الشيخ تبيان معناه وشروطه أولاً، ثم يقول له: قل لي وأنا أسمع: (لا إله إلا الله) "ثلاث مرات" بعد أن يقولها هو نفسه ثلاث مرات والمريد ينصت إليه.

وبعد أخذ العهد وإتمامه يعطى المريد صيغة معينة للاستغفار وهي المرحلة الأولى من مراحل الذكر التي تقدم له على التدريج، إذ يطلب منه أولاً أن يكرر: (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأسأله التوبة). وحين تتمكن هذه الصيغة من قلبه يطلب إليه أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويجب عليه هنا أن لا ينسى قول (سيدنا محمد) ويجب على كل حال، ألا يسمح للمريد بالانتقال من مرحلة إلى أخرى إلا إذا ظهرت ثمار الخطوة السابقة فيه، وفي نومه أو يقظته أو أثنائها معاً،وأما العلماء إعادتهم إحدى عشر مرة بعد أداء كل فريضة صلاة.

وعلى المريد أن يجلس – أثناء الذكر – جلسة معينة يضع رأسه بين ركبتيه، غافلاً عن جميع المحسوسات، متفكراً في شيء واحد هو أنه أمام الحضرة الإلهية ثم يوالي قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صلي على سيدنا محمد). ويذكر عدد الصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم التي ينوي ترديدها، وحين ينهيها يعيد الجملة السابقة، فإن كان الذكر قبل طلوع الشمس وجب على المريد أن يضيف: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

(1) الكناش ص 75 – 76.

(2) المصدر نفسه ص75، وتجدر الإشارة هنا إلى مولانا يتبع في العهد الطريقة السهروردية كما يقرر هنا نفسه، أنظر: عدة المريد مخطوط الرباط 86/ ص46.

ثم يقول: (وأنا أشهد بما شهد به لنفسه وشهدت به الملائكة وأولو العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة إلى حين موتي ودخولي قبري وخروجي منه ولقاء ربي، إنه لا تخيب لديه الودائع)، يقول هذا ثلاث مرات أو سبعاً، فإذا ظهرت ثمرة صلاة المريد على النبي صلى الله

عليه وسلم فيه، أنتقل إلى ذكر الشهادتين. ويستطيع أن يزيد عدد مرات ذكره لو كان معتدل المزاج فإن لم يكن وجب عليه التوقف والاكتفاء بالعدد المطلوب، وعلى المريد الضعيف أن يردد الشهادتين كما وردتا بترتيبهما: (لا إله إلا الله) ثم (محمد رسول الله) حتى لا يشوش حاله ولا يختلف في سلوكه الطريق [1].

وحين تبدو نتيجة مراحل الذكر الأولى في الظهور، باحتساب كل المخلوقات عدماً إلا جانب الوجود الحق، يصبح بإمكان المريد أن يبدل من صيغة الذكر الأولى إلي صيغة جديدة: (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، اللهم صلي على سيدنا محمد وآله) حتى يجد ثمرة الذكر ظاهرة فيه، وهنا يشغل نفسه بترديد لفظ الجلالة (الله) دون سواه على أن يصلي على النبي صلي الله عليه وسلم بين الحين والآخر.

ويبقى على المريد السالك أن يكون له وردان أحدهما بعد صلاة الصبح والآخر بعد صلاة المغرب وعليه أن لا يسرع في تبديل صيغ الذكر حتى تتمكن الصيغة السابقة من نفسه وتظهر نتائجها فيه، في جميع الحالات[2].

الخلوة:

أصبح المريد الآن سالكاً، بعد أخذ العهد وتلقين الذكر، وتأتي المرحلة الأخيرة في تنسيبه للطريقة وهي مرحلة الخلوة والتفرد. وهو يستطيع أن يتخير أي مكان يناسبه متفرغاً للذكر والتفكير [3] لينعزل فيه عن الناس فترة من الزمان هي بالنسبة إليه نوع من التحصين والتطهير والبعد عن شواغل

(1) الكناش ص76.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

الدنيا ومشكلاتها والاستعداد في سبيل الحياة الروحية الخالصة التي يبحث عنها ويرغب في أن يعيشها.

وعلى الرغم من رأي مولانا زروق أنه كلما ابتعد المريد عن الخلق كلما أشتد قربه من الخالق[1]، فإنه لا يفصّل واجبات المريد في خلوته، وينصح أتباعه – بدلاً من هذه – بأخذ ما يقوم به الشاذلية في هذا المجال. وهو يقول أنه ينبغي على المريد ألا يخلو إلى نفسه مدة طويلة حتى لا يفقد صلته بالعالم الخارجي وهي صلة لازمة له في حياته، وإن عشرة أيام من الخلوة أو شهراً على أكثر تقدير مدة كافية للغاية[2]. ثم يعود لأداء واجبه في حياته اليومية المعتادة في مجتمعه ونحو طريقته على حد سواء.

الوظيفة: سفينة النجا، لمن إلى الله إلتجأ:

لم يلق أثر من آثار مولانا زروق كلها ما حظيت به (وظيفته) من قبول ونجاح وانتشار على مدى خمسة من قرون الزمان[3]. وقد كانت موضوعاً لأكثر من عشرين تعليقاً وشرحاً ونظماً في الشرق والمغرب، وكانت تتلى كل فجر بأفواه الآلاف من أتباع (الزروقية) وغيرها من الطرق الصوفية[4].

وتعلق حول أعناق الملكات والأميرات تحميهن من الشر[5]. وكان الاعتقاد عظيماً في سلطانها ونفعها وقدرتها على حماية من يقرأها في صباحه، بنية مخلصة وقلب متبتل نقي، حتى يأتيه المساء[6]، فهي – لهذا – تستحق منا الاهتمام وان تذكر في سياق هذا الحديث.

(1) المصدر نفسه.
(2) قواعد التصوف طبعة القاهرة 1969م ص67.
(3) Colin; Sayyidi Ahmad Zarruq, p. 33
(4) تعتبر (الوظيفة جزءً لا يتجزأ من الذكر في الطرق: البكرية والزيانية والسلامية والعروسية والجزولية والعيساوية والمدنية أنظر السنوسي المنهل الروي الرائق Khouan Rinn, Marabouts مثلاً.
(5) L. Provincal, Les Manuscrits Arabes de Rabat, Paris P. 225 1291 أنظر أيضاً مخطوط الرباط 29/506.
(6) Rinn; Marabouts et Khouan p.412

ويقصد بتعبير (الوظيفة) ما يوظف أو يخصص من ذكر وأدعية في كل يوم، أو جزء من القرآن الكريم يقرأه المتقون من الناس، والمعنى هنا تلك الصيغة التي وضعها مولانا زروق ليقرأها أتباعه ويتخذونها ورداً ودعاءً يومياً لهم، وهي تتكون – في جملتها – من عدة آيات قرآنية وأدعية تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم[1]، وهي بسيطة التركيب خالية من التعقيد والتعبيرات الغامضة المبهمة.

وكان لابد لمولانا زروق، وهو يعمل في سبيل إنشاء طريقته أن يقدم لمريده وتلاميذه ورداً يتفق مع تعاليمه ليتلوه كضرب من الذكر، وكانت هذه عادة شيوخ الصوفية وكبار رجالها فألف هذه (الوظيفة) المسماة (سفينة النجا لمن إلى الله إلتجأ) وأوصى أصحابه بقراءتها فأصبحت بهذا جزءً من الطريقة الزروقية ودعاءً واسع الانتشار.

وقد نُسجت حول (الوظيفة) حكايات وروايات كثيرة تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه أملاها على مولانا زروق إملاءً، تماماً كما هو الحال فيما يتعلق بـ(حزب البحر) للشاذلي و(دلائل الخيرات) للجزولي[2]. ويقول أبو زكريا يحيى البجائي إن الشيخ أخبره بأنه بينما كان جالساً عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ظهر له عليه الصلاة والسلام وقال: (أقرأ عليّ وظيفتك) فقرأها. وهنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تزد ولا تنقص منها[3]). غير أن هذه الرواية تتعارض مع رواية أخرى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: (هذه الوظيفة التي كتبتها طويلة جداً، والزمان قصير والهمة ضعيفة، غيّر هذا أو أبدل ذاك) حتى رضي بها[4].

(1) أحمد الساعاتي – تنوير الأفئدة الزكية – المقدمة.
(2) السنوسي، السلسبيل المعين في الطريق الأربعين ص57 وأنظر:
Depont and Cappolani; Le Congreies …p455.
(3) العياش، الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية ص4.
(4) المصدر نفسه.

ويقول محمد الحطاب وأبنه أبو البركات إنهما سمعا مولانا زروق يتحدث مع النبي صلى الله عليه وسلم في روضته وأنهما ابتعدا ورفاقهما عن شباك الروضة احتراماً لخصوصية الحديث، ولعله يوماً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: سمها (سفينة النجا لمن إلى الله إلتجأ)[1].

هذا ما يقوله الآخرون، أما شيخنا ذاته فإنه لم يدع أبداً أن النبي صلى الله عليه وسلم أملاها عليه، ولم يزعم أن له بها صلى الله عليه وسلم صلة فيما عدا اتفاقها في صيغتها ومختاراتها مع الأدعية المنسوبة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وهي لدى مولانا زروق مجرد ورد مستقى من الأحاديث النبوية الشريفة، مطابقة للسنة لا تتعارض معها في شيء يوصي أصحابه بقراءتها وتلاوتها ليس غير.

ولا يدعي لها سراً من الأسرار، وهذا الموقف واضح من شرحه الذي لم يكلمه لها، حيث يبين فائدة تأليف (الوظيفة) وميزة كونها مختصرة جلية متفقة مع القرآن الكريم والسنة[2]، وقد جعل الشيخ موعد قراءتها في أي وقت ما بين طلوع الشمس حتى صلاة العشاء ليبسر على السالكين تلاوتها في الوقت المناسب لظروف كل منهم، غير أن الأفضل أن تقرأ جماعة مع إخوان الطريق حتى تتعاضد أنوار الذاكرين لها وتحفهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة، وإعانة للضعفاء على الذكر وإظهار لأبهة الإسلام عند درسها[3].

أما وقد بلغنا هذه المرحلة، فلنختم الفصل بالنص الكامل لـ **وظيفة مولانا زروق:**

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم. بسم الله

(1) المصدر نفسه (لاحظ سوء التركيب اللغوي)
(2) العياش ، الأنوار السنية ص8.
(3) المصدر نفسه ص7.

الرحمن الرحيم. ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وعنت الوجوه للحي القيوم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم. بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير. آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، وأعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

بسم الله الرحمن الرحيم. قل يا أيها الكافرون (إلى آخرها – مرة واحدة).

بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو الله أحد(إلى آخرها – ثلاثاً).

بسم الله الرحمن الرحيم. قل أعوذ برب الفلق (إلى آخرها – ثلاثاً).

بسم الله الرحمن الرحيم. قل أعوذ برب الناس (إلى آخرها – ثلاثاً).

اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم (ثلاثاً). اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال (ثلاثاً).

اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت (ثلاثاً).

اللهم عافني في بدني، لا إله إلا أنت. خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (ثلاثاً).

اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتمم نعمتك عليّ وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة (ثلاثاً).
اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر (ثلاثاً).
يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك (ثلاثاً).
رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – نبياً رسولاً (ثلاثاً).
سبحان الله وبحمده، عدد خلقه وزنة عرشه ومداد كلماته (ثلاثاً).
أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (ثلاثاً).
بسم الله الذي لا يضر مع أسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاثاً).
أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (ثلاثاً).
هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (مرة واحدة).
سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (ثلاثاً).
تحصنت بذي العزة والجبروت، واعتصمت برب الملكوت، وتوكلت على الحي الذي لا يموت، أصرف عنا الأذى إنك على كل شيء قدير (ثلاثاً).
بسم الله الرحمن الرحيم. لإيلاف قريش، اءيلافهم رحلة الشتاء والصيف (إلى آخرها – مرة واحدة).
اللهم كما أطعمتهم أطعمنا، وكما أمنتهم أمّنا، وأجعلنا من الشاكرين (مرة واحدة).
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك (ثلاثاً). أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو (ثلاثاً).
اللهم صلي على سيدنا محمد، عبدك ورسولك ونبيك، النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم(ثلاثاً)، تسليماً عدد ما أحاط به علمك وخط به قلمك وأحصاه كتابك، وأرض عن سادتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن الصحابة أجمعين وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين (مرة واحدة). لا إله إلا الله (من مائة إلى ألف مرة). محمد رسول الله (مرة واحدة). أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ثلاثاً). صلى الله عليه وسلم (مرة واحدة) ثبتنا يا رب بقولها (ثلاثاً). وانفعنا يا رب بفضلها (ثلاثاً). واجعلنا من خيار أهلها (ثلاثاً). آمين..آمين..آمين يارب العالمين (ثلاثاً).
أصبحنا في حماك يا مولانا، مسّنا في رضاك يا مولانا (ثلاثاً) آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين (ثلاثاً).
لا إله إلا أنت واحد ربنا، يا مجمعنا اغفر ذنبنا (ثلاثاً). آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين (ثلاثاً).

أغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى، بحرمة الأبرار، يا عالم الأسرار (ثلاثاً)، آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين (ثلاثاً).
يا عالم السر منا لا تكشف الستر عنا (ثلاثاً)، آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين (ثلاثاً).
يا مولانا يا مجيب، من يرجوك لا يخيب، توسلنا إليك بالحبيب، اقض حاجتنا عن قريب، هذا وقت الحاجات، يا حاضراً لا يغيب (ثلاثاً)،آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين (ثلاثاً).
اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد(عشراً)، آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين (ثلاثاً).
وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين (ثم نقرأ الفاتحة ثلاثاً).
إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً (مرة واحدة).
صلوات الله وسلامه وتحياته ورحمته وبركاته على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك، النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، عدد الشفع والوتر، وعدد كلمات ربنا التامات المباركات (ثلاثاً).
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير (مرة واحدة).
سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمدلله رب العالمين.
(الحقيقة التوحيدية عرش، والشريعة المطهرة كرسي ذلك العرش، والحقوق المفصلة فيها سمواتها، والحظوظ النفسانية أرضها، فكل حقيقة لا تصحبها الشريعة لا عبرة بصحابها، وكل شريعة لا تعضدها الحقيقة فلا كمال لها. وإنما يظهر الجميع عند الاعتبار، وتتبع تفاصيل الحقوق وإقامة الحظوظ التي قوام الوجود).

الطريق

أحسب أننا تعرفنا في الفصول السابقة على الشيخ أحمد زروق، مررنا بحياته وبالظروف التاريخية والاجتماعية التي عاش فيها، ثم أطلعنا على إسهامه في مختلف فروع المعرفة والعلم في عصره من خلال عرض أعماله، وعرفناه أخيراً مؤسساً لإحدى الطرق الصوفية.
ماذا عن الأسس المذهبية التي بنى عليها تعاليمه وآراءه ؟ كيف كانت نظرته إلى الطريق الصوفي ؟ وماذا قدم في هذا المجال من أفكار ونظريات؟ هذه هي الأسئلة، وكثير غيرها تحتاج منا إلى إمعان نظر وتنتظر أجوبة عنها من تراثه وما خلفه من أعمال. غير أنه لابد – قبل معالجة هذه القضايا – من كلمة تمهيدية لأغنى عنها، نقدم بها آراء شيخنا وأفكاره وتصوراته في طريق أهل التصوف وعالمه.

من الجائز هنا – بوجه التعميم، وعلى ضوء ما ذكرناه في السابق – الحكم بأنه ما دامت الطرق الصوفية تقسم في العادة بحسب الأقاليم الجغرافية فهي تصنف أيضاً عل أساس نظري، ومن منطلق محض نستطيع القول بأن التصوف – في مجمله – شمل دائماً تنوعاً نشطاً في الآراء والتعبير،وفي الدنو من غايته، وفي فهم الطريق نفسه. ولم يكن شيوخ الصوفية – منذ البدايات الأولى – على اتفاق كامل فيما بينهم، لم يكونوا بالطبع أعداءً وخصوماً لبعضهم البعض، لكنهم اختلفوا في شعب الطريق التي سلكوها على كل حال. وعلى هذا فمن الممكن قسمة الصوفية إلى مجريين رئيسيين أو لنقل إلى مدرستين من مدارس الفكر: الأولي جماعة (المحافظين) وزعيمها في النسب الصوفي أبوالقاسم الجنيد، وأتباعها هم أهل السنة. والثانية ما يمكن تسميتها (غير المحافظين) الذين قادهم الحسين بن منصور الحلاج.

وقد عاش تيارا التصوف هذان جنباً إلى جنب على مدى التاريخ الإسلامي، وكان كلاهما – كما في جميع نواحي النشاط الإنساني – متعصبين لعقائدهما الخاصة بهما رافضين لأفكار من عداهما على أساس تخطئتها، ومعتدلين بذلا ما في وسعهما لفهم وجهات نظر الآخرين واحترام معتقداتهم. وكانت الشاذلية – التي يحسب مولانا زروق من عمدها المهمة – طريقة سنية اتبعت خطاً متسامحاً ليس تجاه الطريق السنية الأخرى فحسب بل في مواجهة أكثر أهل التصوف تعصباً وتطرفاً في بعض الأحيان، وهذا لا يعني – بالطبع – أن الشاذلية لم يراعوا أصولهم الخاصة بهم، بل على العكس هم كانوا من أشد المدافعين عن السنة حماسة، يمثلهم في هذا شيخهم أبو الحسن الشاذلي وخلفاؤه، وخاصة من جمع منهم بين التضلع في الفقه والشريعة وإتباع طريق الصوفية.

قيل دائماً أن أهم إنجاز لمولانا زروق هو إسهامه في رفع العداء المصطنع بين الفقه والتصوف، أو – كما يعبر عنها عادة –بين الشريعة والطريقة. كان يوصف – بإعجاب – بأنه جمع بين هذين البعدين من أبعاد الإسلام، بأن مكّن للطريقة أن تؤدى إلى الحقيقة دون إهمال الشريعة. وكما رأينا فإن لدى شيخنا الكثير مما يقوله في ميدان التصوف وأن تراثه من الوفرة بحيث يبدو مستحيلاً – في مثل هذه الدراسة القصيرة – تغطية كل ما كتب وترك لنا، علينا إذن أن نحاول إجمال أهم أفكاره عن قضايا التصوف الرئيسية وان نكشف موقفه منها كمتصوف سني.

الفقه والتصوف:

ترجع محاولة التوحيد بين الشريعة والطريقة في أساسها إلى الصراع التاريخي الذي ثار بين الفقهاء وأهل التصوف عبر العصور نتيجة لسوء فهم بين الفريقين، وقد أعتاد الفقهاء – في أغلبهم – على إلصاق تهمة إفساد عقيدة المسلمين بالصوفية بدعوى إدخالهم فيها بعض الأفكار والشعائر المجافية لروحها الأصلية. وارتكز الصوفية في دفاعهم عن أنفسهم ومنطلقاتهم على القول بوجود حياة باطنية لم يكن للفقهاء أن يفقوها، وكان هذا طبيعياً إذا اعتبرنا أن الفقه يهتم بالجانب العملي الخارجي (أو ما يعرف بالباطن) من هذه الحياة، كانت هذه نظرة عدد كبير من الفريقين، غير أن لمولانا موقفه التوفيقي المعروف الذي بنى عليه تصوره للاتفاق – بل الوحدة – بين الفقه والتصوف، وهو يعبر عن هذا الموقف بكل وضوح، حيث يقول في: (فصل تحرير الطريقة وما بنيت عليه الحقيقة) كما ورد في مؤلفه: (عدة المريد الصادق) ما يلي:

(اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه.. فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بصدق التوجه، ولا هماً إلا بالإيمان، إذ لا يصحان دونه، فهو بمنزلة الروح وهما بمنزلة الجسد، ولا ظهور له إلا فيهما ولا كمال لهما إلا به وهو مقام الإحسان)[1].

لكن هذا التكامل والتلازم لا يعني بالضرورة الوحدة المطلقة فإن: (حكم الفقه عام في العموم، لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع منارته وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص، لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك). فمن ثم صح إنكار الفقه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه، ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به وإن كان أعلى منه مرتبة، فهو أسلم وأعم منه مصلحة، ولذلك قيل: كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً.

وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم، لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً. بخلاف فقيه الصوفية، فإنه المتمكن من علمه وحاله ولا يتم له ذلك بفقه صحيح وذوق صريح [2]).

---

(1) عدة المريد ص9.
(2) قواعد التصوف ص15.

وهو يرى – في أثناء مقارنته بين الفقهاء والصوفية – أن غاية الفقهاء أعم واشمل وأن غاية الصوفية أخص. الصوفي – عنده – كأمين سر الملك، والفقيه كالحاجب.

فمن حق الفقيه إذن سؤال من يدخل على الملك قبل دخوله، كما أن من حقه لوم وتعزير من يفشي سراً خصه به الملك أو يحرف ما قاله له. وهذا هو السبب في قبول رفض الفقهاء لبعض أقوال الصوفية أو شطحاتهم وإنكار حق الصوفية في الاعتراض، اللهم إلا إذا كانوا على علم بالشريعة قادرين على تبرير ما يأتونه والاعتذار عنه، وعليه فصوفي الفقهاء أفضل بكثير من فقيه الصوفية [1].

وعند تعريف التصوف وحده يبدو مستحيلاً تقديم تعريف بعينه من جملة التعريفات الألفين له. فمن الحق إذن القول بأنه يمكن لكل فرد من الناس أن يختص بضرب من التصوف يتفق مع قدراته واستعداده الطبيعي، فالطريق أرحب وأوسع من أن يقصر على فريق من الناس دون غيرهم نسميهم (الصوفية)، وهو طريق يتسع لكل البشر مهما اختلفت صفاتهم وتباينت طباعهم وخصالهم، بل وما يقومون به في هذه الحياة، فلنقرأ ما يقوله مولانا زروق في هذا الأمر:

(في اختلاف المسالك راحة للسالك وإعانة له على ما أراد من بلوغ الأرب والتوصل بالمراد، فلذلك اختلفت طرق القوم ووجوه مسلوكهم:

- فمن ناسك يؤثر الفضائل بكل حال.
- ومن عابد متمسّك بصحيح الأعمال.
- ومن زاهد يفر من الخلائق.

(1) قواعد التصوف ص49 (~~ولا تصوف إلا بفقه إذ لا تعرف أحكام الله الظا~~هرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق التوجه ولا هما إلا بالإيمان إذ لا يصح واحد منهما دونه فلزم الجميع كتلازم الأرواح للأجساد) ص4. ويقول سيد حسين نصر إن بعض الصوفية

وبخاصة الشاذلية شبهوا الإسلام بدائرة محيطها (الشريعة) ومركزها (الحقيقة) تصل بين المحيط والمركز إشعاعات لا متناهية يمثل كل منها (الطريقة) كما يرمز للأمر كذلك بجوزة غلافها (الشريعة) ولبها وزيتها (الحقيقة) موجودة خفية
Ideals and Realities of Islam. London. 1966. p.p 123 – 124.

- ومن عارف يتعلق بالحقائق.
- ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط.
- ومن متمسك يتعلق بالقوم في مناط.
- ومن مريد يقوم بمعاملة البساط.

والكل في دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل دميمة وشنيعة)[1].

ولأن الطرق إلى الله كثيرة بعدد أنفاس الخلائق، ولأن لكل نفس ميلها إلى ضرب من السلوك والعلم، فإننا نجد كل إنسان قادر على إتباع شعبة من الطريق تؤدي به في النهاية إلى الطريق الرئيسي، وهذه حقيقة نادى بها الشيوخ السابقون وأعلنوها على الملأ:

(تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن، فمن ثم كان لكل فريق طريق: فللعامي الصوفي تصوف حوته كتبه كالمحاسبي ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في (مدخله) وللمحدّث تصوف حام حوله ابن العربي في (سراجه) وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في (منهاجه) وللمتربص تصوف نبه عليه القشيري في (رسالته) وللناسك تصوف حواه (القوت) و (الأحياء) وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه بن سبعين في تأليفه، وللطبائعي تصوف جاء به البوني في (أسراره)، وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه[2].

هذه كلها طبقات من الناس يستطيع كل فرد فيها أن يصير صوفياً على نحو ما بشرط واحد: أن يرجعوا في كل آن إلى الشريعة والقرآن كمصدر أساسي من مصادر العلم وألا يحيدوا عن قواعد الإسلام. ويعود هذا التصنيف إلى حقيقة أن التصوف قائم في جوهره على فكرة (إتبـــاع

(1) قواعد التصوف ص34.
(2) قواعد التصوف ص34.

الأحسن) في كل شيء وهو ما يؤكده القرآن الكريم حين يقول: الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب (الزمر 18) تماماً مثلما كان سبب التنوع بين الطرق هو الاختلاف في الاستحسان بين الناس[1].

أن تكون صوفياً يعني أن تبتغي الأحسن، أن تكون ذا فهم أعمق، ومن هنا نجد أن:

(نظر الصوفي للمعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج والصوفي ينظر ما يحصل به الكمال، واخص أيضاً من نظر الأصولي لأن الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد والصوفي ينظر فيما يتقوى به اليقين، وأخص من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث، لأن كل منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتوه، وإلا فهو باطني خارج عن الشريعة فضلاً عن المتصوفة[2]، ولا يعني هذا – قطعاً – أن الصوفي مأذون له أن يحيا كما يشاء طليقاً من كل قيد في العقيدة والسلوك، بل على النقيض تماماً هو مسئول أكثر من غيره عن إتباع شعائر العقيدة الإسلامية بدقة واحترام بالغين حتى يبعد عن أي خلط وتجنب كل محذور من الغلط وسوء الفهم. وحتى بالنسبة للمذاهب الإسلامية فإن الفقيه يخطّيء من يرى تحلل الصوفي منها، ولنا في الجنيد – الذي

كان من أتباع سفيان الثوري – مثلما كان أبوبكر الشبلي مالكياً والحارث المحاسبي شافعياً، ويبني مولانا زروق حجته على القول بأنه إذا كان كبار الصوفية هؤلاء وآخرون غيرهم أتباعاً لفقهاء، فكيف يجرؤ كائن من كان على فصم الرابطة الوثقى بين التصوف والفقه دون ارتكاب خطأ فاحش إما في صلته بالناس أو في علاقته بالله؟[3].

(1) قواعد التصوف ص35.
(2) قواعد التصوف ص33.
(3) المصدر نفسه ص26.

والمسلم الحق إذن هو من يحقق (الإيمان) بتأديته عبادات (الإسلام) أما المسلم المثالي فهو ذاك الذي يكمل الدائرة بإتباع (الإحسان) بمعنى أن يكون صوفياً بإحدى الطرق السابقة وهو المقام الأسمى. فما هو هذا المقام؟.

يجيب مولانا زروق بأن الرسول (عليه الصلاة والسلام) سئل يوماً عن مقام الإحسان فأجاب: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وهو يستخلص من هذا الحديث أن مقام الإحسان ينقسم إلى قسمين:

أ. أن يولّي الإنسان وجهه نحو الله متيقناً أنه (هو) الوجود في الوجود، وأن (يشهده) في كل جزيء من جزيئاته، وأن يحقق متطلبات الخوف والحب كليهما، إذ أن (ما يشاهده) ليس سوى جمال الذات الإلهية وجلالها في كل مظاهر الوجود.

ب. ألا يستطيع الإنسان (شهود) الله لكنه موقن بأن الله يراه، وعليه هنا أن يؤدي ما يطلبه الدين منه في مجال العقائد والعبادات لأن الله ذاته يراه ويراقبه ويعرف كل ما يأتيه من فعل أو يتلفظ به من قول أو يجول بخاطره من فكر.

ثم يعلق مولانا زروق على هذين القسمين بأن الأول منهما هو مرتبة العارفين التي يطوّف بها الشاذلية، والثاني هو مرتبة ما دونهم ومثلهم أبو حاد الغزالي ومن دار حوله[1].

إن التصوف – في واقعه – ليس تعاليم نظرية مجردة تشغل ذهن الإنسان وتصير ضرباً من التهاويم الفكرية والمزاوجات اللفظية والتعبيرات الغائمة العقيمة، فالجانب العملي فيه مهم للغاية وحيوي جداً حتى يستحق المنتسب إلى التصوف أن ينعت به ويوصف، وهذا لا يؤدي إلى تجريد التصوف من تصوراته وأفكاره وتحويله إلى عمل فحسب، إذ هو يعني بكل قضية تتصل

(1) قواعد التصوف ص33 (والأول أقرب، لأن غرس شجرتها مشير لمقصد ثمرتها).

بالحياة الروحية كما ترتبط بالحياة المادية العادية، وله كلمته في جميع مسائل الإنسان اليومية مما يفعله وكيف ينبغي أن يؤديه، غير أنه يجب على من يريد إبداء رأي ما في موضوع ما أن يتسلح بمعرفة هذا الموضوع أولاً ثم يتهيأ له ثانياً بدليل يثبت به حجته، وعلى هذا تكون النظرية والتطبيق، أو العلم والعمل – كما يعبر عنهما مولانا زروق – متساويين في القيمة والأهمية، كما أنه لا غنى للمرء عن أي منهما، (فلا كمال بدون علم، ولا نفع للعلم بدون كمال) بحسب تعبيره[1]. ولما كان من المستحيل على الجاهل أن يحقق أو (يكشف) نفسه وما يحيط به ويرى جلال الله وعظمته، فإن من الواجب على كل مسلم أن يطلب العلم من المهد

إلى اللحد ويبحث عن الحكمة التي هي ضالة المؤمن، ويأخذها من حيثما جاءت وهذا هو علة تفضيل العلماء في الحياة وفي الممات وسبب القول بأنهم (ورثة الأنبياء)[2].

وهذا لا ينطبق على العلوم الدينية والصرفة وحدها، بل يتجاوزها إلى جميع فروع المعرفة الإنسانية، نظرية كانت أو عملية، على انه يجب التفريق بين هذه العلوم وبين (العلوم النافعة) و (العلوم الضارة) كما يقول مولانا زروق عنها: (العلوم النورانية) و(العلوم الظلمانية). وهو يحتاط بالتنبيه إلى أن هذا التمييز لا يظهر من العلوم نفسها بل هو ينتج عن أغراضها وطريقة الاستفادة منها. وأي علم في حد ذاته نافع و(نوراني) إذ هو يوسع أفق المعرفة البشرية ويثريها، لكنه قد يصير شراً و(ظلمانياً) بأن يوجه لخدمة غاية خبيثة كما يقول أبوالحسن الشاذلي: (العلوم على القلوب كالدرهم والدنانير على الأيدي، إن شاء الله نفعك بها وإن شاء ضرك)[3].

وكما أن المقصود من دراسة العلم هو الذي يحدد نفعه وضرره، فالعارف بأسرار العناصر وخواص الأعشاب مثلاً يستطيع أن يبريء بها المرضى وعلمه هنا (نوراني)، كما يمكنه أن يقتل بها آخرين وهنا يتحول

(1) تأسيس القواعد ص323.

(2) النصيحة الكافية ص43.

(3) عدة المريد الصادق ص57 – 59.

علمه إلى (ظلماني) ضار، وحين يُستغل (علم الهيئة) أو الفلك في ما يرفضه القرآن والسنة يتحول إلى (علم التنجيم) المهلك المنهي عنه، تماماً مثلما تحيد (الكيمياء) عن هدفها الأصلي، وهو ملاحظة خواص المادة والاستفادة منها، فتنقلب إلى (سيمياء) تجري خلف سراب مخادع، ويجب على كل مسلم يؤمن بكتاب الله العزيز وله ذرة من العقل – كما يقول – أن يتجنبها[1].

إن الشرط الأول للتعليم وطلب المعرفة أن تكون داخل إطار القرآن والسنة إذ أن كل ما لا يتفق معها يكون علماً كاذباً، والقرآن يحث المؤمنين دائماً على طلب المعرفة والاستفادة من هبة العقل ليروا في أنفسهم وفي الظواهر الطبيعية المحيطة بهم معنى وجودهم، وليصلوا أيضاً إلى كشف أصل هذا الوجود وغايته[2].

وكما أن طلب كل علم إنما هو الرغبة في منافعه ولأداء غرض خاص، كالطب والصحة والفقه لمعرفة رأي الدين وأوامره ونواهيه، فإن التصوف يطلب لعلاج القلوب وتطهير النفوس، ومثلما ينبع توقير أي علم وتشريفه من غاية هذا العلم ولشرف موضوعه فإنه ما من علم أشرف من التصوف، لأن موضوعه خوف الله نتيجة معرفته ووعد بإتباع أوامره ونواهيه، أو كما قال الجنيد: (لو أعرف تحت السماء علماً أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لطلبته)[3].

والآن وقد راجعنا موقف مولانا زروق من التصوف وألممنا بتصوره لدوره وأهميته في حياة الفرد المسلم ، فقد آن لنا أن نلقي بعض الضوء على المفهومات الصوفية الكبرى التي تعرض لها في كثير من أعماله، حتى نحصل على صورة أوضح لشيخنا الصوفي ومنشئ الطريقة.

(1) عدة المريد ص57 – 59.

(2) أنظر القرآن الكريم 7:3، 28:35، 259:2، 30:50، 6:99، 29:20، 88:17...إلخ...

(3) قواعد التصوف.

في النظرية
الله والإنسان والوجود

اشرنا فيما مضى إلى أن هدف التصوف هو السعي لتحقيق علاقة الإنسان بالله وامتلاك معرفة ثابتة به تعالى بالعبور خلال التجربة الروحية، وهذا يستوجب بالطبع الاعتراف أو (الشهادة) أولاً بأن ثمة إله خلق هذا الوجود، بما فيه الإنسان، ثم يأتي من بعد ذلك النظر في علاقته بالوجود والإنسان وبدون هذا الاعتراف لا يوجد معنى لدراسة القضية على الإطلاق.

وجوهر التعاليم الدينية في أي دين هو: (المطلق)، ولا عبرة بالاختلافات الأخرى بين الجماعات الدينية، إذ أن من الواضح أنه بغير تقبل (العلة الأولى) أو (الخالق) أو (مصدر الوجود) لا يمكن تصور أساس روحي لهذا الوجود، ويجب علينا عندها التوقف عن محاولة البحث والتفكير فيه[1]. والإسلام كدين يقوم أساساً على معنى اسمه من الخضوع والانقياد والتسليم الكامل لله بإتباع أوامره واجتناب نواهيه التي جاءتنا عن طريق رسله وأنبيائه وطلب رضاه والبعد عن كل ما يثير غضبه وسخطه، والتصوف هو أكثر جوانب الإسلام روحانية وأدق أجزاء التصوف هو ما يعنى بالعلاقة بين الله تعالى وبين خلقه، لأن التصوف – ببساطة – يقوم على العلاقة المباشرة (المعاملة) بحسب تعبير مولانا زروق بين الله والإنسان[2].

---

(1) اهتم العلماء والفلاسفة والمتكلمون في الإسلام مثل نظرائهم في الديانات الأخرى، بالبرهنة على وجود الله منطقياً، أما من جهة نظر الصوفية فلا حاجة لهذه البرهنة لأن الله (بيّن ذاته). ويوضح ابن عطاء السكندري هذا الموقف بقوله متسائلاً: (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟).

(2) قواعد التصوف ص15.

ويحتل تصور الذات الإلهية وصفاتها وما يتصل بالله تعالى مكاناً مهماً في تاريخ الفكر الإسلامي، ولسنا نظن أننا نبعد عن الصواب حين نقول أن تاريخ الفكر الإسلامي كله – تقريباً – كان في مجمله نتيجة لحجج المتبادلة بين العلماء عن الله وعلاقته بخلقه، وكما كان هذا الأمر واضحاً في مجال الفلسفة وعلم الكلام فهو – بالطبع – أوضح ما يكون في ميدان التصوف، فماذا لدى شيخنا ليقول في هذا الباب؟.

قبل أن نمضي في طرح تصور مولانا زروق لله والخلق، يبدو من الضرورة الإشارة إلى نقطة مهمة آثارها أحد شيوخه لعل فيها مغزى تجاه هذا الأمر إذ يقول عبدالرحمن السخاوي في: (الضوء اللامع) وهو يتحدث عنه تلميذه إنه: (يقال أن له ميلاً إلى ابن عربي)[1]. وهذا الحكم قد يترجم إلى إيماءة بيّنة تجاه مذهب محي الدين بن عربي المشهور في (وحدة الوجود).

وقد كانت (وحدة الوجود) هذه – لا تزال – فكرة مشبوهة خطيرة في بعض الدوائر وبخاصة عند أهل السنة، إذ ينظر إليها – كما فهمت لدى الكثيرين – على أساس أنها ضرب من الشرك بإدعاء أن الله يظهر ذاته في خلقه وإن كل جزء من الوجود جميعه يحمل في نفسه عنصراً إلاهياً، وهذا يقود إلى نوع من (مشاركة) الله في أخص صفاته وهي: الإلوهية التي لا يشاركه فيها أحد ولا شيء من خلقه مهما كان قريباً منه تعالى.

ويبدو لنا أن السخاوي خلط في ملاحظته عن تلميذه بين (وحدة الوجود) و (وحدة الشهود) التي كان الشاذلية يقولون بها، والفرق بين الاثنين يكمن في أنه بينما معنى الأولى أن الكائنات جميعها واحدة في حقيقتها وأن الكثرة التي نحسب أنها موجودة ليست في الواقع سوى ظهور الإلوهية من خلال تنوع خلقه تعالى، نجد الثانية عملية واعية يوحد فيها الوعي الوجود الظاهري ويمحو الفوارق الخارجية بينها في عملية تركيز كاملة.

(1) الضوء اللامع ص222.

وقد يضطرب التمييز بين هاتين (الوحدات) في بعض الأحيان حتى ليصعب على كثير من الناس ذلك وبخاصة حين ندرك أن الشاذلية – عموماً – لم يكونوا خصوماً أشداء لأبن عربي على كل حال[1]. والحق أن المعبِّر الأول عن الشاذلية أعني: ابن عطاء الله السكندري لم يكن بعيداً عن (الشيخ الأكبر) وتعاليمه، وكان من عادة مولانا زروق نفسه أن يدافع عن ابن عربي في كثير من مؤلفاته على أساس أن صاحب: (وحدة الوجود) لم يكن يعني ما فهمه خصومه منه ومن كتاباته، وأن تعبيراته عن مشكلة الإلوهية كانت للخاصة الذين يمكّنهم فهمهم من إدراك المعنى الحقيقي لأقواله، وليس لعامة الناس ممن لا يقدرون على التعمق في التعبيرات وتحليل الألفاظ واستخرج المعاني المقصودة منها[2].

الربوبية والعبودية:

عند الحديث عن الله –عزوجل – يمّيز مولانا زروق بين جانبين أثنين هما: الإلوهية والربوبية، الأولى خاصة بالله كما هو. هو كان، ويكون، وسيكون الله، بكل مستلزمات الإلوهية، بصرف النظر عن خلقه للعالمين

(1) أنظر: عبدالقادر محمود، الفلسفة الصوفية في الإسلام القاهرة 1966م.

(2) أنظر: نونية الششتري، مخطوط مدريد، ص17، ويلفت النظر أنه في حين لا يقبل مولانا زروق بعض أقوال ابن عربي من مثل: (أنا القرآن والسبع المثاني، انا روح الروح ولا روح الأوان). نراه يدافع عن هذه الأقوال على أساس أن ابن عربي لم يجد اللغة المناسبة للتعبير عن حالته، وهو يدافع عنه اتهامه باتباع مذهب الحلول (شرح المباحث الأصلية، مخطوط الرباط 2284د، ص236). ويقول أنه لا هو ولا غيره من شيوخ الصوفية عنوا ما فهم عنهم خطأ، وفي (قواعد التصوف ص 52/51)، يثبت مولانا زروق القاعدة الثانية من قواعد: (التوقف في محل الاشتباه مطلوب كعدمه فيما تّبين وجهه من خير أو شر). ثم يشير إلى أن الجدل احتدم بين المسلمين عن ابن عربي وآخرين من رجال التصوف كالن الفارض والعفيف التلمساني والششتري وابن سبعين، ويستنتج من أقوال مالك بن أنس وأبي بكر بن قورك أن من الخير احتساب ألف كافر – عند أقل بيّنة – مؤمنين دون احتساب مؤمن واحد كافر على أساس من الشبهة والشك، ويروي زروق أن شيخه أبا عبدالله القوري سئل مرة وهو حاضر: (ما رأيك في الخاتمي؟) فأجاب القوري: (غنه اعرف بكل فن من أهله) قالوا (ما عن هذا سألناك) قال: (اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية) قالوا: (وما ترجح؟) فأجاب: (التسليم). ويعلق هنا مولانا زروق بقوله أنه من الخطر وصف إنسان ما بالكفر، كما أن من الخطأ إجلاله وتمجيده عن الحد المعقول، ذلك لأن هذا التمجيد ربما قاد السامع إلى موقف ضار باتباع أقوال ابن عربي الغامضة وتقليده دون فهم لمعانيها المزدوجة الخفية.

أو عدم خلقه لهم في حين تعني الثانية – ضمناً – خلق شيء حتى يحقق معنى الربوبية، ولأننا ندرك أن الله خلقنا من عدم فإننا نعرف – تبعاً لهذا – أننا مختلفون عنه إذا تعوزنا إحدى صفاته وهي (الخلق من عدم) ولذا فنحن نعتمد في وجودنا عليه سبحانه، ويصبح ضرورياً معرفة وضعنا بالنسبة إليه، اعني معرفة عبوديتنا في مقابل إلوهيته[1]، وهو يعبر عن هذا فيقول:

(فائدة الطريقة ومقصودها إنما هو البحث عن تحقيق الحقيقة الإنسانية بالحقائق العرفانية وذلك من وجوده، إذ له نسبة ربانية في وجود كماله اللائق به، وإلا فلا نسبة بين عبد ورب إلا من حيث اعتناء الرب بعبده، حيث أوجده من عدم وأمده بالنعم وخصه بالكرم، فكان دليلاً

عليه مدلولاً موصلاً إليه موصولاً[2]). ومنذ البداية يقول الشيخ تجب علينا معرفة أن الله مغاير تماماً لأي شيء نراه أو نفكر فيه أو نتصوره، وجوده متميز عن أي وجود آخر وكينونته لا تشبه أي كينونة أخرى، وأول ما يثبت هذا التميز أن الإنسان خلق من عدم بإرادة الله وحكمته كما جاء في القرآن الكريم: أفمن يخلق كمن لا يخلق (النحل 17). والقدرة على الخلق قاصرة على الله وحده ويتبع هذا أن نجد أنفسنا في موقف يحتم علينا التسليم له والرضا بكل ما يريد[3].

(1) + (2) شرح المباحث الأصلية ص139.

(3) شرح الحكم ص279، ويرى Burckhadt في مؤلفه (Introduction to Sufi Doctrine) إن فكرة الخلق الشائعة في الأديان التوحيدية الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية تتعارض في ظاهرها مع وحدة الكائنات أو وحدة الوجود ذلك لأن الخلق من عدم Greatio ex nihilo يعني إنكار الوجود الأزلي لقدر الذات الإلهية ويجحد بالتالي وصفها بها منذ الأزل في حين فكرة الظهور – كما تنادي الهندوكية – تنسب الموجودات النسبية (المخلوقات) إلى الذات المطلقة على أساس أنها انعكاسات (أو إشعاعات) متصلة بمصدرها النوراني. وقد واجهت مشكلة الخلق الفرق والمذاهب ومدارس التفكير جميعها في الإسلام، فبينما فهم الظاهرية من صفة (الخالق) معنى الإيجاد من عدم دون وجود سابق للمخلوقات، نرى المعتزلة وقد انقسموا في معالجتهم للقضية، وقد قال بعضهم إنه كان هناك وجود من نوع ما قبل الخلق (الذي يعني الإيجاد المادي أو الإبداع) على شكل (صور) ورفض البعض الآخر هذا القول على أساس أنه يعني إنكار أخص الصفات الإلهية وهي القدم. وقال غيرهم إن بعض صفات الله تعالى هي إمكانيات أو احتمالات أو قدرات للذات الإلهية مثل صفات (المحسن) و (الرزاق) و(العالم) ونحوها إذ أنها تطلب موضوعاً تظهر فيه وصفة (الخالق) لديهم من جملة هذه الصفات وعليه فإن الله سبحانه وتعالى كان قادراً على الخلق منذ الأزل لكنه خلق في زمان معين (أو في الزمان) طبقاً لمشيئته هو وإرادته. وهذا مايسميه الغزالي (الخلق على التراخي) أي القدرة على الخلق أزلاً و(تأجيل فعله) إلى حين يرتبط بالإرادة الإلهية، ولعل هذا ما يعنيه ابن عربي بـ (التعين) بالنسبة له وخلقه.

وعلينا – بعد معرفة هذه الحقيقة الجوهرية وفهم موقفنا – أن نعمل طبقاً لهذه المعرفة وهذا الفهم، وهو ما يحتاج منا إلى نظرة أعمق وأشمل في أنفسنا وفي الطبيعة استجابة لقول القرآن الكريم: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (فصلت 53). إن نظرة أعمق في باطننا وفي الوجود الظاهر ستوضح لنا اعتمادنا الكلي على الله، ليس في وجودنا فحسب بل في استمرار هذا الوجود، فالله هو الذي خلقنا وهو الذي يحفظ وجودنا وبإرادته المطلقة أن يفعل بنا – وبالخلق كله – ما يشاء.

هذا عن الخلق والخالق – وهي أخص صفات الله سبحانه – فيما يتصل بالإلوهية في مقابل المخلوق، وتبقى من بعد ذلك (الربوبية) في مقابل (العبودية) وحين ننظر إلى صفات الربوبية نجدها مقسمة إلى مقولات: الغنى، والعزة، والقدرة، والقوة، وهي مناقضة لصفات العبودية: الفقر، والذل، والعجز. ويتخذ العبد موقفه تجاه هذه الصفات عن سبيلين: التعلق بالربوبية والتحقق في العبودية، وهذا يعني القصد إلى معرفة صفات الرب، وعدم الالتفات إلى شيء غيره، والاعتماد تماماً عليه، واعتبار صفات العبودية جزءً لا يتجزأ من ذات العبد لا ينفصل، بل هي ذاته الحقيقية.

وحين يقف الإنسان موقف العبودية قِبَل الرب فإنه بالتالي يتخذ موقف الانعتاق أمام الأغيار، وهو يتحرر من اعتبار الآخرين سادة مصيره أو موجهي حياته وقدره بمجرد إدراكه أن الربوبية هي لله وحده فيتجه بكل روحه إليه، وهذا هو التحرر الحقيقي[1].

العبودية – في الواقع – هي درجة عليا من درجات الوجود وعلى الإنسان أن يرضى بها ويسعد، وحين خيّر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً أو نبياً أو بشراً نبياً (أي عبداً) قال: (يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك). ويعلق مولانا زروق على هذا بقوله أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفضل حالة على أختها ولكنه

(1) شرح الحكم ص552.

اختار العبودية في كلتيهما، وكذلك حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر). علق أبو العباس المرسي بأنه لا فخر له في السيادة لأن فخره الحق في العبودية[1]، أن تكون عبداً صادقاً يعني أن تهتم بواجبك نحو الرب، وعلامة صدقك أن تتوكل عليه وترضى بكل ما يأتيك منه وحده، ذو الحق في أن يعطي ويمنع ويبسط ويقبض كما يشاء[2].

الأسماء الحسني:

يشير القرآن الكريم في كثير من آياته إلى أسماء لله يعرفه بها المؤمنون أو يدعونه بها[3]، وهي ما يعرف بـ(الأسماء الحسنى) وقد شغلت مكاناً بارزاً في تاريخ التصوف وكانت موضوعاً لعدد لا يحصى من المناقشات والمؤلفات عن طبيعة هذه الأسماء ومعانيها ومدلولاتها وخواصها والانتفاع به وقد خصص شيخنا كتاباً كاملاً لمناقشة هذه القضية من مختلف وجوهها[4].

والمعروف المتداول أن عدد الأسماء الحسنى يبلغ تسعة وتسعين أسماً، طبقاً للحديث المتواتر، وان الله تعالى سمى بها نفسه وأمر المؤمنين أن يدعوه بها ويؤكد توقيفية أنه لا يجوز استعمال غيرها في الصلاة أو في الدعاء، ولكنه لا يرفض – في الوقت ذاته – أية أسماء أخرى مناسبة لله عزوجل تطلق عليه إذا اتفقت مع الاشتقاق في اللغة العربية وحدها دون سائر اللغات، وذلك لأن الدين عربيٌ والقرآن عربي – كما يقول – [5]، وهذا أتاح لبعض الصوفية كأبي العباس البوني أن يزيدوا في عدد الأسماء الحسنى حتى بلغت ثلاثة وخمسين ومائة أسم[6]، ثم يقسّم مولانا زروق بعد ذلك الأسماء الحسنى

---

(1) المصدر نفسه.
(2) شرح الحكم ص49، قارن: صحيح الترمذي، مناقب.
(3) المصدر نفسه ص279.
(4) أنظر القرآن الكريم 7:18، 11:17، 20:8، 59:24.
(5) المصدر نفسه ص250.
(6) المصدر نفسه ص172.

من الناحية التصنيفية إلى أربعة أقسام:

1- أسماء الذات: وهي قاصرة على (الإلوهية) بعينها، ولا تتعلق بشيء سوى الله وحده سبحانه ولا يماثلها ولا يتشبه بها أحد من الخلق، فهي خاصة بالله تعالى خصوصية مطلقة فاسم (الله) هو أجل الأسماء وأخصها، وهو يحوي جميع معاني (الإلوهية) و (الربوبية) وليس ثمة شيء في الوجود كله يمكن أن يشارك في هذا الاسم بأي معنى من المعاني.
2- أسماء الصفات: وهي: (لا هو ولا هي غيره ولا هي فيما بينها أغيار).
3- أسماء الأفعال: وهي التي تشير إلى نوع من الفعل الإلهي، مثل (الخالق) و (الرازق) ونحوهما.
4- أسماء التنزيه: وهي التي تدل على التنزيه المطلق للذات الإلهية، مثل (القدوس)[1].

هناك تقسيم آخر للأسماء يجعلها فرعين أثنين:-

1- الأسماء الجامعة، وهي ما يشمل اسماً آخر أو أكثر أو يحوي معناه. فنحن حين نقول: (الملك) مثلاً نفهم معنى (القوي) و(القادر)، وعندما نقول: (الغافر) نربط الاسم بـ(الرحيم)، و(اللطيف) و(الودود) وهلم جرا.
2- الأسماء الاقتصارية[2]، وهي ما يعني التفرد مثل (الواحد) و(الأحد) و(الصمد) وغيرها.

(1) ويوردها في موضع آخر هكذا:
أسماء الذات: ما أشعر بوجودها من غير معنى زائد.
أسماء الصفات: ما لم يلزم من إسقاطه نقص في الذات.
أسماء الأوصاف: ما أثبت حكماً لمعنى في نفسه.
أسماء الأخلاق: ما صح إطلاقه وإطلاق مقابله المقتضى للكمال.
أسماء الأفعال: ما أشعر بصدور فعل من المنسوب إليه. أنظر الكناش ص91.
(2) أو (الكلية) الخاصة القاصرة على الذات الإلهية وحدها.

والتقسيم الثالث يقوم على أساس أن الأسماء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:
1- الأسماء الجمالية، مثل (المؤمن) و(السلام) و (الودود).
2- الأسماء الجلالية، مثل (القهار) و(الجبار) و(المنتقم) و(المتكبر).
3- الأسماء الكمالية، مثل (الواحد) و(الأحد) و(القدوس) و(الصمد)[1].

والتقسيم الرابع يبنى على أن ثمة:
1- أسماء مطلقة، وهي ما تدل على الذات الإلهية وحدها مثل (الله) و(الحق) أو ما كان مقصوراً عليها مثل (البارئ) و(الخالق).
2- أسماء مشتقة، وهي ما يشتق من أفعاله تعالى مثل: (المصور) و (الموحد) و(الكريم).

والتقسيم الخامس يجعل الأسماء:
1- أسماء متكاملة، وفيها نجد أسماً يكمل آخر من مثل: (الرحمن والرحيم) و(العظيم والكبير) و(العفو والغافر)، ... إلخ.
2- أسماء متقابلة، مثل: (المبدئ والمعيد) و(المقدم والمؤخر) و(الرافع والخافض) و(الباسط والقابض) ونحوها[2].

ويقدم مولانا زروق – بالنسبة لأغراض الأسماء الحسنى واستعمالها – خمسة أهداف محددة عنده هي:
- العلم: إذ ينبغي أن نعرفها حتى نعرف الله من خلالها فإن من لا يعرف من يعبد ليس مؤمناً حقاً لأنه جاهل والجهل يناقض الإيمان[3].
- الحفظ: فإن أسماء الله وسيلة للحماية من الأعداء والمصائب، أما في داخل الإنسان كالنفس وشهواتها أو خارجه مما يتعرض

(1) المقصد الأسمى ص238.
(2) المقصد الاسمي ص172 – 175.
(3) المصدر نفسه ص250.

له في حياته اليومية[1].
- التعلق: وذلك بفهم معنى الاسم والتوجه إلى الله بحسب هذا المعنى فعندما نعرف مثلاً أنه هو (المجيد) وجب علينا تمجيده، أو (الرحيم) وجب طلب رحمته. وحـ

نعلم أنه (المنتقم) يجب أن نحذر غضبه وسخطه، أو (الجبار) وجب أن نخافه ونخشاه.

- التحقق والتخلق: وهذا ينطبق على موقفنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين فحين ندرك تماماً أن الله هو (الرحيم) تجب علينا الرحمة للآخرين واللطف بهم وكذلك الحال في (الودود) و(الغفور) و(الوهاب) و(الصبور)، ويعني (الحسيب) مراجعة النفس ومحاسبتها كما ينبغي ويعني (الرقيب) ملاحظة الأعمال والأقوال والسيطرة عليها وتوجيهها إلى الخير، ويجب أن نقتدي بـ(المعطي) في الإحسان إلى الفقراء والمساكين، وبـ(المانع) في إمساك أنفسنا من الوقوع في هوة الإثم ومنعها من ارتكاب الذنب[2].

وإذا كان (التعلق) في حقيقته هو موقف العبد أمام الله حيث لا شيء يعتبر حقاً ماعدا تمجيده تعالى، فإن (التخلق) هو تأثير العبد باسم الذات الإلهية حتى يفقد وعيه بغير كماله تعالى في كل اسم، وهو محاولته (تحقيق) صفاته عز وجل بالسلوك طبقاً لمعنى الاسم بطريقة مناسبة في الظرف المناسب[3].

(1) يلاحظ هنا أن الشيخ يأذن بذكر الأسماء رجاء حماية الله وفضله، فإن جاء فضل الله بذكر أسمه الكريم كان هذا سبباً في محبة هذا الاسم ومحبة نبيه الذي جاء به ثم محبة الله ذاته. وإن لم يأت الفضل فهناك لطف الله تعويضاً بحصول انس الروح بذكر الله، لكن الشيخ يحذر بل ويعتبره مكروهاً أن يستغل الذكر في سبيل أغراض الدنيا ومتاعها، وتقديساً لأسمه تعالى ولكلماته في القرآن ودعاء نبيه حتى تحفظ لها جميعاً مكانتها العليا في عالم الروح الطاهرة (أنظر قواعد التصوف ص78).

(2) المصدر الأسمى ص174.

(3) المصدر نفسه ص175 ولا صلة لهذا (التحقيق) بما يسميه ابن عربي (الاتصاف بالذات الإلهية) حيث تتم الوحدة مع الله كما يتصورها Burckhardt في كتابه An Introduction to Sufi Doctrine ص96، فهو في الواقع مجرد (تشبع) بالصفات الإلهية عن طريق الوعي بالأسماء الحسنى وجهد مبذول (لتقليديها) من جانب العبد.

- الذكر: ويكون بمعنى (التعبد) أو بمعنى (التوسل أو وسيلة لطلب خاصية الاسم)، ولا يمكن – بعد هذا – أن يحصل النفع من ذكر الأسماء إلا بالتمعن الكامل فيها والفهم التام لمعانيها، وسيظل ذلك الاسم – بدون فهم معناه الباطن والشعور بأثره في النفس – مجرد عادة لا جدوى منها يقوم بها العامة من الناس[1].

الوجود:

(الكون عند الصوفي يكافئ (العالم) عند المتكلمين، وهو كل موجود خلا الله تعالى وصفاته ذاته ووجود الكون ليس في ذاته ولا لذاته ولا بذاته، فهو عدم في جميع حالاته، في الماضي لأنه مخلوق، وفي الحاضر بعدم استقلاله لأنه معتمد في وجوده على غيره، وفي المستقبل كذلك[2]).

هكذا عبر مولانا زروق عن نظرته إلى الوجود وقد يبدو من هذه الفقرة التي (لزيت) النسب المعنصر من (زيتونة) الأوصاف الكمالية (لا شرقية) جمالية (ولا غربية) جلالية، (يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار) التأثير الظاهر من مصباح الصفات، (نور على نور) الأفعال، على نور النسب، على نور الأسماء، على نور الصفات – وهي التي ظهر بها الكل، (يهدي الله لنوره من يشاء) في أي مقام كان، فيشهد الحق على ما حصل له من الغاية[3]).

المشاهدة:

ليس الوجود في حقيقته سوى مرآة يعكس سطحها صور صفات الله. ونحن في حاجة لكي نرى هذه الصور على وجه المرآة إلى النور، أعني الهداية. وحـ يلقي الله نوره فهو يكشف لنا عن ذاته من خلال صفاته،

(1) المقصد الأسمى ص175.
(2) شرح نونية الششتري ص4.
(3) المصدر نفسه أنظر: القرآن الكريم 35:24.

فتتمكن بهذا من (رؤيته) أو (مشاهدته) مشاهدة تجلي الصفات الإلهية في الوجود، وبقدر ما يقوى النور بقدر ما تتجلى الصورة، وكلما كان البصر أحد كلما اتضحت الرؤية، فمشاهدة الله إذن تعني الوعي بتأثيره في الوجود وتملي صورته في مرآة الكون العاكسة لصفاته.

وتختلف درجة المشاهدة من كائن إلى آخر حسب مبلغ النور الذي يلقيه الله على قلب العبد وتبعاً لاستعداده الطبيعي، أو كما يعبر مولانا زروق:

(فمن شهده في الأكوان فاعلاً ومدبراً نسيها به فلم تنطبع في مرآته ومن شهده عندها قائماً له بما يجب وقائماً عليها بما يجب لم يتعلق بشهواته، ومن شهده قلبها مقدراً لها ومخصصاً، لم يتعلق بغفلاته، ومن شهده بعدها رجع منها إليه فتاب من هفواته، ومن شهد الكون كله ظلمة وإن الحق هو الذي أناره فقد فتحت له أبواب تجلياته لأنه يصير بقلب مفرد فيه توحيد مجرد[1]).

(وهذا يعني أن الحق منبث في جوانب الظواهر الوجودية جميعها، وعلينا أن ننظر في هذه الجوانب التي ليست هي غير مظاهر للحق آخذين في الحسبان أنه لا شيء موجود في الواقع سوى الحق ذاته في مختلف صور الوجود وأشكاله).

(وفضلاً عن ذلك فإن هذا لا ينطبق على الظواهر الطبيعية وحدها لتكون على وعي بالحق الكامن فيها حتى نشاهده، بل هي لازم لنا في أفعالنا كذلك، فإن الحق وراء كل فعل نقوم به حتى يستطيع الإنسان أن يشهد الحق (قبل) الفعل، بأن يدرك أنه ما من إرادة أو قدرة له لفعله سوى إرادة الله وقدرته من حيث أنه له مقاليد السموات والأرض (الشورى 12)، تماماً كما يستطيع أن يشهده (بعد) الفعل بأن ينسى هذه الحقيقة حتى يعرف في بعض الأفعال أنه غير قادر على نيل غايته دون معونة من الله، في الحالة الأولى (يتوكل) الإنسان على الله إذ يعلم أن كل شيء منه و به، وهو

(1) شرح الحكم ص59.

في الحالة الثانية (يذكر) فضل الله ونعمته ويشكره، وفي كلا الحالتين يشهد الإنسان الله من خلال إحدى صفاته وهي (القهر) إما قبل الفعل أو بعده[1]، وهذا الوعي في حد ذاته ميزة يفتقدها الغافل، لكن خيرهم جميعاً من يشهد الحق (في) و(عند) و(قبل) و(بعد) كل شيء، ذلك من تم نوره وكمل وكشفت له الأسرار[2]).

المعرفة:

إذا كان الله تعالى ظاهراً في الوجود كله، فكيف يحدث ألا يشاهده الناس جميعاً ويكونوا على وعي به؟ للإجابة على السؤال يقول مولانا زروق: إن الله – سبحانه – ليس محجوباً ولا هو الحجاب ذاته، لأنه هو النور الظاهر كالشمس، وما يمنع بعضنا من إدراكه (أو الوعي به) هي السحب، نفوسنا والأغيار ومشاغل الدنيا، ورغم أن هذه جميعها نسبية، غير حقة، وعدم بجانب الموجود الحق المطلق بل لأنها كذلك، فهي تغطي أبصارنا وتصير حاجزاً بيننا وبين

الحق، إننا نرى بنور الشمس لكننا لا نقدر على النظر إلى الشمس مباشرة أو يصيبنا العمى، واستدلالاً بنور الشمس نعرف أنها موجودة، كذلك فالله إذن يكشف ذاته بآياته ليدل على وجوده يمكننا من معرفته ومعرفة صفاته لإدراك ماهيته، لأن هذه الماهية سر مغلق لا يمكن كشفه ولا يؤذن بمعرفته لأحد[3].

ومعرفة الله... معرفة وجوده وصفاته... لا يحتاج إلى دليل، لأن الله – بكل بساطة – بينٌ بذاته، والأناسي محجوبون عنه بإرادته هو، فإن شاء أن يعرفه أحد منهم كشف الحجاب عن بصره ومكنه من معرفته بدلائل خلقه[4].

(1) شرح الحكم ص63.
(2) المصدر نفسه ص61.
(3) شرح عقيدة الغزالي ص13 – 14.
(4) المصدر نفسه.

وانطلاقاً من هذا المفهوم يكون المؤمنون جميعاً مهتدين بنور الله، لأنهم جميعاً شهدوا له بالإيمان به ولأنهم جميعاً نالوا نصيباً من العلم به يسمى (التعرف). غير أن هذا (التعرف) ليس هو المعرفة الحقيقية.. المعرفة العميقة الراسخة بالله، هو درجة أدنى من المعرفة تسبق الإيمان ويشترك فيها كل المؤمنون، إما المعرفة الحقيقية فمقصورة على (العارفين) يمتازون بها عن عامة الناس، ويتميز بها بعضهم عن بعض طبقاً لدرجاتهم في الوصول، وهو ما يسمى أيضاً (المعرفة)[1]، وللحصول على هذه المرتبة من المعرفة الخاصة توجد ثلاثة سبل هي عند الشيخ:

أ. بالتحقيق، وهو ما يتبعه الأصوليون.
ب. بالإيقان، وهو طريق عامة المؤمنين المخلصين.
ت. بالشهود، وهو هبة الله للكاملين من الصوفية الذين يجاهدون لتنقية قلوبهم وإعدادها لحصول المعرفة الآتية عن طريق الكشف واتصال القلب اتصالاً مباشراً بصفات الله العلية[2].

المعرفة والعقل:

ما هو إذن دور العقل في هذا الأمر؟ سؤال آخر مهم يجيب عنه شيخنا بإثبات أهمية العقل: أداة من أدوات المعرفة، لكنه ليس خيرها ولا أفضلها، صحيح أن معرفة العامة (تقليد مطلوب) وأن المعرفة العقلية أعلى منها درجة
هي (الخاصة)، بيد أنها لا ترقى إلى رتبة معرفة (خاصة الخاصة)[3].

وهذا كله لا يتم إلا في مناطق محددة يمكن معرفتها، إذ ينقسم الوجود إلى أربعة أقسام أو (عوالم) كما يعبر عنها، يمكن معرفة ثلاثة منها ويبقى الرابع سراً مغلقاً يتعلق بالله وحده.

1. عالم الملك، ويعرف بالحس والوهم معاً.

(1) شرح عقيدة الغزالي ص3.
(2) المصدر نفسه ص4.
(3) شرح عقيدة الغزالي ص4.

2. عالم الملكوت، ويعرف إما بالعقل والفهم معاً.
3. عالم الجبروت، ويعرف إما بالحس أو بالعقل.

4. عالم القدرة، وهو ليس بمحل معرفة بأي سبيل وهو نطاق خاص بذات الله سبحانه[1].

أما عن صلة العقل بالمعرفة فنجد أن ثمة ثلاثة أنواع، أو ثلاث درجات، من المعقول يختص كل منهما بمجال معرفة معين:

1. عقل الطبع، وهو ما يعادل الفهم المشترك (Senus Communis) وهو فطري في جميع بني الإنسان يميزونه بين النافع والضار في هذا العالم.
2. عقل الموهبة، وهو مسار للنور الذي يلقيه الله تعالى على المؤمنين يعرفهم به أوامره ونواهيه وحلاله وحرامه، فيجنبهم معصيته ويدفعهم إلى طاعته.
3. عقل الاختصاص، وهو مكافئ لـ intellect يتفضل به الله على الأنبياء والعارفين ويخصهم به لإدراك حقائق الأشياء[2].

من هذا التقسيم نرى أن العقلين الثاني والثالث هبة من الله تعالى ونعمة يتفضل بها على من يشاء من عباده، وبها يتميزون في رتب المعرفة.

---

(1) المصدر نفسه ص13 – 14 ويسمى (عالم الملك)، (عالم الناسوت) في بعض الأحيان وهو عند الغزالي (عالم الملك والشهادة) ويعرف عالم القدرة باسم (عالم اللاهوت) وباسم (عالم العزة) كذلك أنظر تفصيلات هذا الأمر في: Martin Lings; a Moslem Saint of The Twentieth p.p 134 – 135 وكذلك:

Spencer Trimingham; The Sufi Orders in Islam p.p 160 – 161

(2) (إن مأساة الفلسفة الغربية الحديثة) كما يقول سيد حسين نصر: (تكمن من وجهة النظر الإسلامية في خلطها بين الـ reason والـ intellect والأخير هو ما يعتمده المذهب الصوفي بمعنى أداة المعرفة التي تدرك مباشرةً، أعنى أن الـ intellect ليس هو الـ ratio. وإذا كان الأخير يمكن أن يفهم الفلسفة بالمعنى المعروف للكلمة، فإن الأول وحده يستطيع فهم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) بمدلولها الصحيح الذي يحتل لب المذهب).

Ideals and Realities of Islam p.136.

أما المعرفة الكاملة بالله فلا يمكن بلوغها بالحس لأنه يعنى بالموضوعات المادية والله ليس مادة ولا بالوهم لأن الوهم يختص بالصور والله لا صورة له، ولا بالعقل لأن العقل يهتم بعلل الأشياء وأسبابها والله ليس معلولاً، وأقصى ما يصل إليه العقل أن يثبت أن الله هو العلة الأولى لأنه لا شبيه له، ليس غير[1]. وهناك درجة من المعرفة أعلى من أن يبلغها العقل، ولا يمكن الإفصاح عنها بأي وسيلة من وسائل التعبير الإنساني، ولا يمكن بالتالي توصيلها – أو نقلها – إلى الآخرين اللهم إلا بوصولهم هم أنفسهم إليها وهذا ما يسمى (المعرفة) الوجدانية) أو (المعرفة الذوقية) التي لا يملك العقل أمامها شيئاً سوى التسليم والإذعان وانتظار المرور بالتجربة ذاتها، تماماً كما يستحيل إيصال معنى لذة الاتصال الجنسي لصبي لم يبلغ الحلم بعد[2].

هذه المعرفة الوجدانية في حقيقتها هي قمة اليقين وخلاصة المعرفة كلها، وإذا ما بلغها الإنسان تلاشت أنماط المعرفة الأخرى جميعاً أو كما عبر أبو الحسن الشاذلي: (إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان). وهي ما لا يمكن إلا بنظام عملي يصير فيه الإنسان أحد السالكين في الطريق المؤدي إليها، متوجهاً نحو الله بالتعلق والتحقق مؤدياً فرضه ومطيعاً أمره[3]. وبالمجاهدة والعمل والقصد التام في السعي إلى الحق

قد يفتح الباب ويؤذن بالدخول، ومرة أخرى كما يقول الشاذلي: (قف بباب واحد، لا لتفتح لك الأبواب، تفتح لك الأبواب، وأخضع لملك واحد، لا لتخضع الرقاب، تخضع لك الرقاب)[4].

لكن السعي والمجاهدة وحدهما، على كل حال، ليس ضماناً لبلوغ الغاية وانفتاح الباب وهما ليسا سوى وسيلتين من وسائل الطلب والرجاء، فإن فضل الله واصطفاءه وحده هو الذي يعين من يكشف عنه الحجاب وأي قلب

(1) تحفة المريد ص7.
(2) شرح الباحث ص154.
(3) + (4) شرح عقيدة الغزالي ص21.

يبعث فيه النور، وهذا هو سر ما نجده من سعادة بعض السالكين بالكشف بينما يحجب عن آخرين غيرهم، وعلى قدر ما يمن الله به من إمداد وما لدى السالك من استعداد ينقسم العارفون إلى: عارف معتمد وعارف مكاشف، والأخير هو من يطلع على الصفات فيصبح ولياً بالذات وللذات[1].

الفناء:

الكشف – في أبسط صوره – هو معرفة الحق أو اكتشاف الحقيقة، وإدراك أنه لا حقيقة لشيء غير (الحقيقة المطلقة) بعد زوال حجاب الجهل من على البصر، وهذه هي المعرفة في درجاتها المختلفة، وليست ذروة المعرفة إدراك إن كل شيء غير حقيقي بجانب (الحق) بل رؤيته ظلمة بجانب (النور) وعدماً (الكائن) وهو الله، فلا يلتفت إلى شيء سوى (الحق) وحده وعلينا أن نرفض كل ما عاداه من الأغيار لسبب بسيط هو أنه غير حقيقي، مجرد ظل للحق[2].

والمشكلة هنا أننا (نحن) الأغيار نحن (الآخرون) فكيف يمكن أن يكون المرفوض رافضاً مرفوضاً؟

ليس سوى ثمة حل واحد: أن نرفض نحن أنفسنا، أن نعتبر ذواتنا عدماً بجانب (الموجود) وغير حقيقة بجانب (الحق) وهذا يعني بالضبط أن نلغي أنفسنا، نعدمها، نجعلها تفنى في (الحق) وهذا ما يسمى (الفناء) وهو اعتبار الأغيار جميعاً – بما فيهم نحن أنفسنا – عدماً بجانب (وجوده) وغيبة بجانب (حضوره) فيما يتعلق بكل صفاتنا و(صفاته) ثم تكون على وعي بـ(وجوده) و(حضوره) و(صفاته) كما تتجلى فينا وفي الوجود الظاهر، كما يقول ابن

(1) المصدر نفسه.
(2) شرح نونية الششتري ص4.

عطاء الله السكندري:

(يا عجباً! كيف يظهر الوجود في العدم، أو كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟)[1].

وحين قال رجل أمام أبي القاسم الجنيد: (الحمد لله) ولم يقل (رب العالمين) قال الجنيد: (كملها يا أخي) فقال الرجل: (وأي للعالمين حتى يذكروا معه؟) فقال الجنيد: (فله يا أخي فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم!)[2].

للفناء – على هذا الأساس – دلالة نفسية (سيكلوجية) تؤدي إلى إنكار الذات بالنسبة لموقف العبد أمام الرب، وهو لا يعني إلغاء وعي الفرد أو نفي الذات بل يفيد إدراك الله وشهوده في مظاهر الوجود خالقاً وحافظاً لهذا الوجود، وبهذا يرى الإنسان الله الفعال الوحيد و(الحق) الذي لا يحق سواه ويعرف عبوديته بالتعرف على حدود قدرته الإنسانية وهو يصبح – في الوقت نفسه – سيد الوجود كله بإغفال كل شيء سوى الله، وهذه الحدود الإنسانية هي التي تحتم علينا البعد عن أي تعبير قد تفهم منه الإشارة إلى علاقة بين العبد وربه لا نفرق فيها بين الطبيعتين، فمثلاً يجب علينا أن لا نستخدم تعبيراً مثل كلمة (الوصول) لأن النبي عليه الصلاة والسلام نفسه لم يستعمل مثل هذا التعبير ولم يدع مثل هذه المرتبة فضلاً عن أنه لا معنى لها ولا مدلول كما لا نعبر باصطلاح (الوصول) إذ يفيد أن العبد كان مقطوعاً من ربه مستقلاً عنه، وهذا غير صحيح، فالله معنا دائماً وهو أقرب إلينا من حبل الوريد[3].

موقف واحد يجوز فيه استعمال تعبير (الوصول) وذلك عند الإشارة إلى

(1) شرح نونية الششتري ص4.
(2) المصدر نفسه.
(3) شرح نونية الششتري ص5.

درجات المعرفة فحسب لأن (وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به) كما يقول ابن عطاء الله. وحقيقة الوصول هي أن يصل إلى القلب وتنبث في الأطراف كي يتبع العبد مشيئة الله دون تردد ولا اختيار[1]. وهنا نجد العلاقة المتينة بين المعرفة والفناء: (وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهي رتبة في الوصول، ثم يتفاوتن فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهي رتبة في التجلي – فيغني فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى، ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار – وهي رتبة في الوصول، ومنهم من يقام في مقام الهيبة والإنس لما يكاشف به من مطالعة الجمال والجلال وهذا التجلي بطريق الصفات، ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار التحقيق والمشاهدة فعمى في شهوده من وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة في الوصول، وفوق رتبة (حق اليقين)[2].

هذا التدرج في الوصول ينطبق على التدرج في الفناء كذلك، كما ننصح بألا نستعمل اصطلاح (الوصول) بمداوله البسيط المعروف لأن الصلة بين الرب والعبد، أو الله والإنسان لم تكن مقطوعة أو منفصمة بل هي عملية دائمة الاستمرار فإننا ننصح أيضاً بأن لا نظن أن للفناء حدوداً، لماذا؟ لأنه ليس ثمة حدود للمعرفة على الإطلاق. فكلما ازدادت معرفتنا بالله ذادت درجة وصولنا إليه، وكلما أفنينا أنفسنا فيه كلما سعدنا بشهوده ورؤيته (رؤية الحق بلا خلق[3]) كما يعبر مولانا زروق – ليس في هذه الحياة الدنيا فحسب بل وفي الآخرة كذلك[4]. فالمسألة إذن متشابكة ترتبط فيها المعرفة بالفناء بالوصول بالشهود والرؤية في تتابع منسجم لا متناه لأن الله بطبيعته لا يتناهى.

(1) + (2) شرح الحكم ص337.
(3) المصدر نفسه ص338.
(4) شرح الحكم ص338.

الحب:

حين يشهد العبد ربه ويعرفه ويفني نفسه فيه، أو هو (يصل) إليه فإن ما ينتج عن هذا كله شيء فوق الوصف من الفرح والسعادة. أي ما يسمى (الغبطة).. يحصل عليها العارف فلا يبقى ثمة مجال لشيء آخر في علاقته بالذات الإلهية سوى الحب، وهو قمة المراتب الصوفية حيث يستحوذ على العارف جمال الله وجلاله ويستغرق بالكلية في شهود وجوده من خلال صفاته، والحب مرحلة تأتي بعد مرحلة الفناء لا قبلها إذ أدعى مريد ذات مرة الحب أمام شيخه فسأله الشيخ: (يا بني! امتحنك بغيره وفضلته عليه؟) فأجاب المريد: (لا) فقال: (فلا كذلك!)[1].

حقيقة الحب أن يغمر جمال المحبوب القلب كله فلا يشغله شيء سواه، وتكون غاية المحب القصوى أن يرضى محبوبه ويحوز منه القبول، وهذا يطلب الطاعة الكاملة لكل ما يأمر به أو ينهى عنه، مما نراه في حياتنا الإنسانية والعلاقات البشرية هو ما ينطبق على علاقتنا بالله كذلك كما جاء في القرآن الكريم: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (آل عمران 31) أوكما قال الشاعر:

تعصي الإله و أنت تظهر حبه هذا لعمري في الأمور شنيع
إن كان حبك صادقاً لأطعمته إنَّ المحب لمن يحب مطيع[2]

وهكذا نرى أن الحب والطاعة مرتبطان ببعضهما تمام الارتباط. فالمحب الصوفي الصادق هو من يحفظ فرائض الله كما أوحى به لنبيه وأنزلها في قرآنه، وهو من يتبع بكل الدقة والحرص سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام وما تواتر عنه من قول أو عمل[3]. ولما كانت الطاعة علامة الحب فإن الطاعة التامة دليل الحب الكامل، لكن العصيان – على كل

(1) المصدر نفسه ص379.
(2) شرح الحكم ص379.
(3) شرح المباحث الأصلية ص237.

حال – لا يخرج الإنسان من دائرة الحب، لأن الله – سبحانه – هو الغفور الرحيم، ومن الممكن وجود الحب المختلط بالعصيان لكنه حب ناقص، والمحب الصادق لا يرضى بغير الحب الكامل، أي الحب الخالي من العصيان، وقد حد النبي عليه الصلاة والسلام يوماً رجلاً شرب الخمر، فطفق رجل آخر يلعنه فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله). وقدم إعرابي يوماً على الرسول عليه الصلاة والسلام وسأله: (متى الساعة؟) فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ماذا أعددت لها؟) فأجاب الإعرابي: (لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله) قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المرء مع من يحب)[1].

وعلى الرغم من أن الحب هو أعلى الدرجات دنواً من الله عزوجل فإنه ينبغي علينا الحذر والتحوط في تعبيرنا عن هذه العلاقة، يجب أن نعرف دائماً حدودنا وأن نتذكر حالة عبوديتنا أما ربوبية الله فمن سوء الأدب مثلاً أن نعبر بكلمة (العشيق) في حديثنا عن الحب، إذ تحمل هذه الكلمة معناً إنسانياً حسياً لا يليق بالذات الإلهية المتعالية عن الحس والإحساس، وعلينا أن نلتزم بتعبير (الحب) أو (المحبة) اللهم إلا إذ اضطررنا لاستعمال (العشق) في التعبير عن الحب المطلق أو الحب الجامع الذي لا يمكن كبحه[2].

ومن جملة القواعد المهمة أن الحب لا يمنع من تعظيم ما عظمه الله، فلا يحق لنا أن نقول مثلاً (إننا لا نعبده خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته)[3]، ولأن الله – سبحانه – عظم من

أمر النار والجنة، لا يجوز لنا أن نهون من شأن النار لأن الله أوجب خشيتها، أو نقلل من أمر الجنة لأن ما من عبد يستغني عن فضل ربه ونعمته، وصحيح أن النار والجنة ليستا غاية العبادة خوفاً أو طمعاً، بيد أنهما موجودان مخلوقان لغاية يجب إدراكها والتسليم بها على

(1) قواعد التصوف ص132.
(2) شرح المباحث الأصلية ص236.
(39 قواعد التصوف ص133 وينسب هذا القول لرابعة العدوية.

كل حال، كما يجب الاعتبار بما في القرآن الكريم حين يقول: إنما نطعمكم لوجه لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا (الإنسان آية 9)، ونستخلص من ذلك أن حب الله لم يمنع الخوف منه، كما خوفه لا يتناقص مع حبه[1].

إن الله يعبد لذاته..لأنه هو الله لا لسبب آخر، هذا صحيح أو كما أوحي لنبيه داؤود عليه السلام: (ومن أظلم ممن عبدني خوفاً من ناري وطمعاً في جنتي؟ لو لم أخلق جنة ولا ناراً لم أكن أهلاً لأن أطاع؟ غير أن هذا هو موقفنا تجاه (الذات الإلهية) وحدها حين لا يحق لنا حب ولا كره، أما موقف (عبوديتنا) أما (ربوبيته) فيختلف من حيث أننا نتعامل مع صفاته كما تتجلى في الوجود وكما كشفها لرسله، وحبنا له – في موقف عبوديتنا شاهدين صفاته – يمتزج برجائنا فيه طبقاً للصفات الجمالية، كما تخطت خشيتنا له تبعاً لصفاته الجلالية[2]ولا تناقص بين الحب من جانب والخشية والرجاء من جانب آخر ومثلما كانت الخشية دوافع للعبد السوء كي يعمل، كان الحب حافز للعبد الخير كي يرضي محبوبه ويسره، فالغلط يكمن في أن تخشى وترجو دونما حب، أما الصواب فهو أن تحب مع الخشية والرجاء[3].

النفس:

قبل الخوض في مثل هذا الموضوع الشائك نرى من الأنسب في البداية أن نحاول تحديد معنى النفس ومفهومها في أثر شيخنا وأعماله، ونشير أولاً إلى أن معنى كلمتي (النفس) و (الروح) أختلط كثيراً في الفكر الإسلامي،

(1) قواعد التصوف ص136.
(2) المقصد الأسمى ص54.
(3) قواعد التصوف ص133.

وصار من العسير التمييز بينهما في أحيان كثيرة[1]، وقد تحدد معنى كلمة (الروح) فيما بعد ليدل – في الأغلب – على الجزء الخالد المتعالي من الإنسان، وربط معنى كلمة (النفس) بالجزء الدنيوي والعالم المادي منه، ومولانا زروق ذاته لا يقدم لنا تمييزاً بين (الروح) و(النفس) وهو في كل أعماله يشير إلى النفس في مواجهة (القلب) الذي هو لديه محل الطهر والنقاء ووسيلة الخلاص، في حين يعتبر النفس عنصر الشر في تكوين الإنسان.

ونستطيع من خلال إشارات الشيخ إلى الروح، أن نستنتج أنه كان يعتبرها (النفس الطاهرة) في مرحلة ما قبل تولدها (أو ولادتها) وهي لا تزال في (عالم الأرواح)[2]، فإذا ما هبطت إلى (عالم الأجساد) أصبحت سجينة المادة ونسيت كل ما هو خير ومتعال، ثم تنغمس في عالم الرغبة والشهوة، مكبلة بحاجات الجسد الذي يقودها في كل حركة من حركاتها،

و(تدخل عليها أوصاف البشرية المناقضة للعبودية)[3]، فتتحول إلى عامل شر ينحرف بالإنسان بإرضاء مطالبها وأهوائها[4] وهي تسمى هنا (النفس).

وتتشكل النفس، في أثناء اتصالها بالجسد بكل ما فيه من مغريات المادة، في صور كثيرة وتتخذ لها أسماء عدة تدل على مدى انغماسها في الشهوة والإثم أو مقدار ما بلغته من قدرة على التخلص من هذه المغريات، وهنا نجد الشيخ يتبع التصنيف المعروف للأرواح إلى الأنواع والمراتب المأخوذة من القرآن الكريم: (النفس المطمئنة، والنفس اللوامة، والنفس الأمارة).

---

(1) تترجم كلمة النفس عادة في الإنجليزية إلى soul مضادة للروح spirit وهي مظهر سلبي في الإنسان لأنها جماع الميول الفردية والأنانية فيه (أنظر Burckhard: Introductions to Sufi Doctrine, p.151 ويعرف القشيري النفس في (رسالته) بأنها صفات العبد المعيبة والمذمومة من خلقه وفعله. أما الروح Spirit فهي تشمل في التصوف: أ. الروح الإلهي أو الروح القدس غير المخلوق. ب. الروح الكلي المخلوق. ج. الروح الإنساني الفردي. د. الروح الحيواني المتوسط بين النفس والجسم أنظر:

L. Massignon; The Idea of The Spirit in Islam, The Mystic Vision London 1968 p.p319 - 323

(2) عدة المريد الصادق ص61.

(3) المصدر نفسه.

(4) شرح المباحث الأصلية ص206.

فالنفس المطمئنة ما كان لها نور تهتدي به. والنفس اللوامة ما لم يكن لها هذا النور فتخطئ تارة وتصيب أخرى. أما النفس الأمارة فلا حديث عليها ولا عهد لها، والحق عليها أثقل من ثقيل، فهي أجرأ في لزوم الفراغ من مواطن ميلها، ويستعان عليها بقصد المخالفة أبداً[1].

النفس إذن طبيعتين: طبيعة إلهية أصلية خير كلها وطهر كلها، وأخرى خسيسة وهي طبيعة مكتسبة تغلب النفس بعد هبوطها وحلولها في الجسد، وهي تصير هنا كالحصان الجامح حسب تعبيره تجب مراقبتها بحذر حتى لا تقطع اللجام وتركض هنا وهناك بعيداً عن الصراط المستقيم حاملة راكبها فوق ظهرها في أي اتجاه تشاء فإذا ما ظل اللجام في يد الراكب استطاع في النهاية أن يبلغ غايته مهما جمحت النفس وركضت[2]. وهذا يعني أن النفس بذاتها لاحول ولا قوة ولا يخشى أذاها إذا ما ظل التحكم بها ثابتاً، فإذا ما غفل صاحبها عن مراقبتها وأطلق لها العنان بدت شراستها وظهر خطرها حتى يصير من المستحيل التحكم فيها والسيطرة عليها[3].

ولما كان التحكم في النفس أمراً عسيراً لما لها من حيل وخدع، فإن السبيل الوحيد لذلك هو كبت بشريتها،أي طبيعتها البشرية بصد رغباتها ومعارضة ما توحي أو توسوس به في كل آن، فينتج عن هذا حالة (خمود) في نفس المريد وتصير لا تتحرك إلا في الحق، بالحق، وإلى (الحق) وهو ما ينتهي إلى حالة (إماتة) بالنسبة لنفس العارف، والفرق بين الحالتين هو أن الخمود

---

(1) شرح الحكم ص312 (أنظر القرآن الكريم 75:20، 53:12، 27:89) وقد أشتق الصوفية وأضافوا أربعة أصناف أخرى من النفوس إلى هذه الثلاثة: النفس الملهمة والنفس الراضية والنفس المرضية ثم النفس الكاملة، وهي تمثل المراحل السبع التي يمر بها المريد في الطريق الصوفي حتى يبلغ المرحلة الأخيرة (للتفصيل: السنوسي، السبيل المعين في الطرائق الأربعين ص65 – 67. وكذلك:

Ttrimingham; The Sufi Orders in Islam p.p151 – 157

(2) شرح الوغليسية ص95.

(3) إعانة المتوجه المسكين ص2.

حالة يكون الشيء فيها ساكناً لكنه كامن في الوقت ذاته والإماتة تفيد القضاء عليه وإفناءه، وقد يخدع المريد في نفسه فيحسبها ماتت ويغفل عن مراقبتها والحذر منها فإذا بها تستيقظ فجأة وتهب أقوى مما كانت وأشرس وتنتصر عليه، ماحية ما بلغ وسالبة كل ما حصل عليه وناكصة به عن السير في الطريق[1].
يركز مولانا زروق في حديثه عن النفس على أمرين اثنين:
الأمر الأول: وهو ما يجب على المريد أن يعيه جيداً: أن النفس مليئة بالعيوب والنقائض وإن من اللازم لكل إنسان حتى وإن لم يكن صوفياً أن يفتش عن عيوب نفسه ويتفحصها ويكشف سوء سلوكها حتى يأمن غدرها وخديعتها، وهو بمعرفة هذه العيوب وتحرير نفسه منها والتوجه بكليته إلى الحياة الطاهرة البريئة من الإثم، يستطيع أن يعرف ربه[2]فلا عجب إذن أن نجد شيخنا يخصص صفحات لا تعد من مؤلفاته لشرح عيوب النفس ووصف طريقة علاجها من كل عيب، ولا غرابة أن نحصي في منظومته (رجز عيوب النفس) وحدها أكثر من مائتي عيب تنسب إلى النفس في سلوكها وتفكيرها، وخلاصة قوله في هذا المجال أنه ليس ثمة، إلى جانب (الشيطان) و(الدنيا) وهما عدوا السالك – اخطر من (الهوى)[3] أي هوى النفس فهي التي تقنع الإنسان عن طريق الهوى أن يتبع الشيطان وينغمس في شهوات الدنيا، شاهرة في سبيل هذه الغاية أمضى أسلحتها: الجدل النفسي، تزين به كل خطأ وتبرر به كل خطيئة وتقلب به القبيح حسناً والشر خيراً.
الأمر الثاني: وهو ما يتعين على الشيخ أن يضعه في الحسبان: أن النفوس لا تتشابه، وأنها تختلف بالطبيعة والاستعداد والعمل فيما بينها، ولذا نجد أنواعاً كثيرة من النفوس يحتاج كل نوع منها إلى ضرب من العلاج يختلف عن الآخر، وهنا يحدد مولانا زروق ثلاثة طرق للتمييز بين النفوس يأخذها

(1) إعانة المتوجه المسكين ص2.
(2) المصدر نفسه.
(3) إعانة المتوجه المسكين قارن: صحيح البخاري/ جنائز.

من أمثلة ثلاثة في ثلاثة أقاليم:

1. طريق المغاربة الذي يذهب إلى أن النفوس كالمعادن ويقسمها إلى سبعة أصناف بنظام تدريجي يبدأ بـ(النفس الذهبية) النقية الخيرة كالذهب وهي نفس الولي، وتنتهي بـ(النفس الزئبقية) التي هي في ظاهرها بيضاء ساطعة لكنها في باطنها سوداء كامدة، مراوغة يستحيل الإمساك بها، وهي أسوأ النفوس على الإطلاق، وبين هاتين النفسين توجد: (النفس الفضية) نقية لكنها خفيفة قابلة لتأثير المعادن الأخرى، و(النفوس الحديدية): نافعة لكنها مسودّة، و(النفوس النحاسية) وهي كالحديدية فضلاً عن نتانتها، و(النفس الرصاصية) وهي مسودّة لينة ومنتنة، و(النفس القصديرية) وهي أقرب في طبيعتها ونوعيتها إلى (النفس الزئبقية) ونجد أن (النفس الذهبية) ليست كاملة، رغم أنها أفضل من الست الباقيات، وهي تكمل حين تبلغ مرتبة (الإكسير) وتصير قادرة على التأثير في المعادن أو النفوس الأخرى أي تصير (قطب الوجود)[1].

2. طريق العجم الذين يشبّهون النفوس بالأواني ويقولون إن ثمة أوان (أونفوساً) فارغة تماماً من الخير والشر على حد سواء، وهي مهيأة لقبول كل ما يلقى فيها، خيراً كان أو شراً، وهناك أخرى مليئة بالخير وحده، وغيرها مليئة بالشر وحده وأفضل النفوس (أو الأواني) ما كان محتاجاً للعلاج ليخلص من الشر ويستبدله بخير أكثر.
3. طريق أهل اليمن الذين يشبّهون النفوس بالأرض، فكما توجد أرض ذات تربة صالحة مهيأة للبذر والحرث، ثمة

(1) المصدر نفسه ص5.

أخرى ذات التربة نفسها غير أنها ملأى بالحشائش والأعشاب، وكلتاهما على كل حال لا يمكن زراعته دون ماء يرويها وهو ما يرمز إليه بـ(التوفيق الإلهي). ومهمة الشيخ – متعاوناً فيها مع السالك – أن يعد الأرض بإزالة ما فيها من حشائش، وأن يعزقها ثم يبذر بذور الخير في انتظار (الغيث الرباني)، وبعدها تأتي كل أرض بحصادها طبقاً لاستعدادها ونوع تربتها[1].

القلب:

يعتبر (القلب) أهم جزء من بناء الإنسان، وهو لا يقصد به لدى الصوفية ذلك العضو المعروف في جسد الإنسان والذي يدفع الدم إلى الأعضاء الأخرى وحسب بل المعني ذلك الجانب الرمزي من جوانب وجود الإنسان الروحي، وقد استقى القلب أهميته الكبرى هذه من أن جميع ما يصيبه السالك في طريق التصوف من الشهود والمعرفة والحب إنما يتجلى فيه، فالقلب هو محل (نور الكشف) الذي يعرف العبد ربه به ويحبه[2]. ومن هنا كانت ضرورة إعداد القلب لتقبل (النور الإلهي) بتطهيره وتنقيته من كل شائبة تحول بينه وبين تقبل هذا النور.

وفي القلب ينعكس الصراع الدائم بين الإنسان ونفسه ويظهر في التو واللحظة، ويعتمد موقفه على نتيجة هذا الصراع ونهايته، فهو يموت إن كانت الغلبة للنفس، وينتعش ويحيا إذا هزمت ويتهيأ لقبول الجزاء من بعد هزيمتها، وكما نرى تأثر القلب السريع بنتيجة صراع الإنسان مع نفسه، ونلاحظ أيضاً سرعة استجابته لتأثير النفس وشرورها وأنه لا حول له ولا قوة لديه أمام جبروتها وطغيانها كما نلاحظ تذبذبه وعدم إستقراره وقلقه و(هوائيته) أو بتعبير أدق: تقلبه ولذا سمي بـ(القلب)، فوجب إذن مراقبته وملاحظته كما تراقب النفس وتلاحظ بغاية العناية والاهتمام ذلك لأن (الله

(1) شرح الوغليسية ص183.
(2) إعانة المتوجه المسكين ص5.

لا ينظر إلى صورنا وأجسامنا ولكن ينظر إلى قلوبنا) حسب التعبير النبوي الشريف[1].

إن الضرورة تحتم على السالك، كما سبق القول، أن يكبت نفسه ويكبح جماح رغباتها ويخمد شهواتها حتى يحمي ذاته من مخاطرها والضرورة هي التي تلزمه بتطهير قلبه عند إعداده لتلقي النور الإلهي، وهذا بالطبع يحتاج إلى اختبار القلوب وفحصها وتمييزها بعضها عن بعض لتقرير ما ينبغي عمله للحصول على أفضل النتائج.

في كتابه (إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين) يقول مولانا زروق: (إن القلب هو أصل الخير أو الشر ومحل النور أو الظلمة وإن حياته أو موته هم مفتاحا نفعه أو ضره، وتبعاً لحالة النفس ومدى أهميتها على القلب نجد أن ثمة ثلاثة أنواع من القلوب:

1. قلب حي صحيح .
2. قلب ميت.
3. قلب حي لكنه مريض.

فالأول ليس بحاجة لعلاج لأنه حي صحيح نقي طاهر، والثاني لا جدوى من علاجه لموته واليأس من حياته، أما الثالث فهو الذي يقصد بالعلاج والتنقية تلافياً لاستشراء الداء وتمكنه فيقضي عليه، وهذا النوع الأخير من القلوب هو موطن اهتمام الصوفية وواجب الشيخ اختبار قلب السالك ومعرفة أي قلب هو ثم يقرر من بعد ذلك أنجع سبل العلاج، وهذا يتم على ثلاث مراحل: ينظر أولاً في القلب ويعرف إن كان حياً أو ميتاً، ثم يعّين المرض ويحدد الداء، ويصف بعد ذلك الدواء[2].

وفي المرحلة الأولي يمكن معرفة حالة القلب بثلاثة أشياء تشير إلى موقف العبد من ربه ومن نفسه ومن الخلق: أعمال الجوارح وحركات

(1) إعانة المتوجه المسكين ص5.
(2) المصدر نفسه.

القلوب، وتجنح إليه النفوس مثلما قال أبوالحسن الشاذلي:

(عمي البصيرة في ثلاثة: إرسال الجوارح في معاصي الله، والتصنيع في طاعة الله والطمع في خلق الله، فمن أدعى البصيرة مع واحدة من هذه فهو مفترٍ كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب)[1].

ومن علامات حياة القلب موقعه من عمل الإنسان بأن يألم للذنب ويسر بالعمل الصالح فإن فر من الذنب للألم الذي يأتيه من إرتكابه وطلب العمل الصالح للسرور الذي يدخل عليه به فهو قلب حي وهو قلب حي. كذلك حين يأسف على ما فاته من عمل الخير ويحزن لما يأتيه من إثم، أما القلب الميت فلا يحس بشيء من هذا الإطلاق على حد قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)[2].

وتأتي الخطوة التالية إذا كان القلب لا يزال حياً بمعرفة حالته، وهي حالة من ثلاث:

1. أن تكون الحياة فيه أقوى من الداء، وهنا يسهل الشفاء.
2. أن يكون الداء مستفحلاً في القلب والحياة فيه أضعف من أن تقاوم الداء وهذا عرض جد خطير.
3. أن تكون الحياة والداء متساويين، وهنا نجد أنفسنا أمام احتمالين: إما أن تكون لأحدهما اليد العليا حيث يكون الرجاء في قهر الداء وانتصار الحياة، أو يتكافآن بوجه لا يمكن تغليب الصحة فيه على العلة، وهنا يسود اليأس والقنوط[3].

ثم تجيء المرحلة الثالثة: العلاج وينبغي أن نذكر أن علاج (القلب الساذج) الذي لم يعالج من قبل أسهل كثيراً من علاج (القلب المنتكس)

(1) قواعد التصوف ص4 ، إعانة المتوجه المسكين ص3.
(2) إعانة المتوجه المسكين ص10 – 11.

(3) إعانة المتوجه المسكين ص5 – 7.

الذي عولج قبل وبدت خيانته ونقضه للعهد مما يشير إلى ضعفه وسلبيته في مواجهة هوى النفس ومغريات الدنيا، أما القلب الساذج فهو قادر احتمالاً على بلوغ أعلى درجات الطهر والنقاء إذا ما وجد الأيدي القديرة واتبع الطريق القويم، وهو حين يشفي من علته يتلقى النور الذي يقذف فيه حيث يحل (الحق) ويتمكن فيه طالما روقب بحذر خشية أن يعاوده الداء. وتكون مراقبة القلب دائمة في جميع الأوقات باللجوء إلى الله وتجديد التوبة دائما، والأهم من هذا برد النفس في كل ما توسوس به وتأمر[1].

ولكي يُعان القلب المريض على استعادة صحته هناك ثلاثة طرق:

1. التقليل من الطعام بشرط ألا يؤثر في البدن أو يؤذي الذهن.
2. صحبة أهل الله.
3. تذكر ثلاثة أشياء: أصل العبد ومنشأه، الموت والقبر، وموقفه أمام رب السموات والأرض وفضيحته أمام الخلق في يوم الحساب، فبتناول القليل من الطعام ينظف القلب وبصحبة أهل الحق يشتاق إلى تقليدهم، وبالذكر يعينه الله على نفسه، فالله يعين العبد بحسب نيته ويكشف له بحسب همته[2].

وفي أثناء هذا كله ينبغي أن يوجه الاهتمام إلى النفس ومراقبتها وهي بطبيعتها تميل إلى النسيان فإن قاومت النفس الذكر وكان القلب عاجزاً عن العمل بمفرده، اتبعت طرق أخرى لإجبار النفس على التذكر وترك القلب يواصل عمله، وعلى السالك هنا أن يذهب إلى (الخلوة) بالذكر أو بدونه، والاستغفار من الذنب وإن كان بغير الشعور بحضور الله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة القبور، وهذا ما يعنيه الحديث النبوي حين يقول: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب). و(الصلاة عليّ نور في القلب ونور

(1) + (2) إعانة المتوجه المسكين ص5.

في القلب ونور على الصراط، وهي أمحق للذنوب من الماء البارد للنار). و(زوروا المقابر فإنها تذكر بالآخرة)[1].

وحين ترفض النفس إتباع إحدى هذه الطرق، لانشغالها بالحياة الدنيا ولعنادها، يجب أن تجبر عليه دون النظر إلى منافع العمل أو كماله، فإن هذا سيخضعها ويرجعها عما تربت عليه، فإن لم يكن فما على السالك إلا أن يلجأ إلى ترديد قواعد الدين السهلة أو كما يسميها: (العقائد المجردة حتى من الطبيعة البشرية[2].

استدراك حقوق الله:

كان الموقف الأول النية هو موقف العبد من النفس، أما الثاني فهو موقفه من الرب، وحين ينوي العبد التوبة فإن عليه بعدها أن يؤدي حقوق الله ويستدرك ما فاته منها حتى يثبت حسن نيته ويعيد دينه نحو ربه. فإن كان تاركاً للصلاة مثلاً، فواجبه ألا يصلي الفروض في أوقاتها فحسب بل أن يؤدي قضاء ما فاته من أوقات، وهذا ينطبق على الزكاة والصوم والحج كذلك، والعبد ذلك أداءً لدين الله واستجابة لأوامره واستدراكاً لحقه عليه، وعليه أن يؤدي بالضبط ما فاته من صلوات ومقدار ما حجبه من زكاة، بلا زيادة أو نقصان، إن كان يعرف العدد والمقدار فإن لم يكن يعرف فليقدره تقديراً لا مبالغة فيه حتى لا تجد النفس ثقلاً لا تحتمله

وتنكص عن الأمر كله خشية عسر الأداء وثقل الواجب[3]. ويحتاج التائب هنا إلى (سياسة) النفس وقيادتها بلطف في الطريق المستقيم، كما يُسوس الحيوان الضاري ويُروض، وينبغي أن لا يحمّلها عنتاً وبخاصة المبتدئ الذي يأخذ القليل من القضاء ثم يزيد شيئاً فشيئاً... فالدين يسر وليس عسراً على كل حال، أما الفرض الصعب فيأتي في مرحلة تالية حين لا يخشى نكوص

(1) المصدر نفسه ص9.
(2) المصدر نفسه ص9 – 10.
(3) إعانة المتوجه المسكين ص5.

النفس أو فرارها منه وهذا ما ينطبق على كل شعائر الدين، جسدية كانت كالصلاة والحج أو في ما يملك كالزكاة ونحوها[1].

ومهما كان الأمر فغن على السالك أن يذكر في أداء ما فاته أن الفروض تسبق النوافل لأن الفروض واجبة في حين أن النوافل وسيلة تقرب إلى الرب، فالله لا يريد لعبده قتل نفسه كي يرضيه وكل ما يريده منه أن يعود إلى الطريق القويم[2]. وليست فوائد استدراك حقوق الله مقصورة على إصلاح موقف العبد من ربه فحسب وإن كان أجل الفوائد، بل ثمة منافع أخرى ظاهرة يحصل عليها العبد السالك: أولها جعل الاستقامة في المستقبل أيسر وأسهل، وثانيهما تفريغ القلب من شواغله ما عدا(الحق)، وثالثهما الوقوف في محل الصدق أي محل تنوير القلب، والغفلة عن هذا الاستدراك بالطبع تؤدي بالقلب إلى القصور عن بلوغ كماله، وأوبة النفس إلى حالتها السابقة سادرة في غيها ماضية في طريق الذنب وعلى السالك أن يحذر في محاولاته إصلاح موقفه أمام الرب إتباع الرخص في الفروض والتساهل فيها، كما يحذر المبالغة في أدائها والإفراط في القيام بها والعجلة والتسرع فيها، وذلك لأن هذه الفروض هي الصلة المتصلة بين الرب والعبد وعلى السالك أن يحافظ عليها باعتدال ويرعاها بتأن دون إفراط ولا تفريط[3].

رد المظالم:

ثم يأتي من بعد ذلك القسم الثالث المكمل لأركان التوبة: وهو ما يعالج موقف العبد من الناس فإن من اللازم له، وهو يتحكم في نفسه ويؤدي حق الله أن يرد دين الخلق عليه، فقد قيل إن الذنوب ثلاثة: ذنب لا يغفره الله، وهو الشرك، وذنب لا يتركه الله، وهو مظالم العباد، وذنب لا يعبأ الله به وهو سائر السيئات.

(1) إعانة المتوجه المسكين ص 11 – 12.
(2) + (3) إعانة المتوجه المسكين ص 12.

وحتى تتم أركان التوبة وتصير توبة نصوحة، ينبغي على السالك أن يعترف إما لنفسه أو يشهد عليه غيره من الناس، بفعل الظلم، ويعمل بقدر الإمكان على تعويض المظلوم بطريقة مناسبة له، وهو سيجد أن أعمال الظلم تندرج تحت ثلاثة أنواع:

1. في الجسم: كالقتل والجرح.
2. في المال: كالسرقة والنهب وخيانة الأمانة.
3. في العرض: كارتكاب الزنا والغيبة وشهادة الزور.

وهو يستطيع في بعض الأحوال التي يمكن فيها إبداء الأسف والاعتذار وطلب الصفح ودفع المال على وجه التعويض واتهام النفس أمام الناس أن يفعل ذلك مباشرة ويقوم به نحو مظلومه، أما عند تعذره لضرر قد يلحق بالفريقين كارتكاب الزنا مع زوجة رجل دون علمه فإن عليه اتخاذ سبيل آخر يجنبه ويجنب المظلوم أيضا حرج الموقف وجرح الكرامة فيتجه إلى معاملته باحترام وتوقير، ويطلب المغفرة من الله، ويكفر عن سيئته، والمهم جداً أن يعي التائب تماماً أن من ارتكب ذنباً في السر عليه أن يتوب منه في السر لأن الله سبحانه لا يريد فضيحتنا وضرنا والتشهير بنا أمام العالمين(1) ثلاث نتائج تظهر من هذا الموقف تجاه الناس:

1. تنوير القلب: بإدخال السرور على صاحب الحق بدلاً من ظلامته بإدخال الكربة عليه.
2. تحقيق القصد من التوبة بطرح النفس وإطراح هواها.
3. وجود العز الذي لا نفاذ له بالخضوع لله تعالى وإتباع أوامره وبذل المال وإظهار الحال. كما تظهر عن التمسك بموقف الظلم ثلاثة نتائج أخرى:

-تمكين الظلمة من القلب.

(1) إعانة المتوجه المسكين ص3، القرآن الكريم (النساء 48): إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء .

-زيادة الجرأة في المستقبل على ارتكاب الظلم.

-نقض التوبة وعدم الاستفادة منها

والسؤال الذي يمكن أن يثار هنا هو: لماذا نرى كثيراً من الناس ينفرون من العدل ويتمسكون بارتكاب الظلم؟ والجواب هو أن ثمة عوامل رئيسية لهذا تنبثق من الأنانية والوسوسة أو كما يعبر عنها الشيخ:

1. الكبر وعزة النفس عند الظلم.
2. البخل والتأويل.
3. التوهم في عدم الإسعاف عند التحلل أو عدم القبول عند التوجه. وللقضاء على هذا كله لابد للسالك من إذلال نفسه والثقة الكاملة في القبول وتقوية همته بالتفكير في الآخرة وما سيلقاه فيها من عقاب إذا لم ينل المظلوم حقه في هذه الدنيا، وهذا ما يستفاد بالنظر في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الظلم والظالمين(1).

الاستغفار:

الإنسان خطأ بالطبيعة، تدفعه نفسه لإرضاء رغباتها وإشباع شهواتها بأن تجره إلى ارتكاب الإثم والفواحش، وهو قد يأتي الذنوب حتى وإن بلغ المرتبة العليا من الطهارة والنقاء عن طريق المجاهدة لأن الإنسان العادي غير معصوم من الخطأ، إذ ليس ثمة معصوم سوى الأنبياء والملائكة الذين اصطفاهم الله اختياراً ليكونوا خلوا من المعصية الكبيرة(2)، وفضلاً عن ذلك فإن النبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه كان عليه أن يكون على حذر وتحوط وأن يطلب المغفرة من الله صون الله له، كي يتجاوز عن هفواته ويعفو عنه.

(1) + (2) إعانة المتوجه المسكين ص14

وإذا كان الاستغفار ضرورة للمؤمن فهو لازم لا غنى عنه للسالك، يقوم به منذ البداية الأولى في رحلته الروحية كمدخل للاعتراف وإظهار الحزن والندم على ما أتاه ودليل على توبته منه، وهو يعني ظهور العبد أمام الرب كما هو مجرداً من الحول والقوة، معتمداً على رحمة الله فقيراً إلى مغفرته وعفوه.
وعلى هذا فإن التوبة لا تعتبر خالصة صادقة بدون استغفار وكيف يمكن أن تكون كذلك والكبر لا يزال راسخاً في نفوسنا حتى نستصعب الاعتراف بأخطائنا أمام ربنا ونرجو صفحه وغفرانه؟ وإن قلباً به ذرة من كبر لهو قلب قاس يحتاج لكي يرطب، إلى إزالة الكبر منه، وهذا لا يكون إلا بإذلال نفوسنا أمام الله حتى ننال منه القبول. ويصبح الاستغفار هنا واجباً وفرضاً علينا أن نقوم به أمام الرب، لا مجرد مبادرة إنسانية غير ملزمة في شيء، ثم يترك الأمر لله وحده في أن يغفر لنا أو لا يغفر، لكن هذا الموقف لا يمنعنا من الرجاء في الله الذي أكد لنا في كتابه العزيز أنه يغفر لمن يشاء من عباده المؤمنين ذنوبهم جميعاً إلا أن يشرك به[1].
وطبيعي أن نرجو المغفرة لأنفسنا ونطلبها، بيد أننا يمكن أن نستغفر لغيرنا أيضاً ممن ظلمناهم وأسأنا إليهم في شيء، نطلب من الله أن يغفر لنا إساءتنا إليهم ونتوسل إليه أن يعفو عن خطاياهم كذلك، فالله سبحانه برحمته الواسعة يغفر لكل مخلوقاته وتمتد رحمته لتشملهم جميعاً بمن فيهم المذنبون الذين لا يستغفرون ... إن شاء.

التقوى:

التوبة أمر يتعلق بالماضي، وهي ومتطلباتهم مرحلة ذات أثر رجعي يتصل بما فات، فإذا قطعها السالك تقدم إلى مرحلة أخرى تخص المستقبل وعمله فيه... تلك هي (التقوى) التي تعني اجتناب المحارم في حياة نقية من الشوائب في الطريق إلى الحق كما هو الحال في جميع مراحل الطريق الأخرى.

(1) إعانة المتوجه المسكين ص14

ويجب على السالك أن يعي ما يفعل ويقتنع بأن خطواته سليمة غير متعثرة، وهو ما يحتاج إلى معرفة دوافع التقوى وثمراتها ومعرفة معناها ومواقفها كذلك، وبدون هذه المعرفة وهذا الوعي يكون السالك كأي فقير جاهل، تصوفه مجرد تقليد لا يؤدي إلى الحق.
وتنقسم دوافع التوبة أو بواعثها إلى أقسام أربعة:
يحتاج السالك في هذا كله إلى المعرفة الجيدة بأوامر الله ونواهيه ويعمل صالحاً، وهو لا يكون على وعي بتقاه إلا إذا استعد بقدر ما من المعرفة الدينية تمكنه من التفرقة بين الخطأ والصواب وتبين له نواحي التقوى وجوانبها المختلفة.
أولها: العلم بفضلها وبلواحق الخير التي تلحق بأهلها، ويكفي هنا أن نعلم أن التقوى ذكرت في القرآن الكريم قريباً من مائتي مرة.
وثانيهما: ذم نقيضها وبخسه ومصيبة تاركها ونكسه، فإن الله ورسوله ذم نقيض التقوى وألا يكون العبد تقياً يعني ذله في الدنيا والآخرة، واعتباره من الأشرار وعقابه في الدارين، وسوء الخاتمة لغضب الله، وألا ينظر الله إليه.
وثالثها: العلم بتفاصيلها بعد الباعث بالاطلاع على مصدر العلوم الدينية في الكتب وصحبة الصالحين حتى يتمكن العلم في القلب ويصبح راجحاً بعد مرجوحيته.

رابعاً: العلم بكيفية التقوى وتوقيتها، وذلك بأداء الفرائض في أوقاتها دون زيادة أو بدعة، بل طبقاً للقرآن والسنة، فإن الجهل في هذا الباب مهلك وأيضاً بالتمييز بين الحلال والحرام حتى يأخذ بتقوى ويترك بتقوى ويجتنب مواطن الشبهات.

وحين تثبت معرفة فائدة التقوى في القلب يتعين قمع أي مخاطرة من خواطر الإثم تراود السالك بمجرد أن تظهر، إذ كما قيل: بداية الذنب خطرة كما أن أول الغيث قطرة، فتحارب بالكراهة وإلا صارت معارضة، وهنا تقابل بالكراهة وإلا صبحت وسوسة فتواجه بالمجاهدة وإلا أضحت شهوة مصحوبة بالهوى وعندها يذهب عقل العبد وعلمه وفهمه ويمسي أضعف من أن ينقذ نفسه من هاوية الإثم التي لا قرار لها[1].

ثلاثة أشياء تفسد التقوى: وثمة ثلاثة طرق للتغلب عليها:

1. إطلاق اللسان في غيبة العباد، وهو ينتج من التدخل في ما لا يعني ويمكن التغلب عليه بقهر النفس.
2. عدم التوقف في التناول مما في الدنيا من المغريات، وهو ناتج عن الطمع والجشع ويمكن علاجه بالقناعة.
3. التعلق بالخلائق والبعد عن التعلق بالخالق، وهو نتيجة الغفلة عن تقلبات الدهر والجهل بحقيقة الدنيا، ويشفى بالتفكير في الدنيا وأحوالها وتذكر الحق[2].

على أن فروع التوبة والتقوى كثيرة على كل حال، ولكل مرحلة من مراحل الطريق حزب منهما خاص به، ولذا قيل: (إن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإن حسنات المقربين سيئات أهل الكمال) بيد أن لب التوبة جوهر التقوى في كل مرحلة يتخلص في كلمات ثلاث:

- العزم.
- الحزم.
- الحكم.

أي وجود النية الصادقة، والتحكم في النفس، وإتباع الدين في أوامره ونواهيه، وعلى السالك أن يعلم أن سنة الله تتضمن أن كل مبتدئ سيواجه بثلاثة أشياء تنبهه إلى عيوبه وتذكره بالماضي لتعده للمستقبل:

1. تسلط الخلق عليه باللوم والتبكيت ومعاملتهم له بالهجر والتعنيت فيرجع إلى ربه يتذكر ذنوبه.
2. إشتداد نفسه عليه بالتلون والوسواس، فيذكر ربه ويحذر سبب الذنب.

(1) + (2) إعانة المتوجه المسكين ص14.

3. توجه البلايا والمحن وتخلف العوائد والمؤن امتحاناً من الله له[1].

وأخيراً فإن على السالك ألا ينسى طبيعته البشرية وأنه عرضة لضعف الإرادة معرض لارتكاب الذنب في كل آن، صغيرة وكبيرة، سواء أحس به أو لم يحس، كما يجب ألا ينسى أنه بشر، وأنه عبدالله، ولله الحق المطلق في أن يضله أو يهديه وأن يفعل به ما يشاء، وأن يعرف أن الذنوب ثلاثة:

1. مكفّرات: تدفعه للتفكير في حالة والتدبر في موقفه وهي لمن يرضى بقدره دون جدل أو سخط.
2. مذّكرات: تذكره بسوء عمله وتنبهه إلى غلطة وهي للغافلين.

3. عقوبات: وهي التي تزيد صاحبها ضجراً وسخطاً وضيقاً بالقضاء.
وما على العبد إلا الوقوف موقف التسليم أمام ربه وأن يعوذ به من غضبه بطلب عفوه ورجاء مغفرته ... نسأل الله العافية[2].

---

(1) إعانة المتوجه المسكين ص20.
(2) المصدر نفسه ص21.

في التطبيق

عرضنا فيما سبق من الصفحات بعض نظريات التصوف وأفكاره كما رآها مولانا زروق، ويبقى علينا الآن أن نتعرض للناحية العملية من تعاليمه ووسائل تأمين رحلة السالك للطريق، ومن الضروري هنا أن نأخذ في الحسبان كما سبقت الإشارة من قبل إلى أن العلم والعمل لا ينفصلان وأن النظرية والتطبيق مرتبطان يسند أحدهما الآخر، وأهم ما في الأمر بالنسبة للسالك في أثناء سعيه إلى الحق هو وعيه بكل خطوة يخطوها منذ بداية إرادته حتى بلوغ غايته ومنذ أول يوم يصحب فيه (أهل الحق)، حيث يوم فنائه في (الحق) وهو هنا يحتاج إلى معرفة معنى (الصحبة) الحقيقي ووجود (الشيخ) الصادق، وأن يأخذ على عاتقه أداء متطلبات الطريق.

الصحبة:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الجليس الصالح خير من الوحدة،والوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح كالعطار إن لم ينلك من طيبه أصبت ريحه، والجليس السوء إذا لم يصبك من شر أصابك من نتنه)[1].

من هذا الحديث وغيره ينطلق شيخنا ليقرر ضرورة الصحبة للمبتدئ حتى يكون له مثل من الذين سبقوه في الطريق ويجد العون في عبوره فيمضي فيها وهو يشعر أن ثمة من يرافقه ويشاركه همومه واهتماماته فإن غيبة الرفيق تؤدي إلى إحساس السالك بالضيق والوحشة وقد يضل الطريق[2]. لكن هذه الصحبة على كل حال ليست مطلقة بل هي مقيدة بحسن إختيار الصاحب وتخير الرفيق مجانباً في هذا – على حد تعبير سهل التستري – ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. فالصنف الأول بلغ به الكبر حداً يحتقر فيه كل من

(1) قارن صحيح البخاري/ ذبائح بيوع، مسند ابن حنبل.
(2) شرح المباحث الأصلية ص172.

عداه، والثاني منافق مظهر لعيوب غيره غير ملتفت لعيوبه، الثالث يدعي ما لم يبلغه رغبة في رفع قدره في أعين الناس دون حق ولا حقيقة وحباً في الشهرة والظهور[1].

من الواجب إذن أن ينتقي السالك أصحابه، وأن يختار واحداً من ثلاثة أو كلهم إن أمكن: صاحب للآخرة، وهو التقي ذو الدين العالم بمسائل العقيدة، وصاحب للدنيا، وهو ذو الأخلاق الحميدة، وصاحب يتخذ صديقاً بحيث يكفي سوء أعماله[2]. والخير كل الخير في وجود الصاحب الطيب ومعرفة غاية الطريق معه، أو كما قال أبوالحسن الشاذلي:

(أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا إلى حيث ترجو ثواب الله ولا تجلس غالباً إلا حيث تأمن معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطفي نفسك إلا من تزداد به يقيناً)[3].

ولا يقتصر التحذير في الصحبة على هذه الأصناف من الناس، بل هو يركز على التحذير من صحبة أخطر على سمعة السالك وأخلاقه، هي صحبة الأحداث، وإذا كان المفهوم العام للأحداث إنهم صغار السن، فإن معنى (الحدث) لدى مولانا زروق يتسع حتى ليشتمل حدث العقل والنفس معاً، حتى وإن كان عمره سبعين عاماً كما يقول. وهو يعرف الحدث بأنه كل من لا يوافقك على طريقك، أو كما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: (يا ابن عمران؟ كن يقظاً وارتضي لنفسك إخواناً، وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فهو لك عدو يُقسي قلبك ويباعدك مني). فالصاحب في الواقع جزء من الإنسان، كجزئية الرقعة في الثوب، تظهر وتلفت النظر إن لم تكن من قماش الثوب ولونه، وكذلك الصاحب إن لم يكن قريباً من صاحبه في الطبع والفكر والسلوك[4].

(1) الجامع لجمل من الفوائد والمنافع ص171 – 172.
(2)+ (3) عدة المريد الصادق ص51.
(4) شرح المباحث الأصلية ص171 – 172.

الشيخ:

ليس سلوك الطريق سهلاً كما يبدو، بل هو أمر تحفه المخاطر والمهالك ولكي يكون السالك آمناً من عثراته لابد له من مرشد أو دليل خبر الطريق قلبه وعلم مصاعبه، وهو (الشيخ) الذي لا غنى عنه للسالك، غير أنه يجب أن يتحقق قبل أن يسلم إليه قياده ويودع لديه نفسه، من صواب الثقة فيه والاعتماد عليه، فإن من المخاطر الوثوق بدليل لا يعرف الطريق ولا يعلم مزالقها وشعابها، ويؤكد مولانا زروق في كثير من أعماله على أهمية دور الشيخ ويحذر في الوقت ذاته من الانخداع بمدعى المشيخة الذين لا يرمون في الواقع إلا إلى كسب السمعة والشهرة وهم ليسوا من شيوخ الصوفية في شيء. ثم يشير إلى شروط كثيرة على الشيخ أن يرعاها ويتصف بها حتى يمكنه قيادة السالكين في الطريق[1].

من هو الدليل الصالح؟ يجيب مولانا زروق بأنه من ملك ثلاث صفات:

أولها: أن يعرف الطريق كما يعرف نفسه.

وثانيها: أن يعرف أنواع السالكين الذين يقودهم حتى يعين كلا منهم بأنسب وسائل السلوك له ويدرك قدرته على تكملة الرحلة وبلوغ الغاية.

وثالثهما: أن يعتمد على العلم والخبرة كليهما، إذ لا يكفي أن يعرف (خارطة) الطريق بل يلزمه خبرتها وعبورها بنفسه والتأكد من معالمها قبل قيادة غيره فيها، فالشيخ هنا يشبه الطبيب الذي تعتمد معرفته بخواص المواد والأعشاب الدوائية على التجربة، تماماً كما تعتمد تجربته على علمه بها[2].

وعلى الرغم من المركز المهم الذي يشغله الشيخ، فإن السالك يُنصح بأن لا ينتظر حتى يلقاه، إذ لعله لا يلقاه أبداً، فالشيخ الحقيقي في الواقع هو نور من الله يرسل لمن ظهر صدقه وبدأ شوقه إلى السير في الطريق، وهو إن لم يجده في البداية فما عليه سوى الرجوع إلى مصدري العلم بالطريق.

---

(1) شرح المباحث الأصلية ص171 – 172.

(2) عدة المريد الصادق ص39 – 45.

الكتاب والسنة، ثم له في من سبقه أسوة، فلا يكون كالمريض الذي يرفض تناول الدواء إلى أن يأتي الطبيب بشخصه وقد تكون النتيجة ألا يشفي حتى وإن جاء الطبيب لانتشار العلة واستفحالها بسبب رفضه تناول الدواء[1].

هكذا الأمر، وكما أن ثمة أطباء راسخين في طبهم وآخرين لا يدرون من الطب شيئاً، فإن أصناف المشيخة كثيرة يخص منها مولانا زروق بالذكر ثلاثة:

1. شيخ الصورة: وهو من همه في الوجه واللباس، ولا نفع فيه ولا خير يأتي منه.
2. شيخ الطريقة: ولابد له من العلم لمعاملة النفس، والعقل لمعاملة الخلق والعمل لمعاملة الحق.
3. شيخ الحقيقة: وهو لا يحتاج لشيء لأن صدقه يشمل كل شيء وهو الشيخ بمعناه الحقيقي، وهو يعامل المحب بالقبول والمنتسب بالرعاية. والمريد بالاهتمام مؤدياً حقه بعد أداء حقوق الله ورسوله[2]. وهذا الشيخ هو كما يصفه ابن عطاء الله السكندري:

(ليس شيخك من سمعت منه وإنما شيخك من أخذت عنه, وليس شيخك من واجهتك عباراته إنما شيخك من سرت فيك إشاراته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك من نصر بك حاله، شيخك الذي أخرجك من سجن ودخل بك على المولى، شيخك الذي لا زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيها أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار لك حتى وصلت إليه ولا تزال محاذياً حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك؟[3].

(1) شرح المباحث الأصلية ص163.

(2) المصدر نفسه.

(3) عدة المريد الصادق ص45 – 46.

فإذا ما لقي السالك الشيخ أسلم له نفسه بالكلية وأتبع ما يأتيه من إرشاد، وصار كالجثة بين يدي الغاسل، ويعود إليه في كل ما يخص تطوره الروحي ويستشيره في كل كبيرة وصغيرة من شئون حياته، وعليه أن يحترمه يوقره ويكون كالابن البار وليس عليه أن يتبعه ويقلده في كل سلوك، لأن الشيخ أولاً ليس معصوماً من الخطأ على كل حال، فلا تجب طاعته إلا فيما يتفق مع الكتاب والسنة، وثانياً لأن ثمة أعمالاً خاصة مقصورة على الشيخ الذي بلغ مرتبة لم يبلغها المريد بعد[1].

ولنذكر أخيراً أن العلاقة بين الشيخ ومريده هي كالعلاقة بين الطبيب ومريضه، وكما أن من الضروري للطبيب أن يعرف حال مريضه ليكتشف الداء ويصف الدواء، كذلك من الواجب على المريد أن يكشف للشيخ أسراره تماماً كما أن من حق المريض أن يعرف مقدرة طبيبه وتمكنه من علمه ومدى توافق خبرته مع هذا العلم، والمقياس في الأمر كله هو إتباع الكتاب والسنة بغيرها ى يأمن أحد من شر الطريق[2].

العهد:

أما وقد وجد السالك شيخ الحقيقة وحظي منه بالقبول بأن يصحبه في الطريق، فإن الخطوة التالية هي تأسيس علاقة متينة به تكون باتفاق متبادل بين الاثنين بنوع من التعاقد يربط المريد بالشيخ، أو السالك بالدليل، ويسمى(العهد) وهو يكون في صور كثيرة متعددة منها: المصافحة، وأخذ السبحة، ولبس الخرقة، وتلقين الذكر، وغيرها. غير أن مولانا زروق يختار أبسطها وأيسرها تأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم حين عاهد أصحابه بقوله:

(بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا

(1) وصية مخطوط القاهرة 550/ تصوف ص3.
(2) المصدر نفسه ص47.

أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه)[1].

ويعلق مولانا زروق بالقول إن هذه بيعه كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد أن ثبت الإيمان فيهم لتأكيد العهد في لزوم خصائل الإيمان. ويستخلص منها الإشارة إلى أن العصمة متعذرة وأن التوبة معروضة وأن الطاعة لا تكون إلا في المعروف[2]. وعلى كل حال فإن العهد كما يستفاد من وصف مولانا زروق لطريقة أخذه، مؤسس على ثلاثة أصول ناقشناها فيما سبق، هي: التوبة ومتطلباتها، والاستغفار، والتقوى، وبعدها يصير المريد سالكاً وينسب للطريقة بتلقينه الذكر وهو ما يعني خطوة أخرى في الطريق.

الذكر:

الواجب على الإنسان الوعي بذاته وما يحيط به، وهو في هذا يعني أن يكون مدركاً لعبوديته في مقابل ربوبية الله، أي أن يستشرق معنى الظواهر الوجودية في نفسه أو في الكون، وهنا نجد أن (التفكر) لازم لكل من يريد بلوغ المعرفة أو الحقيقة.

التفكر: في الواقع هو عبارة عن عملية يقوم بها الجزء الواعي من النفس المهيأ للانطلاق في طريق الحقيقة وعلى الإنسان ألا يهمل التفكير في أثناء محاسبة نفسه وكشف عيوبها والتخلص منها حتى لا يفقد صلته بالموضوعات الوجودية ويصير كالبهيمة المجردة من لذة التفكير واكتشاف

(1) عدة المريد الصادق ص45، قارن: الدرامي/ إمارة.
(2) المصدر نفسه ص47.

ما وراء مظاهر الوجود، فإذا ما تفكر المرء بوعي وانتباه انتقل إلى مرحلة أخرى هي مرحلة (التذكُّر)، ولا يكتفي هنا بأن يتذكر دائماً مراحل حياته منذ كان نطفة في رحم أمه حتى يوم وفاته، بل كذلك أنه في هذا كله ليس سوى عبدلله لا إرادة له بالمعني المطلق، في أن يقرر لنفسه ما يشاء، وأن كل ما خلا الله باطل[1].

فالتذكر عند شيخنا يحتل مكانة مهمة للغاية في الطريق الصوفي، وعنده أن الإنسان بتذكره نشأته من ماء مهين ونهايته جيفة في الأرض يأكلها الدود، يدرك لتوه أن هذه الرحلة القصيرة في هذا العالم الزائل ليست سوى مرحلة مؤقتة من مراحل وجوده، عليه أن يحيا حياة فيها كريمة بعيدة عن الذنب والزلل حتى ينال ثوابه في الآخرة من الله.

كيف يمكن للإنسان أن يحقق هذا وهو محاطب بمغريات الدنيا ولذاتها؟ وليس هذا سهلاً بالطبع، لكن العون من الله سيأتيه حين يحارب الشر ويقمع هوى النفس ويكبح شهوة الجسد... حتى يأتي عون الله ينبغي رجاؤه منه كي يسبغ الله رحمته على الإنسان ويعينه على نفسه وعلى الدنيا بما فيهما من شرور.. أي التوسل إلى مصدر العون والتوجه إليه، وهذا هو (ذكر الله).

والذكر نوعان:

ذكر بسيط، كما في الصلاة ونحوها ويقوم به كل مؤمن، وذكر صوفي للسالك مصاغ في أساليب خاصة وصور معينة ومؤسس على قواعد ومبادئ محددة على نمط معروف لغاية مطلوبة وهو إن كان عند أهل التصوف بالغ الأهمية، فعند مولانا زروق إحدى وسائط الوصول، لأن الذكر توجه مباشر من العبد إلى الرب وهو في حالة وعي كاملة بحضور الرب في القلب، وهنا يرد سؤال يتصل بهذا(الحضور) هل من اللازم للذاكر أن يركز على موضوع ذكره؟ أعني الله ذاته؟

(1) المصدر نفسه ص47.

شكا مريد لشيخه قائلاً: (أني أذكر الله باللسان والقلب غافل)، فقل الشيخ: (أحمده لأنه جعل لسانك مناسباً لذلك، ماذا كنت تفعل لو وضع الغيبة مكانه؟) فالله أكرم من أن يذكره العبد بلسانه، ولا يفيض عليه حضوره في قلبه، ولا يهم في البداية لو ذكره العبد باللسان فقط دون حضور كوسيلة إلى القرب من (حضرته) حتى يصير الذاكر على فهم لمعنى ذكر الله، وحين يتمكن هذا المعنى من القلب فإن الصورة تختفي ولا يبقى سوى الحضور[1].

وبصرف النظر عن الصلاة المفروضة، وهي ضرب من ضروب الذكر في واقعها[2]، يجد السالك أمامه طرقاً عدة للذكر يختار منها ما يشاء أو يقوم بها كلها: القرآن الكريم، والأسماء الحسنى، والشهادتين، ثم الورد[3].

الذكر بالقرآن:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: إنّما المؤمنُون الذين إذا ذُكر اللهُ وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون (الأنفال آية 2).

ويقول تعالى: الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (الرعد آية 28).

ويـنتهي مولانا زروق في تفسيره للآية الأولي إلى أنه من الجلي أن قراءة القرآن فـي حد ذاتهـا تزيـد مـن إيمـان المؤمنين، وهـذه ثمـرة طيبـة فـي نفسـها، وواضـح مـن الآيـة الثانيـة أن الطمأنينة أي السكينة والسلام،تنبثق من الإيمان

---

(1) المصدر نفسه.
(2) طبقاً لقول النبي عليه الصلاة والسلام: (الدنيا ملعونة، ملعونة ما فيها إلا ذكر الله) وثمة آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث المؤمنين على تذكر الله دائما وعلى ذكر اسمه الكريم (أنظر الآيات: 152:2، 41:3، 135:3، 205:7، 2:80، 24:18، 34:20، 34:22، 31:33).
(3) الجامع لجمل من الفوائد والمنافع ص6.

نتيجة قراءة القرآن والله تعالى يقول: ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنـا من المجرمين منتقمون (السجدة 22).

وهذا كما يفسره الشيخ يدل على أن قراءة القرآن مطلوبـة لذاتها بالإضـافة إلـى أنهـا تـؤدي إلى خوف الله، وهو ما يعادل (القبض) في المصطلح الصوفي، ثم الطمأنينـة والرجـاء وهـو مـا يساوي (البسط) وما حال الصوفي إلا التأرجح بين هذين الحالين في كل آن[1].

الذكر بالأسماء:

أول شرط للذكر بالأسماء معرفة معنى الاسم وإدراك مغزاه والتمعن فيه، ثم يأتي من بعد ذلك اختيار الاسم المناسب ليذكر بالطريقة الصحيحة المناسبة.

يقول مولانا زروق: (ثم إذا أردت السلوك باسم فحقق طبعك وحالك، ثم انظر من الأسماء ما يناسبه معنى.

فإذا كان الغالب عليك الجلال والقبض فخذ من الأسماء الجماليـة وأذكرهـا بـالتحزين علـى حالة زهدية بخلوة وانجماع.

وإن كان الغالب عليك الجمـال فخذ مـن الأسـماء الجمالية وأذكرهـا بالتطريـب فـي موضـع زهو على حالة زهو بخلوة مناسبة.

وإن كان الغالب عليك الكمال فخذ من الأسـماء الكماليـة مـا يناسـب حالـك وأذكـره باعتـدال في الصوت وعلى حالة إعتدال دون تقشف ولا ترفه ولا تطريب ولا تحزين)[2].

والانجماع لازم فـي هذا النـوع مـن الـذكر، وكـذلك الأسـماء بتـأن وإعتدال دون عجلـة ولا إبطاء مخل، مفرغاً القلب من جميـع الشـواغل، والـهدف هـو السماح لمعنـى الاسم أن ينفذ إلـى القلب بالكلية وينبث فيه ثم ينطبع فيه انطباعاً[3]، وهـذا هـو طريق الطبـع (أي الطبيعـة) لأن مـن يسير إلى الله بطبعه

(1) عدة المريد الصادق ص25.
(2) المقصد الأسمى ص 250.
(3) المصدر نفسه ص251.

أقرب أن يصله ممن يتطلع إليه بمخالفة طبعه[1].

الذكر بالشهادتين:

يميل كثير من الناس إلى الذكر بالشـهادتين، وهـو مـن أفضـل طـرق الـذكر، ولكـن بعضـهم يجنح إلـى ذكـر الشـهادة الأولـى (لا إلـه إلا الله) ويهمـل الثانيـة (محمـد رسـول الله) وهـذا خطـأ فاحش، لأنه ما دامت الشهادة الأولى تمحق كل شك في (الربوبية)، فـإن الثانيـة تلغـي كـل شـك فيما يتعلق بـ (الرسولية) والإسلام لا يقبل الفصل بين الشهادتين، فالأولى ألا يقبل في مـا انبثـق عن الإسلام، أي التصـوف والـذكر. وكمـا أن العقيدة لا تصـح إلا بالشـهادتين معـاً فـإن الفـتح لا

يأتي دونهما معاً[2]، ذلك لأن النبي ليس (مبشراً) فحسب بل هو (شاهد) علينا كذلك[3]، وذكر الشهادتين كلتيهما هو أقصى العبودية، وهو ما يعادل السجود لآدم عليه السلام... أعني أن من يسجد (يذكر الشهادة الثانية) هو كالملائكة في طاعته، ومن يتمنع يكون كإبليس في عصيانه[4].

الذكر بالصلاة على النبي:

هذا النوع من الذكر مرغوب للغاية، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا به حين قال: إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً (الأحزاب آية 56)، فإذا كان الله ذاته يصلي على نبيه فكيف نجرؤ على مخالفة أمره؟ والرسول الكريم نفسه يوصي بالصلاة عليه طريقاً إلى الجزاء الأوفى، فهو يقول: "من صلى عليّ صلاة صلى الله وملائكته عليه عشراً، وهل ثمة جزاء أوفى من نيل صلاة الله علينا إذا ما صلينا على نبيه؟"[5].

---

(1) المصدر نفسه ص252.
(2) عدة المريد الصادق ص28.
(3) المصدر نفسه ص29.
(4) المصدر نفسه ص28.
(5) عدة المريد الصادق ص27، قارن: صحيح مسلم/ صلاة.

الذكر بالورد:

كل صور الذكر السابقة يمكن جمعها وتوحيدها في صورة واحدة على السالك أن يحفظها عن ظهر قلب ويرددها في صلواته وخلواته هي: (الحزب) أو (الورد) وينبغي على كل سالك أن يكون له ورد مؤلف من أدعية وصلوات وابتهالات غرضها كما يقول مولانا زروق: (تعوذاً من الشر وطلباً للخير، واستفتاح المعارف وحصول العلم مع جمع القلب على الله سبحانه... إشغالاً للبطالين، وإعانة للمريدين، وتقوية للمحبين، وحرمة للمنتسبين، وترقية لهمم المتوجهين من العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد، وفتحاً للباب حتى يدخله عوام المؤمنين[1].

ويفضل أن يكون للورد وقت محدد يتلى فيه، حتى يصبح عادة للسالك تعلمه النظام وضبط أمور حياته، وأي وقت مناسب للذكر لأنه ليس ثمة بالنسبة لله ليل ونهار[2]. كما ينبغي أن يكون الورد على أبسط الصيغ وأسهلها، بعيداً عن المغمضات والعبارات الموحية المزدوجة المعنى، معتمداً في أساسه على الكتاب العزيز ودعاء النبي صلي الله عليه وسلم الموثوق بصحبة نسبته إليه[3].

تاريخ كلمة صوفي وأصلها:

اختلفت الآراء وتباينت وجهات النظر حول التاريخ الذي ظهرت فيه كلمة (صوفي)[4]. ففريق يرى أن هذا الاسم اشتهر بعد المائتين من الهجرة، أي أنه استحدث بعد عهد الصحابة والتابعين، وفريق آخر يذهب إلى أنه قد عُرف في الملة الإسلامية قبل ذلك، وفريق ثالث يزعم أنه لفظ جاهلي عرفه العرب قبل الإسلام، ومهما يكون من أمر هذا الخلاف، فإن أوثق المصادر تورد أن أول من أطلق عليه اسم (الصوفي) هو أبوهاشم الكوفي المتوفى (150هـ)[5]،

(1) مفاتيح العز والنصر ص2.
(2) قواعد التصوف ص135.

---

(3) شرح حزب البحر ص6 – 7.
(4) كتاب التصوف، حكمه وأركانه وخصال أهله تأليف عثمان السعيد الشرقاوي.
(5) روى عنه سفيان الثوري – رحمه الله – أنه قال لولا أبوهاشم الصوفي ماعرفت دقيق الرياء.

وقد كان عربياً من الكوفة، قضى معظم حياته في الشام، وتأثر في حياته بما كان يؤثر عن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة من بساطة في العيش وإعراض عن زخرف الدنيا وغرورها، كما تأثر بما ورد في القرآن عن خطورة المعصية ودقة الحساب، وما أُعد للمتقين من ثواب ونعيم. وقد صور الإمام أبوالقاسم القشيري المتوفى سنة (465هـ) بمدينة نيسابور في رسالته القشيرية ص (12)، صوّر تاريخ الأسماء التي أُطلقت في العاكفين على الحياة الروحية في مختلف أطوارها، فقال: (إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تتسم أفضالهم في عصرهم بتسمية علم صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا أفضلية فوقها، فقال لهم: الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني، سمى من صحبه الصحابة بالتابعين، ورأوا ذلك أشرف تسمية. ثم قيل لمن بعدهم تابعي التابعين، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهّاد والعُبّاد، ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعى أن فيهم زهاداً فانفرد خواص أهل السنة والمراعون أنفسهم مع الله تعالى، والحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة.

منذ ذلك الحين شاع اسم التصوف والصوفية وصار علماً يطلق على من يحيون حياة روحية فيها زهد الزهاد، وعبادة العُبّاد وفقر الفقراء، وفيها صفات أخرى أضيفت إلى هذا كله، وعرف المتحققون بها باسم الصوفية بحيث صار هذا الاسم علماً لهم يتميزون به من عامة المتدينين، ومن علماء الدين أو الفقهاء المعنيين بظاهر الأحكام في الشرع.

وكما اختلفت الآراء حول التاريخ الذي ظهرت فيه كلمة (صوفي)، فقد اختلفت كذلك حول الأصل الذي تُرد إليه هذه الكلمة:

فمن قائل: إن الظاهر في الاسم أنه لقب.

ومن قائل: إنه من الصفاء أو الصفوة أو الصف الأول.

ومن قائل: إنه من الصُّفّة أو من الصفاء.

ومن قائل: إنه من الصّوفانة (وهي عبارة عن بقلة زغباء قصيرة).

ومن قائل: إنه نسبة إلى الصُّوف الذي أختص القوم بلبسه، واتخذوا منه رداءهم، مخالفين بذلك الناس فيما يقبلون عليه من لبس فاخر الثياب[1].

ولكي يتبين لنا وجه الحق في هذه الأقاويل، يحسن أن نقف وقفة قصيرة عند كل منها:

- فإما القول بأن الصوفي مشتق من الصفا أو الصفوة، فقول صحيح من الناحية المعنوية وفاسد من الناحية اللفظية، إذ هو على الرغم من انطوائه على معنى الصفاء الذي يتهيأ لقلب الصوفي، فإنه لا يتمشى بحال مع روابط الاشتقاق اللغوي، لأن النسبة إلى الصفاء هي صفوى، كما أن النسبة إلى الصفو هي صفوى لا صوفي.
- وكذلك الرأي القائل بأن الصوفي إنما سمي كذلك نسبة إلى الصفة، استناداً إلى ما ينطوي عليه التصوف من معنى الاتصاف بالصفات المحمودة، وترك الصفات المذمومة، ولكن النسبة إلى الصفة هي صفتي لا صوفي.

- وأما الرأي القائل بأن الصوفي إنما سمي كذلك نسبة إلى الصفة التي نُسب إليها قوم من فقراء المهاجرين والأنصار، مخطأ لأن النسبة إلى الصفة هي صفتي لا صوفي.
- وأما من رأي بأن الصوف نسبة إلى الصوفانة أو الصوفان الذي هو نبت صغير عديم الثمر وإن دل على معنى الزهد والإقلال من الطعام الذي ينطوي عليه التصوف، فإن النسبة إلى الصوفانة هي صوفاني لا صوفي.

يبقى بعد هذا، الرأي القائل بأن الصوفي أقرب إلى أن يكون لقباً منه

(1) الرسالة القشيرية (باب التصوف) ص217.

إلى شيء آخر، إذ لا يشهد له اشتقاق أو قياس من جهة اللغة العربية، وهو رأي يؤيده الرأي القائل: (بأن الصوفي نسبة إلى الصوف لأن لباس الصوفي كان يكثر في الزهاد فضلاً عما ينط ذلك من وجه سائغ في الاشتقاق، من أنه كذلك)، هو الذي ذهب إليه كبار العلماء من الصوفية وغير الصوفية، أمثال السراج الطوسي صاحب كتاب (اللمع) والشيخ زكريا الأنصاري شارح (الرسالة القشيرية) وابن تيمية، وابن خلدون. وحسبنا أن نثبت هنا ماكره صاحب (اللمع) في هذا الصدد، لنتبين منه كيف يعلل هذا الصوفي الكبير نسبة الصوفية إلى ظاهر لباسهم وهو الصوف، ويؤثرها على غيرها من النسب الأخرى، فقال: فلما أضفتهم (الصوفية) إلى ظاهرة اللبسة، كان ذلك اسماً مجملاً عاماً مخبراً عن جميع العلوم والأعمال، والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة، ولأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين (وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف)، فقد حدثنا سفيان عن مسلم عن انس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب ويلبس الصوف[1]. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء، يؤمّون البيت الحرام).

وقد ورد أن سيدنا عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل الشجر ويبيت حيث أمسى.

وقال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه، لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف[2]. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف كما رواه ابن ماجة في السنن من حديث عبادة بن الصامت قال: (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وعليه جبة من صوف ضيقة الكمين)، واخرج أحمد في الزهد من حديث عبدالله بن شداد رفعه

(1) رواه الترمذي (1017) وابن ماجة (4178).

(2) أنظر: عوارف المعارف للامام السهروردي المتوفى (632هـ)

قال: (من لبس الصوف، واعتقل الشاة، وركب الحمار، وأجاب الدعوة لم يكتب عليه من الكبر شيء).

قال الإمام أبوبكر الشبلي (المتوفى سنة 334هـ): (الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وسلك طريق المصطفى، وكانت الدنيا عنده خلف القفاء)، والشبلي يعني بذلك أن الصوفي ليس هو الذي يلبس الصوف فقط وغنما هو الذي يتزيا بزيهم، تواضعاً لله، زاهداً في زينة الدنيا، يلبسه وهو متصف بصفاء السريرة ونقاء الطوية، وطهارة الباطن.

ومن هنا، قال العارفون: إن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقللهم من الدنيا، وزهدهم فيما تدعو النفس إليه من الملبوس الناعم، حتى أن المبتدئ المريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم، ويوطن نفسه على التقشف والخشونة، ويعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس، فيدخل في طريقهم على بصيرة.

فإن صح أن الأنبياء من السلف الصالح كانوا يلبسون الصوف، وأن الصوفية كانوا يتخذون منه ثيابهم لما في ذلك من تحقق الخشونة والزهد والتذلل لله عزوجل، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يجد حلاوة الإيمان، فيلبس الصوف تذللاً لربه عزوجل"[1]. إضافة إلى ما في نسبة الصوفي إلى الصوف من ملاءمة لقواعد اللغة، كان هذا كله دليلاً على مبلغ ما في هذا الرأي من صحة ووجاهة ومن رجحان في نظر العقل.

ومما يرجح هذا القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى ألا يهتموا بالمظهر الخارجي، إنما عليهم أن يهتموا بباطنهم وبقلوبهم، وبمقدار ما فيها من طهارة وصفاء، تكون صلتهم بالله،وكم من أناس لا يؤبه لهم، ولا يلتفت إليهم، ويلبسون خلق الثياب، لكنهم عندالله

(1) الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة(273/2) بأن الحديث حسن لشواهده، ثم ذكر شواهده وروى الإمام أحمد في الزهد (167/1) عن ابن مسعود قال: كان الأنبياء يحلبون الشاة ويركبون الحمر ويلبسون الصوف.

من المقربين، ومن أصحاب الدعاء المستجاب فإذا أقسموا على الله في حاجة من حوائج المسلمين فإن الله يستجيب لهم في الحال.

عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك"[1].

معنى الصوفي والتصوف:

على أن الخلاف حول كلمة (صوفي) لم يقف عند حد تاريخها وأصلها، وإنما يتجاوزها إلى: تحديد معنى الصوفي والتصوف، فقد تعددت أقوال الصوفية أنفسهم، وتباينت ألفاظهم في شأن هذا التحديد، ولكنها على تعددها وتباينها وكثرة قائليها يمكن أن يستخلص منها ضابط يجمع معانيها، إذ الألفاظ إن كانت مختلفة، إلا أن معانيها متقاربة، وحسبنا هنا أن نذكر بعض ما قيل في هذا الصدد مكتفين بالقدر الذي يظهرنا على ما ينبغي أن يتوفر في الصوفي من الصفات وفي التصوف من المعاني:

1-فقد عرّف بشر بن الحارث الحافي(المتوفى سنة 227هـ) الصوفي بقوله: "الصوفي من صفا قلبه لله". وعرّفه بندار بن الحسين الشيرازي (353هـ) بقوله: (الصوفي من اختاره الحق لنفسه فصفاه، وعن نفسه فبراه ولم يرده إلى تعمل وتكلف بدعوى).

وعرّفه أبوعلي الروذباري (369هـ بقوله: (الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأطعم الهوى ذوق الجفا، وكانت الدنيا منه على القف، وسلك منهاج المصطفى).

(1) رواه مسلم في صحيحه (2622)، أبونجم في الحلبة (7/1) والبراء بن مالك من أهل الصفة وقد تكلمنا عنهم في الباب السابق عن زهدهم ولبسهم الخشن من الثياب لشدة فقرهم وكان فيهم البراء بن مالك الذي دعا الله لجيش المسلمين والذي كان واحداً منهم أن ينتصر في معركتهم ضد المشركين، كما دعا الله أن يموت شهيداً في تلك المعركة فاستجاب الله دعاءه فانتصر الجيش ومات شهيداً.

وعرّفه سهل بن عبدالله التستري (283هـ) بقوله: (الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر).

وسئل أبوالحسن النوري (295هـ) ما التصوف؟ فقال: ترك كل حظ للنفس.

وقال يوسف بن الحسين (304هـ) لكل أمة صفوة، وهم وديعة الله الذين أخفاهم عن خلقه، فإن يكن منهم في هذه الأمة فهم الصوفية[1].

والمتأمل في هذه التعريفات يلاحظ ما تقوم عليه من معاني الصفاء والفناء عن النفس وكبح جماحها ومحاربة أهوائها.

وإتباع السنة والزهد في جاه الدنيا ومتاعها والانقطاع إلى الله ودوام التفكر، فكل أولئك أمور ينبغي أن تتحقق في الصوفي بالرغم من أن هذه التعريفات لا يجمعها كلها وجه واحد يجعل منه تعريفاً جامعاً مانعاً كما يقول المناطقة.

2-ومثل هذا يمكن أن يلاحظ في كثرة ما ورد من تعريفات التصوف التي يكفي أن نثبت منها تعريف معروف الكرخي (201هـ) وهو قوله: (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق).

وما ذكره أبومحمد رويم (303هـ) من الخصال التي يبني عليها التصوف وذلك في قوله: (التصوف مبني على ثلاثة خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار).

ويقول أبوبكر الكتاني (233هـ): (التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء)، ويعرّف أبوالحسن النوري (295هـ) التصوف بقوله: (ليس التصوف رسماً ولا علماً ولكنه خلق). ثم يعلل ذلك بقوله: (لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعلم،

(1) وردت هذه التعريفات وكثير غيرها في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للإمام أبوبكر محمد الكلاباذي المتوفى سنة 380هـ ، ص 34 – 35، الطبعة الثانية (1400هـ/ 1980م).

ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولت تستطيع أن تقبل على الخلائق الإلهية بعلم أو رسم).

وقد عرّف الإمام الجنيد (298هـ) التصوف بقوله: (هو يميتك الحق عنك ويحيك به). وقوله أيضاً: (التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع اسماع، وعمل مع إتباع).

فهذه التعريفات تعبر عما ينطوي عليه التصوف من المعاني الأخلاقية والأحوال النفسية من فناء العبد عن نفسه وبقائه بربه، وتحقق بالفقر والافتقار وإسقاط للتدبير والاختيار وإقبال على الذكر، وخضوع لسلطان الوجد وأخذ النفس بالأعمال التي لا تنافي تعاليم الكتاب والسنة.

غير أن للجنيد تعريفاً لعله أجمع من هذه التعريفات لكثرة ما أشار إليه من المعاني والصفات وإليك هذا التعريف: (التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، وإعتناق الصفات الروحية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، وإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة[1].

ولعل أول هذه التعريفات هو تعريف معروف الكرخي (201هـ) الذي اخذ يتشكل منذ أواخر القرن الثاني للهجرة بأشكال مختلفة ويعبر عنه بعبارات متنوعة، ولكنها مردودة إلى أصلها في قول معروف وهو (أن التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق).

وخاتمة القول: إن هذه الصفات التي ذكرها أهل التصوف والمعرفة بالله لابد أن تؤدي أن يحقق بها المريد الصفاء. فإذا حلّ الصفاء كان عند هذا المريد استعداد كامل للمشاهدة فيجود الله عليه بها إنشاء الله.

(1) من كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذي الطبعة الثانية ص34، ويقول: هذه الصفات التي ذكرها الإمام الجنيد هي في الواقع من صميم الدين وجوهره، ويبدو أنه أراد بتصفية القلب عن موافقة البرية ألا يساير الصوفي الناس في الشهوات والملذات ومتع الحياة الدنيا، أي يكون معهم في شئون الحياة ولكنه غير موافق لهم في ما يبعده عن الله.

يقول مولانا أحمد زروق في التصوف:

صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه ولا يصح مشروط بدون شروطه (ولا يرضى لعباده الكفر) فلزم تحقيق الإيمان وإن تشكروا يرضه لكم (الزمر آية 7) فلزم العمل بالإسلام.

فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بالتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق توجه.

ولا هماً إلا بإيمان، إذ لا يصح أحدهما دون الآخر، فلزم الجميع لتلازمها في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد.

ولا وجود لها إلا فيها، كما لا حياة لها إلا بها، فافهم.

ومنه قول مالك رحمه الله: (من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق).

قلت: تزندق الأول لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام.

وتفسق الثاني: لخلو عمله من التوجه الحاجب منهما عن معصية الله ومن الإخلاص، المشترط في العمل لله.

وتحقق الثالث: لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق، فاعرف ذلك.

الطرق الصوفية
(نشأتها ومنهجها)

بلغ التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين ازدهاراً ونمواً، لم يقف عند حد تأسيس مذاهبه وكثرة مشائخه الذين أعانوا على هذا التأسي بل تجاوزه إلى شيء آخر، ذلك إن الصوفية أخذوا منذ النصف الثاني للقرن الثالث الهجري ينظمون أنفسهم طوائف يخضعون فيها لنظم خاصة لكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ

مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم، وكمال العمل، وكان من هذه الطرق:
السقطية: نسبة إلى الثري السقطي (توفي سنة 253هـ).
الطيفورية: نسبة إلى أبي يزيد طيفور البسطامي (توفي سنة 261هـ).
الجنيدية: نسبة إلى أبي القاسم الجنيد (توفي سنة 289هـ).
الخرازية: نسبة إلى أبي سعيد الخراز (توفي سنة 286هـ).
النورية: نسبة إلى أبي الحسن النوري (توفي سنة 295هـ).
الملامتية أو القصارية: نسبة إلى حمدون القصار.

وقد ظهر في القرنين السادس والسابع الهجريين كثير من الطرق، وكثر عدد المنتسبين إليها وتعددت أساليب الرياضة بتعدد هذه الطرق، كما اختلفت أسماؤهم باختلاف أسماء من تنسب إليهم.

وهذه الطرق بدأت في إظهار الصور العملية للتصوف بجانب صوره النظرية ومن هذه الطرق:

1. **الطريقة القادرية:** نسبة إلى سيدي القطب الرباني إبي صالح عبدالقادر الجيلاني (المتوفى سنة 561هـ) وينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قالوا عنه: فاق أهل وقته في علوم الدين ووقع له القبول التام مع القدم الراسخ في المجاهدة وقطع دواعي الهوى والنفس، وصار قطب الوجود، وكراماته تخرج عن الحد وتفوق الحصر والعد، وتاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم معظم اليهود والنصارى على يديه، قال عنه ابن السمعاني هو إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه صالح دين خير، كثير الذكر دائم الفكر، سريع الدمعة وحصل له القبول التام من الناس، وانتفعوا بكلامه، وانتصر أهل السنة بظهوره واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وهابه الملاك ومن دونهم، ومن أقواله: (الخلقُ حجابك عن نفسك، ونفسك حجاب عن ربك، ومادمت ترى نفسك، لا ترى ربك).
2. **الطريقة الرفاعية:** نسبة إلى الشيخ الزاهد القدوة سيدي أحمد بن أبي الحسين الرفاعي (المتوفي سنة 570هـ) والذي كان قد إنتهت إليه الرياسة في علوم الطريقة وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلاتهم. وإليه كان أمر تربية المريدين بالبطائح بالعراق وتتلمذ عليه وتخرج عليه طائفة صالحة من المريدين، قال عنه ابن خلكان: (كان رضي الله عنه صالحاً شافعي المذهب فقيهاً انضم إليه خلق من الفقراء وأحسنوا فيه الاعتقاد وهم الطائفة الرفاعية ويقال لهم: الأحمدية والبطائحية، ومن كلامه سلكت كل الطرق الموصلة إلى اله فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الافتقار والذل والانكسار فقيل له: كيف يكون ذلك؟ قال: تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله وتقتدي بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم).
3. **الطريقة السهروردية:** نسبة إلى شيخ وقته في علم الحقيقة أبي حفص عمر السهروردي صاحب كتاب (عوارف المعارف) المتوفي سنة 368هـ وينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قال عنه ابن النجار: (كان شيخ وقته في علم الشريعة والحقيقة وكان فقيهاً شافعي المذهب انتهت إليه الرياسة في تربية المريدين ودعوة الخلق إلى الله

وتسليك طريق العبادة والزهد، وسلك طريق الرياضات والمجاهدات وقُصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا، ووصل به خلق إلى الله، وصار له أصحاب كالنجوم).

4. **الطريقة الشاذلية:** نسبة إلى القطب الزاهد شيخ الطائفة الشاذلية نسبة إلى شاذلة ببلاد المغرب، فهو على بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي، والذي ينتهي نسبه إلى سيدنا الإمام الحسن ابن أمير المؤمنين سيدنا علي بنا أبي طالب كرم الله وجهه، والمتوفي سنة 656هـ. وقد أفرد له ابن عطاء الله السكندري في كتابه (لطائف المنن) ترجمة مفصلة قال فيه عنه: (هو سيدي الشيخ أبوالحسن رضي الله عنه، قطب الزمان، الحامل في وقته لواء أهل العيان، حجة الصوفية علم المهتدين، إمام العارفين، أستاذ الأكابر، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع أبوالحسن علي الشاذلي رضي الله عنه).

   وقال عنه ابن دقيق العيد رضي الله عنه: (ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وللأمام الشاذلي تلاميذ كثيرون يقال: إن جل من أخذ الطريق عنه هو سيدي أبوالعباس أحمد المرسي (المتوفي سنة 686هـ). ومن أعظم تلاميذ سيدي أبي العباس الولي الصالح تاج الدين بن عطاء الله السكندري (المتوفي سنة 707هـ) ومن أقوال سيدي أبي الحسن: (من لم يزدد بعلمه افتقاراً لربه وتواضعاً لخلقه فهو هالك).

   وقال: (التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية). وكان يقول: (لن يصل العبد إلى الله وبقي معه شهوة من شهواته ولا مشيئة من مشيئاته).

5. **الطريقة الأحمدية البدوية:** نسبة إلى قطب الأقطاب صاحب الكرامات الباهرات والأنفاس الصادقة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، والذي ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي كرم الله وجهه المعروف بأبي الفتيان الشريف العلوي والمشهور بالملثم المعتقد (المتوفي سنة 675هـ). قال عنه سيدي عبدالعزيز الدريني رضي الله عنه (توفي سنة 694هـ): (هو بحر لا يدرك له قرار)، وقال عنه الإمام المناوي في طبقاته: (هو أحمد بن علي بن البدوي، السيد الشريف، إمام الأولياء، وأحد أفراد العالم)، وقال عنه سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه (المتوفي سنة 883هـ) : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وهو يقول لي: (هل تعرف أهل الفتوى في مصر؟ قلت لا يا رسول الله، فقال: لله هم خمسة: محمد بن إدريس الشافعي، وأحمد البدوي، ونفيسة العلم، وشرف الدين الكردي ثم عبدالله المنوفي).

6. **الطريقة البرهامية الدسوقية:** نسبة إلى سيدي إبراهيم الدسوقي، وينتهي نسبة إلى سيدنا الحسين بن الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنهم، والمتوفي سنة 676هـ، قال عنه الإمام المناوي: (هو سيدي إبراهيم الدسوقي شيخ الطائفة البرهامية، صاحب المحاضرات القدسية والعلوم اللدنية، والأسرار العرفانية، أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات، وخرق لهم العادات، ذو الباع الطويل، والتصرف النافذ، واليد البيضاء في أحكام الولاية والقدم الراسخ في درجات النهاية. ومن أقواله: (الشريعة أصل، والحقيقة فرع، فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفي، وجميع

المقامات مندرجة فيهما) وكان رضي الله عنه يقول: (يجب على المريد أن يأخذ من العلم ما يجب عليه، وبما يؤدي فرضه ونفله، ولا يشتغل بالفصاحة والبلاغة، فإن ذلك شغل منه عن مراده، بل يفحص عن آثار الصالحين في العمل ويواظب على الذكر). وقال: (ما دام لسانك يذوق الحرام، فلا تطمع أن تذوق شيئاً من الحكم والمعارف).

7. **الطريقة النقشبندية:** نسبة لشيخ الطريقة سيدي محمد بهاء الدين شاه نقشبند، وهو أحد أكابر أئمة الصوفية، أخذ الطريقة من قطب العارفين سيدي أمير كلال، ولد بقرية (العارفان) على بعد فرسخ من مدينة (بخاري) المدفون فيها الإمام البخاري صاحب الصحيح رضي الله عنه، ولد سنة718هـ وانتقل عام 791هـ، ومنهج الطريقة النقشبندية هو الذكر الخفي أي الذكر بالقلب ى باللسان، وتقوم النقشمبدية على أربع خصال: الصمت والعزلة والجوع والسهر.
8. **الطريقة البكرية:** نسبة إلى الخليفة الأول سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه، وكان أول شيخ لهذه الطريقة هو سيدي محمد بن أبي الحسن البكري الكبير، الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، وإمام الأولياء والعارفين، ولد عام 930هـ وإنتقل إلى جوار ربه عام 994هـ، وقال عنه سيدي عبدالوهاب الشعراني في كتابه (الطبقات الكبرى): (والشيخ الكامل، الراسخ في العلوم الدينية، والمنح المحمدية، الكامل ابن الكامل سيدي محمد البكري رضي الله عنه).
9. **الطريقة الخلوتية:** أحي الطريقة الخلوتية بمصر السيد الولي مصطفى البكري الصديقي الأستاذ الكبير، والمعروف الرباني الشهير، صاحب الكشف، والواحد المعدود بألف، صاحب العوارف والمعارف والتأليف والآثار التي اشتهرت شرقاً وغرباً، أحد أفراد الزمان من العلماء والأعلام، والأولياء العظام، العالم العلامة الأوحد أبوالمعارف، قطب الدين، ولد بدمشق 1099هـ وانتقل 1162هـ وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ عبداللطيف الحلبي، ولما توجه إلى مصر تلقاه القطب الشيخ محمد الحنفي أعظم خلفائه، ومعه خلائق كثيرون من علماء مصر ووجوهها، وقد أخذ الطريقة عن العارف بالله الحنفي، سيدي أحمد الدرديري ثم الشيخ الولي إبراهيم أبو العيون، ثم الشيخ العال الصوفي محمد أبوالعيون ثم أبنه الشيخ عبدالغفار أبو العيون صاحب الأنوار والكشوفات رضي الله عنهم أجمعين، وألحقنا بهم في الصالحين.
10. **الطريقة التجانية:** نسبة إلى العارف بالله الإمام الرباني الشيخ أحمد التيجاني، وقد ولد عام 1150هـ وانتقل إلى جوار ربه 1230هـ، قالوا عنه: (هو شيخ الطريقة وأستاذ الحقيقة ذو المناقب الظاهرة، والكرامات الباهرة، القطب الأكبر، والعلم الأشهر، الشريف العفيف، ذو القدر المنيف سيدي أحمد التجاني والذي ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بنو مولانا الإمام علي كرم الله وجهه، ولد في قرية تسمى عين ماضي، وهي قرية شهيرة بالصحراء الشرقية من بلاد المغرب، وكانت أمه من قبيلة تيجانة فغلبت عليه النسب إليهم).
11. **الطريقة السنوسية:** نسبة إلى سيدي الولي الصالح محمد بن على السنوسي توفي سنة 1859م وكان من مريدي سيدي أحمد بن إدريس الفاسي الشاذلي والذي توفي سنة 1253هـ قال عنه صاحب طبقات المالكية والكتاني في فهرسه: (هو أبوعبدالله محمد

علي السنوسي، الإمام العارف، الداعي إلى السنة، ختم المحدثين، حجة الله على المتأخرين، الولي المقرب، الجزائري ولادة، المكي هجرة، الجغبوبي مدفناً، وانتشرت طريقته في ليبيا والجزائر والصحراء، ووصلت بحيرة تشاد في وسط إفريقيا، والتي كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام، تدعو إليه نقياً بين المسلمين، وتربي فيهم روح القوة والفداء، والأخذ بكل أسباب القوة لطرد المستعمر الدخيل (المتمثل في إيطاليا) كما كانت تدعو الوثنيين إلى الإسلام في وسط أفريقيا وسواحلها، ودخل استجابة لهذه الدعوة المباركة عدد لا يحصي منهم في الإسلام، وقد ضايق ذلك المبشرين، وحاولوا أن يوقفوا هذه الدعوة ولكنهم باءوا بالخسران، لسلامة ويسر ما تدعو إليه السنوسية. وتدور هذه الطرق جميعاً على غاية واحدة، وهي العبودية لله وإفراد بالإلوهية، والإخلاص له، والاستقامة في جميع الأحوال، وتحقيق كمال العلم والعمل، فبدون عمل وجهد وتضحية وتحمل لمشاق العبادات، لا يصل المريد إلى الله.

12. **الطريقة السمانية:** مؤسسها الشيخ محمد عبدالكريم السمان الذي ينتمي إلى أسرة جدها الأكبر سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه، وقد ولد ونشأ بالمدينة المنورة، وبها تعلّم على يد كبار العلماء، وبها أيضاً سلك الطريق (الخلوتي) و(النقشبندي) و(القادري) و(العادلي) وغيره على عدد من العلماء، وأبرزهم سيدي (الشيخ مصطفى البكري) الذي اختاره (خليفة) له بعد أن أنس فيه الكفاءة العلمية والعملية.

عمّر سيدي السمان زاوية والده المسماة بـ(دار سيدنا أبي بكر الصديق)، وبـ(المدرسة السنجارية)، وبـ(زاوية الشيخ عبدالقادر)، عمّرها بالأوراد والأذكار والإرشاد والتسليك، كما اتخذها من بعد مركزاً لنشر الطريق في مختلف أنحاء العالم الإسلامي حيث سلك عليه الطريق بعض قادة الفكر والتصوف.

وهناك طرق أخرى ظهرت في العصور المتأخرة غير ما ذكرنا منها:

1. الطريقة الوفائية بمصر وشيخها الإمام العارف بالله الشيخ محمد السادات.
2. الطريقة المهدية بالسودان وشيخها الولي المجاهد محمد أحمد المهدي.
3. الطريقة الختمية الميرغنية بالسودان وشيخها السيد محمد عثمان الميرغني.
4. الطريقة الدرقاوية بالمغرب كل من أبنائها الأمير المراكشي بن عبدالكريم الخطابي بطل الشمال الأفريقي.
5. وهناك طرق أخرى غير ما ذكرنا، نشأت في العصر الحديث، نرجو لها التوفيق والسداد والسير على المنهج القويم.

لوحة تبين سلسلة زروق الصوفية وأسانيده

الخاتمة

ما زالت هناك جوانب كثيرة في حياة مولانا زروق لم أتطرق إليها وإن شاء الله لنا عودة لذلك.

في أثناء بحثي عن (كناش) مولانا زروق سيرته الذاتية لاحظت أن عدداً كبيراً من مؤلفاته ما زالت مخطوطات موجودة في المكتبات الهامة في العالم الإسلامي وفي أوروبا.

وقد تعجبت كثيراً للكم الهائل من المؤرخين الأوروبيين الذين كتبوا عن علماء وجماعات وأدباء وشعراء وتاريخ العالم الإسلامي بالتفصيل، هذا مع وجود أعداد كبيرة من المراجع والمخطوطات والآثار التي تهم العالم الإسلامي في متاحف ومكتبات أوروبا وأمريكا.

كما أود أن أوجه نصيحة لآل زروق في السودان أن ينكبوا على دراسة مؤلفات مولانا والاهتمام بها واقتنائها وقراءتها والمواظبة على وظيفته التي أطلق عليها اسم سفينة النجا لمن إلى الله التجأ.

وأن يحرصوا على تتبع خطواته وإحياء ذكراه واسمه ولقبه وأن يضعوه في المكانة اللائقة به.

كما أتقدم بالشكر للأزهر الشريف الذي أهتم بمؤلفات العارف بالله مولانا زروق، وقام بتحقيق وطباعة عدد كبير منها وقد قام بذلك كبار رجالات الأزهر على رأسهم الإمام الأكبر فضيلة الشيخ عبدالحليم محمود.

والشكر أيضاً موصول للدكتور علي فهمي خشيم لكتابه "أحمد زروق والزروقية" وهي دراسة لحياة مولانا فكره، ومذهبه، وطريقته، وذلك بمناسبة مرور خمسمائة عام على وفاته.

وأخيراً أود أن أعتذر لآل أحمد زروق ولكل أولياء الله الصالحين إن كنت قد أسأت الأدب في تناولي لسيرة هذا الرجل الصالح، وسأحاول إن شاء الله أن أسعى لتحقيق ما لم يحقق من كتب مولانا وأن أطبع من مخطوطاته، وأتمنى أن أجد من يساعدني في إنجاز هذا العمل الكبير وأتقدم بالشكر أجزله للدكتور كمال عمر الأمين العمرابي التجاني لما قام به من جهد لطباعة هذا الكتاب. والله أسال القبول والتوفيق والرضا، إنه سميع مجيب الدعاء.

عدية يس

بسم الله الرحمن الرحيم

(يس والقرآن الحكيم) (7مرات) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (إنك لمن المرسلين* على صراط مستقيم* تنزيل العزيز الرحيم* لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون* لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون* إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون* وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون* إنما تنذر من أتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجرٍ كريم) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا

وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين). سبحان المفرج عن كل محزون، سبحان المنفس عن كل مديون، سبحان من جعل خزائنه بين الكاف والنون، يا مفرج فرج (7مرات) يا قاضي الحاجات يا مجيب الدعوات سخر لي خدام هذه السورة الشريفة ليطيعوني ويمتثلوا أمري وارزقني زيارة قبر نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتسهل لي كل عسير وتسخر لي جميع خلقك ورزقك وعطّف عليّ قلوب عبادك حرهم وعبدهم صغيرهم وكبيرهم من كل ذكر وأنثى وألف قلوبهم لي بالمحبة الدائمة وارزقني الحظ الجزيل والعمر الطويل وافتح لي أبواب رحمتك ورزقاً حلالاً وكن لي عوناً ومعيناً وحافظاً وناصراً وأميناً. اللهم إني أسألك ي إله الأولين والآخرين أن تسخر لي جميع خلقك بالمحبة الدائمة والمودة والعطف كما سخرت البحر لموسى عليه السلام، ليّن لي قلوبهم وأرواحهم وجوارحهم واعضاءهم كما ليّنت الحديد لداؤود عليه السلام، فهم لا يطيعون إلا بإذنك نواصيهم في قبضتك وقلوبهم في يدك جل ثناؤك وتقدست أسماؤك لا إله غيرك ولا معبود سواك برحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم إني أسألك بحق السورة الشريفة أن تسخر لي رزقي وعطف عبادك واجلب لي أرواحهم وأجسادهم بحقك وحق حقك ونور وجهك وبحق أنبيائك المرسلين والملائكة المقربين وبحق سورة يس والقرآن الحكيم وبحق آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وبحق آلمص وآلمر وكهيعص وحم عسق وحم والكتاب المبين، وبحق يس والقرآن الحكيم، وبحق ق والقرآن المجيد، وبحق الطور وكتاب مسطور في رَق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور، وبحق ن والقلم وما يسطرون، وبحق القرآن العظيم الذي قلت فيه وأنت أصدق القائلين: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" ... وبأسمائك الحسنى العظيمة، وبحق العرش العظيم والكرسي واللوح والقلم، وبحق سيدنا جبريل وسيدنا ميكائيل وسيدنا اسرافيل وسيدنا عزرائيل وحملة العرش والكرسي والملائكة المقربين وعلى نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وبحق السموات والأرضين وما بينهم وبالكواكب السيارة وبالسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود وبالسماء والطارق النجم الثاقب وإن كل نفس لما عليها حافظ، وبحق الفجر والليالي العشر والشفع والوتر والليل إذا يسر، وبحق التين والزيتون وطور سنين فليدخلوا هذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وبحق البيت الحرام والبيت المقدس وعرفة وأنبيائك وعبادك الصالحين يا رب العالمين يا خير الناصرين يا مجيب السائلين ويا قاضي الحاجات ويا مجيب الدعوات ويا مقيل العثرات ويا ولي الحسنات ودافع البليات ويا غافر السيئات وكاشف الكربات. اللهم أرني حرمك لكرمك وبلغني زيارة قبر نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسخر لي خلقك وليّن لي قلوبهم وأرواحهم بالمحبة والمودة والعطف ويسر لي رزقي وهون عليّ كل عسير بحرمة يس والقرآن الحكيم، واقض عني ديني وفرج عليّ كربي وأعطني من خزائنك الواسعة، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وبحق سورة (يس* والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسلين) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) اللهم سخر لي جميع خلقك وليّن لي قلوبهم وأرواحهم بحق سورة يس، ونفس كربي وأعطني من خزائنك الواسعة، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، وبحق سورة يس (7مرات) (وأضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون* إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون* قالوا ما أنتم

إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون* قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون* وما علينا إلا البلاغ المبين). وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم* قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون* وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم إتبعوا المرسلين* اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون مالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون* أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون* إني إذاً لفي ضلال مبين* إني آمنت بربكم فاسمعون) اللهم إني أسألك يا إله الأولين والآخرين أن تسخر لي جميع خلقك وهون عليّ كل عسير، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (قيل أدخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون* بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين* وما أنزلنا علي قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين* إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون* يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون* ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون* وإن كل لما جميع لدينا محضرون* وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون* وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون* ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون* سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون* وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون* والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون* وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون* وخلقنا لهم من مثله ما يركبون* وإن نشأ نغرقهم فلا ينقذون* إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين* وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون* وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين* وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين) اللهم إني أسألك يا إله الأولين والآخرين أن تقضي لي ديني وتفرج همي وغمي وأعطني من خزائنك الواسعة، يا مسخر سخر لي رزقي وهون عليّ كل عسير وليّن كل قلوب عبادك، كما ليّنت الحديد لدؤود عليه السلام، اللهم سخر لي خدام هذه السورة الشريفة يقضوا حاجتي، وارزقني زيارة قبر نبيك محمد صلي الله عليه وسلم، (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين* ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون* فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون* ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون* قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون* إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون* فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعلمون* إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون* هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون* لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون* سلام قولاً من رب رحيم). سيدي السلام عليك مني أنت ربي وبيدك سمعي وبصري وقلبي فلك جميعي وشرّفت ناصيتي ورفعت ذكري وأعليت قدري، تباركت يا نور الأنوار وواهب الأعمار وتنزهت من سموك على سمات المحدثات، وعليّت نبيك عن طرق النقص والآفات، تشهد بذلك الأرضون والسموات لك المجد الأرفع لجنابك الأوسع والعز الأقنع سبوح قدوس رب الملائكة والروح ونور الديامي المظلمة.

وأعوذ بك من شر كل غاسق إذا وقب وحاسد إذا حسد، أناجيك مناجاة عبد كسير يعلم أنك تسمع ويطمع أنك تجيب، إني واقف منتظر لا أجد من دونك وكيلاً، أسألك اللهم بالاسم الذي قضيت به الخيرات ونزلت به البركات وأخرجت به من الظلمات وفتحت به شكر الإرادات، أسألك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن تفيض عليّ ملابس أنوارك ما يرد سره، واجعل منك إشراقاً يجلو لنا نعمتك ويكشف لي عن كل ستر يا نور كل شيء هداه، أنت الذي خلقت الظلمات بنورك وكل نور من نورك يا كاشف كل مستور، إليك ترجع الأمور وبك ترفع الشرور، يا حي يا قيوم برحمتك يا ارحم الراحمين بك استغيث، وبك أستجير، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم إن تشاء تنزل عليهم من السماء ما تذل لها أعناقهم ويكونون له خاضعين، اللهم يا منزل السحاب وهازم الأحزاب أهزم أعدائي وجنودهم وأتباعهم وانصرني عليهم، اللهم أرني حرمك بكرمك وبلغني زيارة قبر حبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسخر ولين لي قلوبهم وأرواحهم، اللهم وسهل عليّ كل عسير واجعل العسير عليّ سهلاً يسيراً اللهم أنصرني نصراً كبيراً وافتح لي فتحاً مبيناً وارزقني حلالاً طيباً مباركاً بحق سورة يس والقرآن الحكيم يا رب العالمين. وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (وامتازوا اليوم أيها المجرمون* ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين* وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم). اللهم أني أسألك يا من له الأولين والآخرين أن تقضي عليّ ديني وتفرج همي وغمي وأعطني خزائنك الواسعة، يا مسخر سخر لي رزقي وهون عليّ ديني وفرج همي وغمي وأعطني خزائنك الواسعة، يا مسخر سخر لي رزقي وهون عليّ كل عسير (مرتين) (ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون* هذه جهنم التي كنتم توعدون* أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون* اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون* ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون* ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) (إعادة) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون* وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين* لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين). اللهم إني أسألك يا من له الأولين والآخرين، أسألك أن تسخر لي جميع خلقك بالمحبة والمودة وأن ترزقني حلالاً طيباً، وأن تسهل عليّ كل عسير وأن تجعل العسير ليّ يسيرا (ثم تقول ما تقدم من الآية) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون* وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون* ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون* واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون* لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون* فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون* أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين). اللهم إني أسألك يا من له الأولين والآخرين، أسألك أن تسخر لي رزقي وتسهل عليّ كل عسير، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (7مرات) والصلاة على النبي (10مرات) (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون* أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق

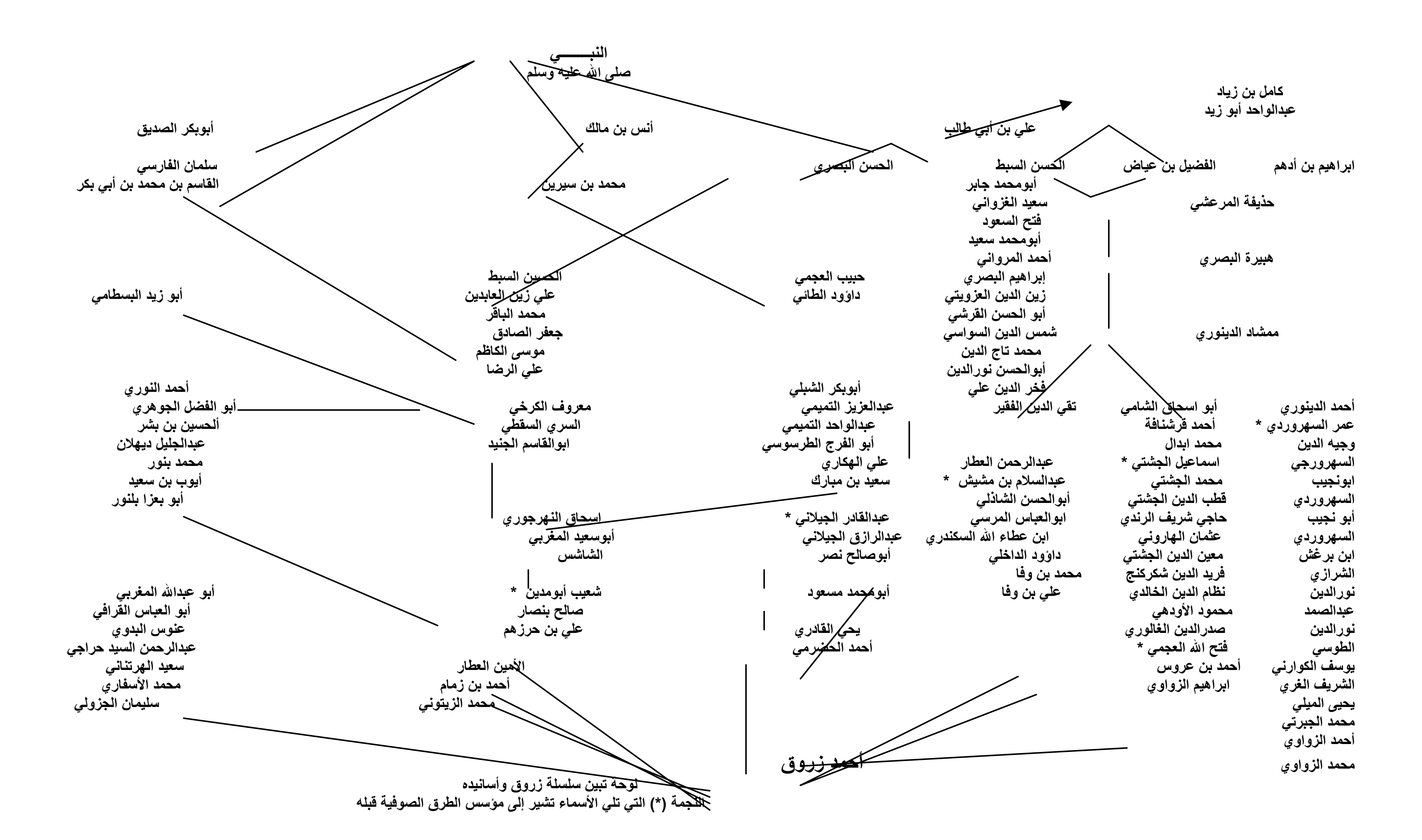
العليم* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له فيكون* فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون).
بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إني أسألك بحق سورة يس والقرآن الحكيم (7مرات)، بأنبيائنا المرسلين وهادي المصلين صراطك المستقيم ما أمهلك من الظالمين، ويا مبيد الفاسقين وكل لديه محضرون، يا من يحي الموتى ويكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين، يا من يحي الأرض بعد موتها وتخرج منه حباً فمنه يأكلون، يا من فيها جنات من نخل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون، يا من يسبح له كل لسان، يا من خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، يا من جعل الشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، يا من قدر القمر منازل حتى عاد كالعرجون القديم، يا من خلق لنا أنعاماً وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ويا من خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين يا من يحي العظام وهي رميم ويا من أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، يا من جعل من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، يا من خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم يا خلاق يا عليم، من إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون. اللهم لك الحمد لا أحد إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا سلطان إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا واحد إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا خالق إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا برهان إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا جبار إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا رزاق إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا قادر إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا سميع إلا أنت ولك الحمد، إلهي لا بصير إلا أنت ولك الحمد، إلهي الكافي الهادي لا إله إلا أنت ولك الحمد، إلهي أنت خير الفاتحين لا إله إلا أنت ولك الحمد، إلهي أنت مقلب القلب ولك الحمد، إلهي أنت إله السموات والأرض ولك الحمد، إلهي أنت كاشف الظلمات ولك الحمد، إلهي أنت خير القادرين ولك الحمد، إلهي أنت خير الناصرين ولك الحمد، إلهي أنت تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ولك الحمد، إلهي أنت القريب المجيب ولك الحمد، إلهي أنت التواب ولك الحمد، إلهي أنت رب الأرباب ولك الحمد، إلهي أنت سبب الأسباب ولك الحمد، إلهي أنت سيد السادات ولك الحمد، إلهي أنت رفيع الدرجات ولك الحمد، إلهي أنت فاطر السموات ولك الحمد، إلهي أنت الباعث الوارث ولك الحمد، إلهي أنت غياث المستغيثين ولك الحمد، إلهي أنت الخالق الجبار ولك الحمد، إلهي أنت الرشيد ولك الحمد، إلهي أنت الصبور القديم، ولك الحمد، إلهي أنت الظاهر، ولك الحمد، إلهي أنت الأحد الصمد ولك الحمد، إلهي أنت الشكور المجيد ولك الحمد، إلهي أنت الواجد الماجد ولك الحمد، إلهي أنت النور الهادي ولك الحمد، إلهي أنت الحكم العدل ولك الحمد، إلهي أنت المجيب العزيز ولك الحمد، إلهي أنت الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً. اللهم عطّف عليّ قلوب عبادك من أولاد آدم وبنات حواء، ومن ذكر وأنثى، وحر وعبد، وصغير وكبير، بالمحبة الدائمة والمودة والرأفة والرحمة واجلب لي قلوبهم واحفظني من شر ما يريدون لي وأرفع عني مكرهم وأذاهم وشرهم، اللهم بحرمة ما تكونه أسألك أن ترني حرمك بكرمك وبلغني زيارة قبر نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يا قاضي الحاجات، يا مجيب الدعوات، يا الله يا رب

العالمين يا رحمن يا رحيم، يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا رزاق يا فتاح يا عليم يا باسط يا رافع يا معز يا مذل يا سميع يا بصير يا لطيف، يا حليم يا كريم يا رقيب يا مجيب يا واسع يا سميع يا جامع يا غني يا مُغنِ يا باقِ يا نور كل شيء، وهداه الذي خلقت الظلمات بنورك، يا عالي يا مانع، نون كل شيء وارتفاعه، اللهم إني أسألك يا الله أن تسخر لي خدام هذه السورة الشريفة يكونون لي عوناً من كل ما أريد وأطلب بحقها عليكم وطاعتها لديكم توكلوا وأطيعوا وأجيبوا بحق ما منها من الأسرار.

اللهم إني أسألك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن سيدنا محمداً عبدك ورسولك. يا الله أنت الله الحق المبين، يا الله الثابت النصير، يا الله أنت المعروف بالجود، يا الله أنت الله المصور البديع، يا الله أنت الله نور السموات والأرض، يا الله أنت الله نور الدنيا والآخرة، يا الله أنت الله الواحد الأحد، يا الله أنت الحي القيوم، يا الله أنت العزيز الجبار، يا الله أنت الله المتوحد بالصمدانية، يا الله أنت الله العلي المحسن، يا الله أنت الله الظاهر بكلماتك، يا الله أنت المنزه من كل عيب، يا الله أنت الله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يا الله أنت الله الذي لا ند له ولا شبيه له، يا الله أنت الله الأول بلا بداية، يا الله أنت الآخر بلا نهاية، يا الله أنت الله المقيم بلا حد، يا الله أنت الله الحي الذي لا يموت أبد الله، يا الله أنت الله الباقي المعبود، يا الله أنت الله المكرم المتفضل، يا الله أنت ربي ذو الجلال والإكرام.

اللهم إني أسألك بحرمة سورة يس وبحق هذا الدعاء المبارك أن تريني حرمك وتبلغني زيارة قبر نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتسهل عليّ كل عسير وان تسخر لي خدام هذه السورة يكونون لي عوناً على ما أريده من كل خير، اللهم سخر لي خلقك ورزقك، اللهم عطّف عليّ قلوب عبادك من كل ذكر وأنثى، وحر وعبد، وصغير وكبير، بالمحبة الدائمة والمودة والعطف، وارزقني الحظ الجزيل وسخر لي قلوب عبادك، وأن ترزقني رزقاً حلالاً طيباً مباركاً فيه، وكن لي عوناً ومعيناً وحافظاً وناصراً وأميناً، سبحان المنفّس عن كل مديون، سبحان المفرّج عن كل محزون، سبحان من خزائنه بين الكاف والنون، سبحان من إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، يا مفرج فرّج (7مرات)، يا قاضي الحاجات يا مجيب الدعوات هون عليّ كل عسير ببركة سورة يس.

الفهرست



لوحة تبين سلسلة زروق وأسانيده
النجمة (*) التي تلي الأسماء تشير إلى مؤسس الطرق الصوفية قبله